مَظَاهِرُ الحَضَارَةِ

في

شِعرِ ابْنِ المُعْتَزِّ العَبَّاسِيّ

تأليف الدكتور

أحمد فهمي عيسى

كلية التربية بدمياط - جامعة المنصورة

مكتبة نانسي دمياط

هاتف : ٤٠٨٥٥٣ - ٤٠٨٥٥٤ - ٣٢٣٣٦٩

فاكس : ٠٥٧/٤٠٣٧٥٥

محمول : ٠١٠١١٠٨٧١٩ - ٠١٢٧٥١٠١٠٦

البريد الإلكتروني :

www.nashahean@yahoo.com

اسم الكتاب : مظاهر الحضارة في شعر ابن المعتز العباسي

اسم المؤلف : د/أحمد فهمي عيسي

اسم الناشر : مكتبة نانسي دمياط.

اسم الطابع : مطبعة نانسي دمياط.

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/٢١٢٢٠

الترقيم الدولي : I.S.B.N 977- 5867 -97 -5

مونتاج : رانيا - مني

طباعة : عماد

بشر : السيد حامد - محمد مرعي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الواحة والراحة...

عزة

ورفيدة

ونسيبة

حبًّا وأملا وابتسامًا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

" البحث في الحضارة دراسة شيقة وشاقة في آن واحد؛ وذلك لأنها تصور التاريخ بصورة حية وشاملة، وتحاول أن تبعث الماضي متكاملا بقدر الإمكان. والحق أنه منذ أخذ بعض الباحثين على عاتقهم كتابة تاريخ لحضارة البشر، زال عن البحث التاريخي كثير من جفافه، وأصبحت الصورة التي تقدمها إلينا الكتب التاريخية قريبة من تصورنا وفهمنا، ففيها يتمثل الإنسان مكتمل الأوجه، إذ نتأمله صانعا، أو زارعا أو شاعرا، أو كاتبا وفنانا، وصاحب عقيدة، وسياسيًّا وحاكما".[1]

ومفهوم كلمة حضارة مفهوم تطور مع الزمن لاسيما في تاريخ الحياة العربية، والمفهوم الأصيل لكلمة الحضارة في اللغة العربية أنها: تعني حياة الحضر والإقامة الثابتة في المدن والقرى وعكسها (البداوة) وهى حياة التنقل في البادية.

وكان عبد الرحمن بن خلدون أول من تصدى لهذا التمييز على أساس الدراسة الواعية والتسجيل والتحليل العلمي، بل إن هذا العالم هو أول من عالج شئون الحضارة العربية بطريقة علمية تحليلية ".[2]

---

(١) الإنسان والحضارة: د. فؤاد زكريا، (ص: ١٢).

(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون، (ص: ١٢٠).

على أنه إذا كان ابن خلدون قد بلور مفهوم الحضارة عند العرب على أنها ذلك النمط من الحياة المستقرة والذي يناقض البداوة، فتنشأ القرى والأمصار، ويضفي على حياة أصحابه فنونًا منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة وإدارة شئون الحياة والحكم وترتيب وسائل الدعة وأسباب الرفاهية، وإذا كان ابن خلدون بلور هذا المعنى التاريخي واعتبر الحضارة غاية العمران، فإن مفهوم الحضارة في عصرنا قد امتد إلى ألوان من المعنى هي أوسع مما رآه ابن خلدون في عصره، وفي بيئته العربية في انتقالها الاجتماعي والسياسي والثقافي والمدني من البادية إلى الحضر.

" ولئن كان بعض العرب القدامى قد استعملوا لفظ (مدني) بمعنى (اجتماعي) فإن مفهوما آخر ظهر واتصل بها، أصبح الآن يعرف " بالمدنية " بل إن ابن خلدون ذاته كان سباقا أيضا في هذا المجال اللفظي فاستعمل صيغة التمدن وكان يعنى بها (التحضر)".[1]

على أن تلك المفاهيم اللغوية إنما نشأت في بيئة عربية كانت حياة الحضر فيها تقابل حياة البادية، ولكن هذه الحالة من التقابل لا تكاد توجد بصورتها التقليدية إلا في جهات قليلة جدًّا خارج عالمنا العربي، ولذلك فإن لفظ الحضارة في مفهومه العالمي ومفهومه الحديث المعاصر بصفة خاصة قد أصبح أكثر اتساعا مما يدل عليه في مفهومه اللغوي التقليدي. وإذا كان أصل الحضارة: الإقامة في الحضر، فإن المعاجم

---

(١) أضواء على الحضارة الإسلامية: أحمد السايح، (ص: ١٨).

اللغوية الحديثة، ترى أن الحضارة هي الرقي العلمي والفني، والأدبي، والاجتماعي والاقتصادي في الحضر.[1]

" والحضارة باختصار شديد هي جملة المظاهر المعنوية التي يخلفها التاريخ والتي تبقى في المجتمع على مر الأيام دليلا على القدرات الذهنية المميزة، وتعبيرا عن روح هذا المجتمع والشعب الذي يمثله. ولا شك أن المظاهر المعنوية تأخذ قوالب مادية مختلفة تتجسم فيها تلك المعنويات، وتشكل المظاهر المعنوية في صور مختلفة كالفنون والآداب والعلوم والمعارف، ومجموع ما ينتج عن ذلك كله من تسجيلات ومشاهد في الآثار والعمائر وأسلوب الحياة وآداب المعاش اليومي وتقاليد المجتمع في التقارب والتفاهم والتعايش ".[2]

ومن ذلك نستطيع أن ندرك العلاقة بين الحضارة civilization والمدنية civilization التي تعني " الوسائل والأدوات المادية التي يستعين بها الإنسان على تحقيق حضارته، وهي العديد من الأشياء والأدوات المادية التي تعين الإنسان على التقدم في مضمار الحضارة، وإذا كانت الحضارة هي الإبداع في مجالات الفنون والمعارف والعلوم، فالمدنية هي السبيل إلى تذليل الصعاب الحضارية والأدوات المادية التي تبلغ بها الحضارة مستوى الإبداع والتقدم. وكلما سيطرت الحضارة على وسائلها المادية أمكنها أن تحقق ألوانًا من الفن والإبداع الذي تسجله الحضارة في جملة مظاهرها المعنوية الخلاقة. وقد تؤدي الماديات

(١) المعجم الوسيط، (٢/ ١٨١)، مجمع اللغة العربية.

(٢) أضواء على الحضارة الإسلامية، (ص: ١٨).

المختلفة إلى رفع مستوى التقدم الحضاري. وقد تـؤدي إلـى تخلفـه وانحداره، والذكاء الإنساني في مجال استخدام الماديات هو الحَكَم فـي توجيه هذه الماديات، فإما أن تسير سيرًا حثيثًا نحـو الإبـداع والتـألق والتقدم أو أن يهبط بها إلى مجال العبث والفساد والتـدهور، وإمـا أن تسيطر القيم الروحية العالمية على هذا الذكاء فتحدد مسـاره بأهـداف إنسانية عالية ".(١)

" والفرق بين الجوانب المادية من الحضارة والجوانب المعنويـة هي أن الجوانب المادية من الحضارة بضاعة مشتركة لا يختلف فيهـا قوم عن قوم إلا من حيث درجة إتقانها فلا يميـز بينهـا إلا "*ماركـة مسجلة*"، أما الجوانب المعنوية من الحضارة، فقـد تتـأثر بمـؤثرات خارجية، ولكنها لا تتغير ولا تستبدل؛ لأنها لا تتعلق بوسائل الحياة بـل بغاياتها ومُثلها، تلك التي نسميها القيم، والقيم هي المعنى الـذي يجـده الإنسان لحياته، هي جوهر وجوده، فإذا تخلى عنها فقـد تخلـى عـن وجوده. ومع ذلك فإن الوسائل لا يمكن أن تنفصل عن الغايـات، بـل يجب أن يكون بينهما ذلك الانسجام الذي يتحقق معه تكامل الشخصـية في الفرد وتكامل الحضارة في الجماعة ".(٢)

---

(١) نفسه، (ص: ١٩).

(٢) الرؤية المقيدة، د. شكري عياد، (ص: ١٥).

فالتمييز الصحيح بين الجوانب المادية والجوانب الروحية من الحضارة لا ينفي أنهما يتكاملان تكامل الوسائل والغايات، فالتمييز الصحيح بين" العقل والقلب لا ينفي أن كليهما يتدخل في عمل الآخر".(١)

" ولا شك أن كل حضارة متأخرة تفوق ما سبقها في تطور الحياة ووسائلها المادية، ومن العبث أن تطالب الحضارة السابقة بما وصلت إليه الحضارة اللاحقة، فالعنصر المادي في الحضارات ليس هو أساس التفاضل بينهما دائما وأبدا. وأما العنصر الأخلاقي الروحي فهو الذي تخلد به الحضارات وتؤدي به رسالتها من إسعاد الإنسانية وإبعادها من المخاوف والآلام. إن الغاية من الحضارة هي أن تقرب الإنسان إلى ذروة السعادة، وبهذا فالحضارات لا يقارن بينها بالمقياس المادي ولا بالكمية في الأعداد والمساحات، ولا بالترف المادي في المعيشة والمأكل والملبس، وإنما يقارن بينها بالآثار التي تتركها في تاريخ الإنسانية "(٢) وكلما كانت الحضارة عالية في رسالتها، إنسانية في نزعتها، خلقية في اتجاهاتها، وواقعية في مبادئها- كانت أخلد في التاريخ وأبقى على الزمن، وأجدر بالتكريم".(٣)

" ولئن كان الإسلام قد امتاز بأنه دين الحضارة الإنسانية فإن الواقع يبين للباحث والمفكر والدارس، أن الحضارة الإسلامية استمدت كل مقومتها وعناصر وجودها وأسباب نمائها وازدهارها من الإسلام

---

(١) نفسه، (ص: ١٧).

(٢) من روائع حضارتنا؛ د مصطفى السباعي، (ص: ٥٠).

(٣) من روائع حضارتنا، (ص: ٤٥).

ذاته. فالإسلام كان ولا يزال دين الحضارة الإنسانية، بمعنى أنه كان منذ نزوله دين عبادة، ودين معاملة، وأنه أنشأ لونًا من الحضارة عرف باسمه وهو الحضارة الإسلامية..؛ لهذا نجد أن المستشرقين مدفوعين بدوافع شتى قد ظلموا الحضارة الإسلامية، حينما أطلقوا عليها في مؤلفاتهم وكتاباتهم الحضارة العربية أو حضارة العرب، وهذا يدل على الجهل والتحاليل؛ لأن حضارة عربية بدون الإسلام لم تقم".[١]

" والحضارة الإسلامية تتسم بطابع الحيوية والشمول نتيجة لتفاعلها وامتزاجها بالحضارات السابقة عليها وتطويعها بما يتفق مع المبادئ الدينية، ويتمشى في نفس الوقت مع الأغراض الدنيوية في إطار إسلامي، مما جعلها في النهاية تنفرد بطابع حضاري متميز بين الحضارات المختلفة التي أخرجتها البشرية على مر العصور.[٢]

فلقد تميزت الحضارة الإسلامية بالتفهم العميق، والوعي البناء والإدراك السليم المتعقل للحضارات الأخرى. فقد وجد العرب أمامهم في فتوحاتهم حضارات قائمة راسخة الجذور، واضحة المعالم، فلم يحاولوا طمس هذه الحضارات أو مواجهتها بالعداء السافر أو التدمير أو فرض ما يحملون من صفات التميز على شعوب تلك الحضارات بقوة السلاح وغلبتهم وسيطرتهم، ولكنهم عملوا على تفهم تلك الحضارات وأخذوا منها ما يناسب طبائعهم وتقاليدهم، وما يشبع حاجاتهم. كما عملوا على مهادنة النظم القائمة والتمييز بين الصالح منها فأخذوه وأبقوا

---

(١) أضواء على الحضارة، (ص: ٤٥).

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية: محمد محمد القباني، (ص: ٢).

عليه، أما الطالح فطرحوه جانبا وقضوا عليه، وعملوا على تنقية تلـك الحضارات مما يشوبها وبعثها في صورة حية ومتجاوبة مـع مظـاهر الحضارة العربية الإسلامية. وكان امتزاج حضارتهم مع الحضـارات الأخرى بعيدا عن نزعة العصبية أو الأنانية مما كَـوَّنَ فـي النهايـة الحضارة الإسلامية بطابعها الفريد المتميز، وجعلها منارًا مضيئا للعلوم، وشعلة وضاءة للمعرفة في العصور الوسطى.

☆☆☆☆☆☆☆☆

" إن بين الحضارة وبين الفرد تأثيرا متبادلا: فصحيح أن بعض الأفراد قد أثروا في مجرى الحضارة تأثيرا كبيـرا، غيـر أن هـؤلاء الأفراد بدورهم متأثرون بالحضارة. ولولا أنها هيَّأت لهـم الظـروف الملائمة لما حققوا الأعمال الكبرى التي تنسب إليهم. فإذا نظرنـا إلـى المسألة من أحد وجهيها، قلنا: إن الحضارة تبدو وكأنهـا تسـير فـي طريقها الخاص وإن المواقف الحضارية هي التي تتطور بـذاتها، فـلا يكون العامل الفردي سوى وسيلة للتعبير عن هذه المواقف، ولنقلها بعد تعديل طفيف عليها – خلال الزمان، ولكنا إذا نظرنا إليها من وجههـا الآخر، قلنا: إن هذه المواقف الحضارية ذاتها ليست مـن صـنع قـوة تفرضها على الأفراد فرضًا، وإنما الحضارة تسير في طريقهـا بفعـل مجموعات الأفراد، الذين يمكنهم أن يتحكموا فيها تحكمًا تامًّا، فللفرد إذن أثره الكبير في توجيه الحضارة، ولكن بشرط أن يتفهم الوجهـة التـي يتجه إليها التطور السليم للجماعة، وألا يجعل من سـلوكه عقبـة فـي طريق تقدم مجتمعه. وأما أن يستجيب هذا السلوك للحاجات الحقيقية لا الظاهرية الوقتية للمجتمع حتى يكون مؤثرا في الحضارة بحق.

إن تيار الحضارة يجرف الأفراد؛ لأنه أوسع منهم نطاقًا إلى حد بعيد، هذا صحيح، ولكن هذا التيار ذاته لم يكن ليسير لو لم يقم الفــرد بدوره، يشارك في دفعه، ويتمشى معه، لا رغما عنه، ولكن عن وعي، وعن إرادة، ورغبة في دفع التاريخ إلى الأمام ".[١]

فالفرد مقوم أساسي من مقومات الحضـــارة، ولكـــن الحضــــارة بجانبيها المادي والمعنوي تتدخل بشكل كبير في تشكيل البناء الإنساني للأفراد. فالإنسان الذي ربته الحضارة الفرعونية القديمة يختلــف فـــي نسقه القيمي عن إنسان احتضنته الحضارة الإغريقية القديمة، يختلــف عن إنسان استهلهم حضارته من القرآن والسنة، والأفراد من مجموعهم تتكون الأمم؛ ولذلك، " فقد لا يتفق لأمة أن تكتشف مـــن المنـــافع مـــا اكتشفته أمة أخرى، ولا يطعن ذلك في مقدرة الأولى، ولا يحول بينهـــا وبين أن تتخذ هذه المنافع نفسها حين تتهيأ لها نفس الأسباب. وقد كـــان في شعر العرب ما ليس في شعر اليونان، كما كان في شعر اليونان ما ليس في شعر العرب ". [٢]

فلكل أمة أدب خاص بها، ما دامت الأسباب الحضارية للأفـــراد تختلف من أمة لأخرى. " فالأدب تعبير عن روح الحضـــارة. فجمـــود الأدب عندنا في العصر التركي صورة لجمود الحياة، وانتعـــاش الأدب عند الغربيين منذ عصر النهضة صورة لنشاط الحياة ".[٣] " فالأشـــكال

---

(١) الإنسان والحضارة: د. فؤاد زكريا، (ص: ٣٦).
(٢) الرؤية المقيدة: د. شكري عياد، (ص: ١٣).
(٣) نفسه، (ص: ١٤).

الأدبية لا تنشأ لذاتها، ولا تروج لذاتها، ولكنها تنشأ وتروج لأنها تعبر عن تصور معين للحياة وتعالج مشكلات معينة لدى الجمهور". [١]

" فالأدب لون زاه من ألوان الحضارة سواء أكان دينيًا أم دنيويًا وهو لون ذو سر خاف فيما يبدو، سر يجعله باقيا حتى بعد اندثار أو انحسار الحضارة التي ينتمي إليها، أو يجعله عامل بقاء لشعوب تبدو أنها فقدت كل عوامل البقاء ".[٢]

" ويكفي غاية الأدب أنه ينمي موهبة الذوق وحاسة الجمال.. ويربي الشخصية القومية فتضع بصماتها بعد هذا على سائر ما يصدر عنها من وجوه النشاط الفني في المجالات الأخرى. وهذه هي ركائز الحضارة ".[٣]

والأدب يعتمد أول ما يعتمد على اللغة التي هي ترجمان الحضارة التي نشأ فيها " فاللغة وجدان أصحابها بكل ما يحتاج به هذا الوجدان من مشاعر وآلام وآمال ورؤى.

وحين تكون اللغة بعطائها الأدبي، فنًا بذاتها، ونبعًا للفنون الأخرى بما تعطيه وبما توحيه، فإن الأدب يكون خيطًا في نسيج كل إنسان، كما أنه خيط مشغول ومحسوب في نسيج الشخصية القومية "[٤]

" وستظل رؤيا الفنان دائما مقيدة بطابع الحضارة التي ينتمي إليها، تتأثر بكل ما تتأثر به هذه الحضارة من عوامل، ولكنها تطمح

---

(١) نفسه، (ص : ١٨) .

(٢) الأدب والحضارة: د. نعمات أحمد فؤاد، (ص: ٢٤).

(٣) نفسه، (ص: ١٤).

(٤) نفسه، (ص: ١٠).

لتستشرف المطلق، وتجذب الحضارة – لا حضارة قومه فحسب، بـــل حضارة البشرية جمعاء إلى رحابه ".[١]

" إن الأديب يعلم أن شخصيته نتاج مجتمعه، وأن كل ما يتلقـــاه من أفكار ومشاعر هو من صنع هذا المجتمع، حتى فنه أيضًا صـــورة لمجتمعه. ولكن الفن يختلف عن غيره من ضروب النشاط البشرى في أنه لا يتوقف أبدا، ولا يسلم أبدا بما هو موجود، بل يحاول أن يقفز من الآني إلى الدائم، ومن الجزئي إلى الكلي، أن يتجاوز حـــدود الزمـــان والمكان ليصل إلى المطلق. هذه هي رؤيا الكاتب الفنان. ورؤياه هـــي سر عذابه. وسر القداسة التي تحيط بهذا العذاب ".[٢]

وكل ما حول الشاعر يتدخل في تشكيل صوره الشعرية، حتـــى وإن عاش في المطلق البعيد، فلن يحدثه إلا بلغـــة وصـــور عصـــره. " فالشعراء يهتزون إلى قرص الشمس كلما رأوا البطاح بيضاء بـــرذاذ الثلج الذي يتناثر من زهرات الكريز الساقطة في أصـــباح الربيـــع، أو سمعوا في أمسيات الخريف حفيف الأوراق وهي تتساقط، أو كلما رأوا شاهد الأيام المؤلمة البشعة تنعكس أمام أعينهم على مرآة الحوادث عامًا بعد عام، أو كلما أخذتهم الرعدة حينما رأوا قطرة الندى ترتعش علـــى الكلأ المزدان بآلائه ".[٣]

---

(١) الرؤية المقيدة، (ص: ٧).

(٢) الرؤية المقيدة، (ص: ٣).

(٣) الأدب والحضارة، (ص: ١٥).

" فالأديب يتأثر بالحياة الخارجية السائدة في بيئته، القائمة في مجتمعه، وهو يستمد أدبه من حياة هذا المجتمع. وهنا تأتي العبارة المأخوذة عن " دي بونا " التي تقول:" إن الأدب تعبير عن الحياة "، وعندئذ نتساءل: ما معنى هذه الحقيقة التي يسلم بها الناس دون برهان؟ إذا كانت تعني أن الأدب في أي زمان من الأزمان مرآة تنقل أحوال المجتمع نقلا " صادقا " فإنها تكون باطلة. إنها حقيقة عادية وقديمة ومبهمة إذا كانت تعني فقط أن الأدب يصور بعض مظاهر الواقع الاجتماعي. وحتى القول إن الأدب مرآة تنقل الحياة أو تعبر عنها قول أكثر غموضا. وإن الكاتب لا يملك إلا أن يعبر عن تجربته وفهمه العام للحياة... وأنها لقاعدة تقديرية خاصة أن نقول إن المؤلف ينبغي أن يعبر عن الحياة في زمنه تعبيرا كاملا، وأن يكون "ممثلا " لعصره ومجتمعه".[1]

ولا شك أن التطور الذي طرأ على المجتمع العربي بعد ظهور الإسلام كانت له أسبابه ودوافعه ويأتي على قمة هذه الأسباب: الدين الإسلامي وما صحبه من قيم ومُثُل غيَّرتْ وجه الحياة الإنسانية وغيرت قبل ذلك الإنسان الذي يحرك هذه الحياة ويدفعها إلى الأمام، وليس من شك أيضا في أن التغيير المادي الذي طرأ على المجتمع كان له دخل في بناء الحضارة، وأن العناصر الأجنبية تركت أثرها كذلك في بناء الحضارة سواء تمثلت هذه العناصر في أولئك الذين اعتنقوا الإسلام أو الذين لم يعتنقوه ولكن اختلط بهم العرب فأثر ذلك في الحياة العقلية

(١) الأدب وفنونه: د. عز الدين إسماعيل، (ص: ٤٣).

والأدبية، والاجتماعية هذا فضلا عن اتساع رقعة المملكة الإسلامية في عهدها الزاهر أيام بني العباس تحت راية واحدة ولغة واحدة ودين واحد وأدب حضاري تفوق على كل الآداب التي احتك بها في العهد القديم.

" كما تمثلت مظاهر الحضارة فيما خلف العرب من فن معماري عظيم تمثل في المساجد والقصور ودواوين الحكومة وإن نظرة فاحصة مدققة توازن بين العرب في بدواتهم وتدرجهم في مدارج الرقى حتـــى عصر بنى العباس لتحس الفارق الكبير والتغير الحضاري الذي طـــرأ على المجتمع ".[1]

هذا التغير الحضاري لم يتناول الجوانب المادية وحدها بل تناول أيضا الجوانب المعنوية من علم، وفن، وأدب.

وقد تألقت بغداد في سماء الحضارة في العصر العباسي، وحين تتحضر المجتمعات يظهر فيها التناقض وتجمع أخلاطا من الناس فـــيهم المؤمن والملحد والغني والفقير والعالم والجاهل والزاهد والماجن وهكذا كان شأن الحياة في العصر العباسي.

والحق أن الحضارة الإسلامية تدين بكل ما ارتبط بها من فكـــر وفن وشعر للعباسيين سواء بمقوماتها أو بطوابعها التي ركبت في بنيتها وائتلفت في نسيجها، بحيث إذا نطقنا ارتسمت في أذهاننـــا تـــوًّا تلـــك الحضارة بمشخصاتها وقسماتها المميزة. وهي حضـــارة نشـــأت مـــن المزاوجة الرائعة بين التراث العربي والإسلامي والتراث الحضـــاري الإنساني، إذ قامت على سنن رشيدة من الإبقاء على الكيـــان العربـــي

---

(١) الأدب والحضارة: د. السيد تقي الدين، (ص: ٥)، دار نهضة مصر.

والروح العربية وإساغة كل ما لدى الأمم المستعربة من حضارات وثقافات متباينة، بحيث أصبح العرب ورثة الهند والفرس واليونان، والأمم السامية والأمة المصرية القديمة، وبحيث كونوا من هذا الإرث حضارتهم التي سيطرت حقبًا طويلة على كل ما عداها من حضارات وسبقتها في مختلف فروع الفكر والمعرفة والثقافة ".[1]

☆☆☆☆☆☆☆☆

والباحث عندما يخص ابن المعتز العباسي بالبحث عن مظاهر الحضارة في شعره يضع في اعتباره توفر الأسباب والروافد الحضارية العامة والخاصة التي أتيحت لابن المعتز، أكثر من غيره من شعراء عصره. مما جعل شعره وثيقة حضارية تصور الحضارة الإسلامية في القرن الثالث الهجري أصدق تعبيرا.

وطبيعي أن يضم البحث بابين، يمثل الباب الأول:

(مظاهر الحضارة في شعر ابن المعتز العباسي)

والباب الثاني يمثل:

(الاستخدامات الفنية لصورة الحضارة في شعر ابن المعتز)

وضم الباب الأول ثلاثة فصول، الفصل الأول يبحث في:

(*حياة ابن المعتز وأثرها في شعره*).

أما الفصل الثاني فيتناول:

(*مظاهر الحضارة المعنوية في شعر ابن المعتز*)

---

(١) فصول في الشعر ونقده: د. شوقي ضيف، (ص: ٥٤).

من جوانب إيمانية وأخلاق وسلوك، وعلم وتسامح ديني وشورى ونصيحة ودعوة إلى العمل وغير ذلك.

والفصل الثالث يتناول:

(*مظاهر الحضارة المادية في شعر ابن المعتز*)

وتبين فيه الحركة العمرانية الفذة في هذا العصر. وكذلك خدمات الدولة والمهن والحرف والملبس والمأكل والأعياد والحفلات، ووسائل اللهو والترف والتجارة والزراعة.

وجاء الباب الثاني أيضا في ثلاثة فصول.

يتناول الفصل الأول:

(*أثر الحضارة في الموضوعات الشعرية*)

وتبين فيه أن الإسلام أضاف قيمًا ومفاهيم جديدة، ظهرت في شعر الفخر والمديح والرثاء والهجاء والشعر السياسي والحكمة. كما وضحت فيه أثر الروافد الأجنبية على الحضارة والذي ظهر في شعر الغزل والخمر وكيفية الاستمتاع بمظاهر الطبيعة الجديدة.

وتناول الفصل الثاني:

(*أثر الحضارة في البناء الفني للقصيدة*)

ووضحت فيه أثر الحضارة على شكل القصيدة ومقدمتها ووحدتها العضوية وخاتمتها وكذلك أثر الحضارة في الموسيقى الشعرية والأسلوب.

وتناول الفصل الثالث:

(*أثر الحضارة في التصوير الفني في شعر ابن المعتز*)

وتبين فيه كيف أن الحضارة أكسبت الصورة الفنية روحا جديدة وأضافت إليها ألوانا جديدة لم تكن معروفة من قبل، وتبين كيف وظف ابن المعتز المظاهر الحضارية الجديدة في تركيب صورته الفنية.

وتبين أيضًا أثر الدين الإسلامي على الصورة الفنية في ربط الإنسان بالكون فجاءت الصورة أدق وأعمق من ذي قبل وكذلك في استخدام الصورة لمعجمه الشعري.

وختم البحث *بخاتمة* توضح النتائج التي توصل إليها الباحث ثم بقائمة *المصادر والمراجع* التي اعتمد عليها.

وفي النهاية إن أكن فيما ذهبت إليه موفقًا فبالله التوفيق، وإن تكن الأخرى فلي أجر الاجتهاد وعلى الله ما وراء ذلك.

دكتور / أحمد فهمي عيسى

كلية التربية بدمياط – جامعة المنصورة

الباب الأول

مظاهر الحضارة في شعر ابن المعتز

- الفصل الأول:

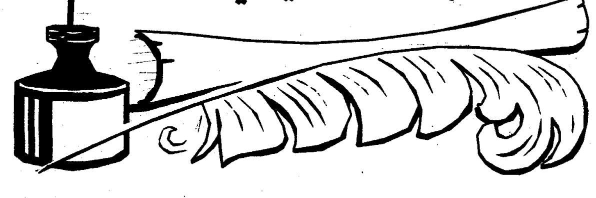
حياة ابن المعتز في بغداد وأثرها في شعره

- الفصل الثاني:

مظاهر الحضارة المعنوية في شعره

- الفصل الثالث:

مظاهر الحضارة المادية في شعره





الفَصْلُ الأَوَّلُ

حَيَاةُ ابْنِ المُعْتَزِّ فِي بَغْدَادَ وَأَثَرُهَا فِي شِعْرِهِ

قبل الحديث عن حياة ابن المعتز ينبغي أن نوضح البيئة السياسية للقرن الثالث الهجري الذي ولد فيه ابن المعتز حتى تكتمل الصورة وتتضح الرؤية.

فإذا أردنا أن نحيط بحالة الدولة السياسية في القرن الثالث الهجري فلعلنا لا نستطيع أن نعرض لذلك ببيان هو أوجز من الإلمام بالمصير الذي صار إليه بعض أولئك الخلفاء.

" فقد بدأ العصر بالحرب بين الأمين والمأمون وقتل الأول، واشتغل الأخير بمسائل التوحيد، وإثارة فتنة خلق القرآن مما أدى إلى اضطهاد بعض العلماء من أمثال أحمد بن حنبل.. وقد طال أمد تلك الفتنة حيث أذكى نارها المعتصم بوصية أخيه المأمون"[1]، " ثم تمادى فيها الواثق من بعده، ثم قتل المتوكل بعد ذلك وخلع ثلاثة وقتلوا بعد خلعهم، وهم: المستعين والمعتز والمهتدي، وقيل: إن من الآخرين قد مات مسمومًا، والبقية الذين ماتوا على سرير الملك لم يخلُ عصر أحدهم من فتنة أو انتفاض أو غارة خارجية، ولم يكن حظ ولاة العهود والأمراء والوزراء بخير من حظ الخلفاء ولا مصير أكثرهم بأكثر من هذا المصير. فَقَلَّ بين هؤلاء من نجا من الخلع والسجن والتعذيب واستصفاء الأموال".[2]

---

(١) التاريخ الإسلامي: على إبراهيم، (ص: ٤٦١).

(٢) ابن الرومي: العقاد، (ص: ١١).

" ويظهر أن الخلافة العباسية بعد فقدها تأييد العرب، تخبطت في سياستها وتذبذبت، فلم تعد تثق بأية قوة من القوى الموالية لها، حتى قوة الموالي التي كان لها الفضل الأول في قيام الدولة العباسية، فقد خشيت أن تستبد بالأمر، فعملت على تشتيت وحدتها. فقد اعتمدت على الخرسانيين ثم ثقة الفرس بعامة.

ودفع خوف العباسيين على الخلافة وتوجسهم الشر دائمًا إلى التماس عصبية جديدة، قدر لها أن تلتهم ما بقي للخلافة من نفوذ، فقد ضيعت الخلافة العربَ والفرس لتستعين بالترك، فاستبد الترك واغتالوا سلطانهم"[1]، وأضحى الخلفاء لعبة في أيديهم، وصاروا مسلوبي الحرية والسلطة دون أدنى مقاومة.

" ومما زاد الطين بلة تنافس الخلفاء وتناحرهم مع أولياء العهود، واستعانة هؤلاء وأولئك بالأتراك حرسًا عليهم وجواسيس لهم. حتى غدت بغداد أشبه بمعسكر كبير يصول الأتراك فيه ويجولون ".[2]

" وأصبحت أمور الدولة في يد الأتراك وأصبحوا مصدر قلق واضطراب، فهم يكرهون الفرس والعرب، وهم أنفسهم ليسوا في وفاق بعضهم مع بعض، وهم لا ينقطعون عن المؤامرات والدسائس، وتعصب كل فريق لقائد منهم، وهم كثيرو الطمع في الأموال لا

---

(١) العالم الإسلامي في العصر العباسي د. حسن أحمد محمود ، د. أحمد إبراهيم الشريف (ص: ٣١١).

(٢) تاريخ الأدب العباسي: د. محمد عبد العزيز الموافي (ص: ٨ – ٩).

يشبعون، وعلى الجملة فقد أصبحت " دار السلام " وما حولها ليست بدار سلام ".[١]

ونستطيع أن نجمل فنقول: إن الخلفاء كانوا دمية في يد الأتراك في معظم فترات القرن الثالث الهجري، يولُّونهم ثم يطالبونهم بالمال، ومن لم يلبِّ قتلوه أو سجنوه، ثم يولُّون غيره، فلقد كان إفراطهم في حب المال هو الذي يحركهم ويخطط لخطوتهم.

" ولم يكن الأمر بالنسبة للخلفاء فقط في عهدهم، فقد كثر عزل الوزراء ومصادرتهم وحبسهم، واستتبع انحطاط شخصيات الوزراء أنفسهم، إذ لجأ كثيرون إلى الرشوة وبذل المال للوصول إلى منصب الوزارة، وبذلك تقلد الوزارة شخصيات كان همها الوصول إلى المنصب، ثم جمع المال لتعويض ما أنفقوا، وبذلك ضاعت هيبة الوزير وتناقصت قيمته شيئًا فشيئًا حتى لم يصبح آخر الأمر إلا مجرد كاتب للخليفة، وأصبحت حقيقة السلطان في يد القواد ".[٢]

" وكان من نتيجة هذه السيطرة المتجبرة أن تدهورت الأمور في الدولة العباسية تدهورًا خطيرًا في شتى مناحي الحياة وأطمع هذا الأمراء والولاة على الأقاليم، فظهرت حركات الاستقلالية في كثير من أجزاء الدولة، وتقلص النفوذ من بغداد إلى الأقاليم. وعندما انتعشت الخلافة مؤقتًا في عهد " المعتضد " (٢٧٩- ٢٨٩هـ) عجزت عن

---

(١) ظهر الإسلام، (١ / ١٠).

(٢) العالم الإسلامي، (ص: ٣٢٩).

الاستمرار في هــذه الصــحوة المؤقتــة. واســتمرت الفوضــى فــي الاستفحال".[١]

" ولقد شهدت الدولة العباسية في القرن الثالث الهجري، حركات عديدة، ففي أوائل القرن تمرد بابك الخرمي وهدد تمرده الدولة العباسية خاصة بعد تحالفه مع البيزنطيين، وفي النصف الثاني من القرن نفســه انفجرت انتفاضة الزنج، وقامت حركة القرامطــة الإســماعيلية. ولــم تستطع الدولة أن تقضي على هذه الحركات بسهولة، وهذا إن دل علــى شيء فإنما يدل على مدى الوهن والتحلل الذي وصلت إليه هذه الدولــة المترامية الأطراف ".[٢]

" فلم تكن الحياة السياسية إذن في بغداد خالية دائمًا من الهمــوم والدسائس والمآسي ولكن المجتمع الراقي كان يتناســاها بســرعة فــي الترف والملاذ، وفى سباق الخيل وقذف الرمح.. كما يتناساها أيضا في المطاعم الريفية على ضفاف نهر دجلة. وبخلاف الأعيــاد والحفــلات المسائية الراقصة، وكانت نخبة من الرجال ينظمون مجتمعات شــعرية ومجالس فلسفية.. وكانوا يجتمعون أيضًا على المــلأ لــتلاوة القــرآن وتفسيره.. وكانت الفنون والعلوم تشجع عن حكمة، وكان الجو يمــوج بالشعر وبالمتعة الكاملة في الفهم، وكانت حياة بغداد تنطوي على شيء من التسامي ". [٣]

---

(١) تاريخ الأدب العباسي، د. محمد عبد العزيز موافي، (ص: ٩).

(٢) الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، د. فاروق عمر، (ص: ١٤٣).

(٣) الحضارة الإسلامية: جاك. س ويسلر، (١٤٣ - ١٤٤).

" أما جمهور العامة الخالي من الاهتمامات الفلسفية يعمل دائمًـا بذكاء وبشاشة، فكان عامة الناس يؤدون عملهم على ظهـور السـفن، وعلى الأطورة (الأرصفة)، وفي الأسواق وبين الوقت والوقـت، كـان دولاب العمل اليومي يُقاطَع في الشوارع بموكب عرس أو ختان، ولكن الضوضاء كانت تتوقف مع أي إجراء للشرطة، وتعود الحياة اليوميـة إلى مجراها الطبيعي".[١]

وعلى الجملة كان الشعب يحس بشيء من اللامبالاة لما يدور في بيت الخلافة، فلم يعد تهزه الأحداث لكثرة ما تحدث.

☆☆☆☆☆☆☆☆

---

(١) نفسه، (ص: ١٤٦).

وبين أحضان البيئة السياسية المضطربة، وبين ربوع سامراء، ذات الأرض الخصبة، والجو العليل، والهواء البليل، والماء الغدير والنسيم المعطر برائحة الورود والزهور، حيث الحدائق والبساتين، ولد عبد الله بن المعتز العباسي في أحد قصور المتوكل، أو بين قصر من قصور كثيرة ابتناها المعتصم والمتوكل توحي بنهضة عمرانية ضخمة تتألق في صفحات التاريخ.

ولكن هذا الوليد[١] لم يكن حسن الطالع، فما أن وضعت أمه إصبعها في فيه تتحسس خروج أسنانه حتى سُمع صوت الناعي، وتهز سامراء بأفظع حدث في تاريخ الدولة العباسية ألا وهو مصرع جده المتوكل الذي يعد الأمارة الأولى لانحلال الخلافة العباسية ووهنها، " ثم يخلفه المنتصر المتآمر عليه، ولم يمد له في العمر فأعقبه المستعين الذي أخذ يتتبع المعتز وأخاه المؤيد فابتاع جميع ما كان لهما من دور ومنازل وضياع، ثم أمر بحبسهما فحُبسا في الجوسق أحد قصور

---

(١) ولد ابن المعتز في سامراء في أحد قصور جده المتوكل - على الأكثر في سنة لم يتفق عليها، فابن خلكان يرجح أنه ولد في سنة ٢٤٧ هـ (وفيات الأعيان: ٢/ ٢٦٣) وفي النجوم الزاهرة: أنه ولد عام ٢٤٩ هـ، وفي رواية أخرى ذكرها الدكتور خفاجي في ابن المعتز وتراثه - تشير إلى أنه قد ولد سنة ٢٤٦هـ. ويرجح الباحث ما ذهب إليه الرأي الأخير وذلك؛ لأنه يوجد في شعر ابن المعتز ما يؤيده يقول [الديوان:١٧٦/٣ بغداد]:

بلغت الأربعين وزدت عَشْرًا   وصرت كأني خَلِقٌ مُطَرًّى

وعليه فسن ابن المعتز حين قال هذا الشعر كان خمسين عامًا، ومعلوم أنه قتل سنة ٢٩٦هـ، فيكون قد ولد سنة ٢٤٦هـ إن لم يكن قبل ذلك.

المعتصم المشهورة في سنة ٢٤٨هـ "[١] وبقيا في الحبس إلى أن اضطر المستعين إلى الهرب والانحدار إلى بغداد خوفًا من سطوة الأتراك فأخرج المعتز من سجنه وبويع له بالخلافة، " فابتسمت الحياة من جديد لهذا الطفل الذي أشرف على الخامسة من عمره، ووجد في كنف أبيه أمنًا ودعة، فتقلب في بحبوحة من العيش وتفتحت عيناه على أجمل ما تفننت به يد الصانع من ضروب العمران والتزيين والتلوين، ولعل " الكامل " أحد قصور أبيه قد بلغ النهاية في هذا المجال بما اشتمل عليه من روعة وإبداع وبما بذل فيه من جهد وأموال ".[٢]

" وكان أبوه جميل الوجه، مرهف الحس، رقيق الذوق، دقيق المشاعر مما أنطقه الشعر المصفى".[٣] ففي الديارات للشابشتي " كان المعتز سمح الأخلاق، واسع النفس، له أدب وفهم، ويقول شعرًا صالحًا.. وكان من أحسن الناس وجهًا وأجملهم وكان يضرب به المثل في الحسن والجمال".[٤] وفي مواضع مختلفة من الكتاب نرى قصفه وشرابه وسماعه للغناء في قصره وفي بعض الأديرة، ونطلع على جانب من ترفه في قصريه " الزوّ " و " الكامل " بسامراء.

وكان المعتز بالله محبًا للَّهو والغناء، ولكنه كان محبًا للشعر أيضا، حتى إن صاحب الديارات حكى عنه بعض المقطوعات الشعرية، مما جعل الدكتور طه حسين يقول عنه:" هذه الحياة ألهمت المعتز نفسه

---

(١) الطبري، (٩ / ٢٥٨).

(٢) شعر ابن المعتز دراسة وتحقيق: القسم الثاني، أحمد السامرائي، (ص: ٤٠).

(٣) العصر العباسي الثاني: د. شوقي ضيف، (ص: ٣٢٥).

(٤) الديارات للشابشتي، (ص: ١٦٥) الطبعة الثالثة، وانظر أخبار المعتز (ص:١٥٠)

ذوقا فنيًّا خالصًا، فكان شاعرًا وشاعرا مجيدا. ولو قد مُدَّ له في عمره لكان كابنه شاعرًا نابغًا، ولكنه أُعْجِل فلم تَطُلْ أيامه، وكان يُعْنَى في الشعر بهذه الفنون التي تلائم المجون والدعابة التي تلائم حياته الخاصة".[١]

" فالمعتز كان محبًّا للهو والشعر، لاهيًا، حتى إنه لم يعر أمه أدنى اهتمام، وهي تحثه على تتبع الأتراك والنيل منهم، وتقول له:" يا بني اقتلهم في كل مكان، وتخرج إليه قميص أبيه المتوكل مخضبًا بدمائه فيطلب منها أن ترفعه خشية أن يصير القميص قميصين ".[٢]

" ويبدو أن المعتز قد ورث كل ذلك عن أبيه المتوكل الذي وإن كان عصره من أنضر العصور وأكثرها رخاءً وصفاءً وغضارة وعمرانًا إلا أنه كان محبًّا للغناء والشراب أيضًا حتى إنه قتل في مجلس شرابه مع وزيره الفتح بن خاقان ، فرثاه أحد الشعراء بقوله:

هكذا فَلْتَكُنْ مَنايا الكِرامِ   بين نايٍ ومِزْهَرٍ ومُدَامِ
بين كأسين أَرْوَتَاه جميعًا   كأس لذاته وكأس الحِمامِ[٣]

رجل كالمعتز بالله، هذه حياته، كيف يربي ابنه ؟ لا شك أنه سيترك في نفس هذا الوليد الصغير أثرًا كبيرًا، فلا شك أن هذا الطفل الصغير – أعني عبد الله بن المعتز – كان يدخل على أبيه في مجلس شرابه وغنائه فيستمتع بهذا الغناء، ويطرب للألحان الموسيقية العذبة،

(١) من حديث الشعر والنثر، طه حسين، (ص: ١٥٣).
(٢) الديارات للشابشتي، (ص: ١٦٩).
(٣) زهر الآداب: الحصري، (١ / ٢٢٧).

بل ربما كان أبوه يصحبه في رحلات الصيد، ولمَ لا وعمر الطفل قد بلغ الخامسة والسادسة والسابعة في عهد أبيه.

ولقد كان ابن المعتز محبًّا لابنه مؤثرا له، حتى أنه أقطعه قطائع باسمه في بلاد الشام بجوار ضيعة كان أعطاها للبحتري"،[1] ثم مضى في إعلاء شأنه، فضرب باسمه الدنانير، ويسجل ذلك البحتري في قصيدة طويلة يمدح فيها المعتز يقول :

وَأَبْهَجَنا ضَربُ الدَّنانيرِ بِاسمِهِ وَتَقليدُهُ مِن أَمرِنا ما تَقَلَّدا[2]

ولم يكتف المعتز بذلك، بل راح يعلم ابنه ويهذبه، فأحضر له كبار المؤدبين الذين كانت تزخر بهم سامراء، غير أنه لم يصل إلينا من أخبار أولئك المؤدبين له في تلك الفترة شيء كثير اللهم إلا ما يتصل بواحد منهم وهو: محمد بن عمران الضبي الذي " كانت ثقافته رواية الأخبار وما يتصل بالأدب، كما كان نحويًّا عارفًا بالقراءة العربية، عالمًا بالحديث والأثر. وارتبط اسمه بما وقع له مع ابن المعتز في أثناء تأديبه له، فقد روي: أنه حفَّظ ابن المعتز وكان يؤدبه (النازعات)، وقال: إذا سألك أبوك في أي شيء أنت ؟ فقل له: أنا في السورة التي تلي (عبس)، ولا تقل له: أنا في (النازعات). قال: فسأله أبوه: في أي شيء أنت ؟ فقال: في السورة التي تلي عبس، فقال له: من علمك هذا ؟ قال: مؤدبي فأمر له بعشرة آلاف درهم ".[3]

---

(١) شعر ابن المعتز: القسم الثاني، د. السامرائي، (ص: ٤١).

(٢) ديوان البحتري، (٢ / ٦٧٠).

(٣) تاريخ بغداد، (٣ / ١٢٣).

من ذلك، نستطيع أن نفهم أن أباه كان مهتمًا بتحفيظه القرآن وتعليمه العلوم العربية.

هكذا نشأ عبد الله في كنف أبيه المعتز يحيطه بالرعاية والاهتمام، مما جعله ولا شك يتأثر به تأثرًا كبيرًا، ولكن أراد الله ألا تستمر هذه الهناءة ورغادة العيش، فلم تلبث الأمور أن تمر سراعا، وإذا بالأتراك يشددون من وطأتهم على الخليفة سنة(٢٥٥هـ) ويطالبونه بالأموال، وحين تعذر عليه توفيرها – بعد أن طلب هذه الأموال من أمه الغنية القادرة فرفضت – " اقتحموا عليه بيته، وضربوه بالدبابيس، وخرقوا قميصه، وأقاموه في الشمس في الدار، فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده، وأدخلوه حجرة، وأحضروا ابن أبي الشوارب وجماعة أشهدوهم على خلعه وشهدوا على صالح بن وصيف أن للمعتز وأمه وولده وأخته الأمان.. وسلموا المعتز إلى من يعذبه فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام، فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه، ثم أدخلوه سردابًا وجصصوه عليه فمات، فلما أشهدوا على موته بني هاشم والقواد، وأنه لا أثر فيه، ودفنوه مع المنتصر".[1]

وهكذا مات المعتز هذه الموتة البشعة على مسمع ومرئ طفله الصغير، والذي بانتهاء حياته تنتهي مرحلة طفولة عبد الله بن المعتز المستقرة، والتي رثاها ابن المعتز بعد ذلك متحسرا عليها بقوله:

لا مثلَ أيامٍ مَضَينَ بِلَهوِها مَشكورَةٍ أعطَت فُؤادي ما اشتَهى

أيّامَ عُذري في سِنيَّ وَرُتبَتي مِنّي وَسُلطاني عَلى حَدَقِ المَها

---

(١) الكامل: لابن الأثير، (٧ / ١٩٥ – ١٩٦).

وَجَهلتُ ما جَهلَ الفتى زَمَنَ الصِّبا ... فالآنَ قد وَعَظَ المَشيبُ وَفَوْهَا
وَالآنَ قَد كَشَفَ الزَمانُ قناعَهُ ... لِبَصيرَتي وَحَلَلتُ في دارِ النُّهى[1]

ويقول أيضًا:

واهًا لِأَيّامِ الصِبا ... مُحِيَت مِنَ الأَيّامِ مَحوا
أَزمانَ أَبلُغُ في المُنى ... أَقطارَها مَرَحًا وَلَهوا
أَيّامَ تُغفَرُ غَيِّتي ... وَيُظَنُّ عَمْدُ الذَّنبِ سَهْوا[2]

ثم يَعقُب المهتدي المعتز في الخلافة ويأمر بنفي قبيحة زوجة المتوكل وجدة ابن زوجة المعتز ومعها عبد الله بن المعتز وغيره إلى مكة، هذه المرأة " التي لعبت دورا كبيرا في الحياة السياسية في عهد زوجها وابنها المعتز، وإليها يعود السبب في تغيير قلب المتوكل على ابنه المنتصر أحد أولياء عهود الأمر الذي أدى إلى اغتياله من قبله وقبل الأتراك. كما ظهر أثرها السياسي في خلافة المعتز، وكانت تحمله على التخلص من الأتراك ".[3]

وهي أيضا التي استحوذت على كثير من الأموال واحتجبتها وضنت على ابنها المعتز في أحلك ساعات العمر بخمسين ألف دينار طلبها منه قادة الأتراك فقتل شر قتلة. فقد كانت تملك " مقدار " خمسمائة ألف دينار، وظفروا لها بخزائن تحت الأرض فيها أموال كثيرة ومن جملتها دار تحت الأرض وجدوا فيها ألف ألف دينار ووجدوا في سفط

---

(١) الديوان، (١ / ٢٩٨)، م، طبعة دار المعارف.

(٢) الديوان، (١ / ٣٠٠).

(٣) شعر ابن المعتز: القسم الثاني، والسامرائي، (ص: ٣٧).

قدر مكوك زمرد لم ير الناس مثله، وفي سفط آخر مقدار مكوك من اللؤلؤ الكبار، وفي سفط مقدار كَيْلجة من الياقوت الأحمر الذي لم يوجد مثله ".[1]

هذه المرأة التي كان لها مالها نفيت إلى مكة هي وعبد الله بن المعتز وغيره ثم سمعت وهي تقول وتدعو بصوت عال على صالح بن وصيف:" اللهم اخز صالحا كما هتك ستري، وقتل ولدي، وشتت شملي، وأخذ مالي، وغرَّبني عن بلدي، وركب الفاحشة مني ".[2]

ولا شك أن عبد الله بن المعتز، الطفل الصغير، قد سمعها وهي تقول هذا القول وربما حفظه عنها حتى وإن لم يدرك مغزاه، وربما بكى لها أيضا، كما بكى لفراق أبيه وذلك بعد أن امتلأت عيناه بزمردها ولؤلؤها وياقوتها الأحمر قبل ذلك، ثم ربما سمعها تتحسر على هذه الأموال والجواهر الضائعة بعد ذلك فعلق ذلك في ذهنه.

عاش ابن المعتز مع جدته قبيحة في مكة في بيئة مختلفة الجو والتربة غير بيئته العراق وسامراء التي عاش وولد فيها، فالجو شديد الحرارة في الصيف والشتاء، والصحراء ممتدة قاحلة، حيث لا ماء ولا نماء. ولكن لأثرها الديني في نفس الطفل الشيء الكثير، فارتبطت في ذهنه مقدار ما عرف عنها من أهميتها للإسلام. ثم إنه شاهد على الطبيعة بيئة الشعر القديم الذي كان يحفظه الضبي إياه فظهر كل ذلك واضحا في شعره فيما بعد.

---

(١) الكامل لابن الأثير، (٧ / ٢٠٠).

(٢) نفسه، (٧ / ٢٠٠).

ويقتل المهتدي، ويعود المنفيون بعد ذلك بأمر الخليفة المعتمـد الذي ولي الخلافة، وتعود قبيحة ويعود عبد الله بن المعتز إلى " سر من رأى "، " فيطلع على الحياة الشائنة التي عصفت بأبيه أو كانت سببا في العصف به، ولكنه لم يجد بأسا من أن يربط بها حياته وقد كانت طبيعته وخِلْقته ومشاعره تدفعه إلى ذلك دفعا، ومن ناحية أخرى راحت جدتـه بما تملك من أموال وبما كانت أمه تأخذ من المعتمد الذي أصدر أمـره بالعفو عنها أن تؤدبه فينتقل خائضا محيطه الواسع مـن شـاطئ إلـى شاطئ مقتاتا بما يلقيه في سفينه واحد كأحمد بن سعيد الدمشقي أو آخر كالمبرد أو ثعلب أو البلازري، وهؤلاء تولوه بالتأديب بعد أبي جعفـر محمد بن عمران بن زياد الضبي الذي رعاه بالتعليم في حياة أبيه ".[١]

وإذا ما نظرنا إلى هؤلاء المؤدبين وجدناهم علمـاء عـارفين بالنحو واللغة وفنون الأدب ورواية الأخبار، كما يوضح لنا ابن المعتز أيضا أنه كان منكبا على علوم الحديث والفقه والدين، يقول:

شُغْلي إذا ما كَانَ لِلنَّاسِ شُغُلْ   دَفْتَرُ فِقْهٍ أَوْ حَدِيثٍ أَوْ غَزَلْ [٢]

فإذا أضفنا إلى ذلك ما أسلفناه من أن الضبي كان يحفظه القرآن على عهد أبيه استطعنا أن نقول: إن ثقافة ابن المعتز كانت ثقافة عربية واسعة، تناولت مختلف المعارف والعلوم العربية والإسـلامية، " ومـن غير شك أن ابن المعتز لم يقتصر على أولئك الأعـلام ولا علـى مـا زودوه به، وإنما أخذ يعب من مناهل العلم والمعرفة ممـا شـاع فـي

---

(١) ابن المعتز العباسي: د. أحمد كمال زكي، (ص: ١٨).

(٢) الديوان، (١ / ٦٣٥. ب).

عصره من حضارات الأمم المختلفة كالفارسية واليونانية، مما ترجم في عهده أو العهد السابق له ".[١]

إن ثقافة ابن المعتز لم تتوقف كما سبق " فعندما بنت جدته بالصراة قصرها الجديد – وقد لا يكون أكثر من بيت لأحد سادات بغداد– حرصت على أن تهيئ له فيه مكتبة جمعت كتبها من الوراقين، كان الغلام يندس في هذه المكتبة ليلتهم الصفحات التهاما لا يفرق بين هذه التي تقف عند نوادر الأعراب، أو التي تنطوي على درة من درر الشعر، أو ثالثة التي تعرض لقصة من ألف ليلة وليلة أو حكاية من كليلة ودمنة أو مثل من الأمثال ".[٢]

أما عن أثر الفلسفة في شعره فلم يكن كبيرا على الرغم من أنه أكثر من الحكم والزهد حتى كان لهما فن خاص من فنون شعره، بل نستطيع أن نقول: إن أغلب حكمه كان مستقى من ثقافته العربية الإسلامية، فقد كان مؤدبوه من المتخصصين في العلوم العربية المختلفة، ولم يكن بينهم على الأغلب من يتعاطى الفلسفة ".[٣]

" ثم تموت جدته سنة ٢٦٤هـ وهو في السابعة عشرة، بعدها بأشهر تموت أمه ويرث دار الصراة التي ابتنتها جدته ".[٤] ومن هنا

---

(١) شعر ابن المعتز: القسم الثاني، د. السامرائي، (ص: ٤٥).
(٢) ابن المعتز العباسي: د. أحمد كمال زكي، (ص: ٢٣).
(٣) شعر ابن المعتز: القسم الثاني ، د. السامرائي، (ص: ٤٧).
(٤) ابن المعتز العباسي: د. أحمد كمال زكي، (ص: ٢٤).

نطوي هذه الصفحات من عمره، صفحات الطفولة والصبي لتبدأ مرحلة جديدة وحرجة من حياته وهي مرحلة الشباب والكهولة.

عندما وصل ابن المعتز إلى السابعة عشرة من عمـــره، وبعـــد موت جدته وأمه، بدأ يحس بالوحدة، فلم يعد هناك من يكفله ويهتم بـــه، فبدأ يتذكر ما فات من عمره، وهل هناك أجمل من تلك الفترة القصيرة التي قضاها في كنف أبيه، ولكن أباه قتل، ثم هو يدرك الآن من قتلـــه، بل كيف قتل جده، ثم المهتدي من بعدهم. ويغلي الدم في عروقه، ويهيج الثأر في عينيه، ثم يقول:

تَبَّهَ السَّيْفُ عَلَـــى وَاتِرِيـــه   حَيّا الجَهْرُ وَمَاتَ السِّـــرَارُ
لَوْ بِه أَقْتُـــلُ كُـــلَّ قَرِيـــب   وَبَعِيدٍ لَم يَـــنَمْ لِـــيَ ثَـــارُ
مَطَّلَتْهُ النَّصْـــرَ مِنِّـــي سِـــنٌّ   لَم تَصِلْ بِي فَخُطَاهَا قِصَارُ
وَلَعَمْرِي لَوْ تَمَطَّتْ بِجِسْمِي   مُدَةٌ مَا ذَلَّ لِلْمَلِك جَارُ(١)

ثم يحث قومه في مكان آخر:

تَحْسَبُ قَوْمِي يُضَيِّعُونَ دَمِي   مَا ضَاعَ قَبْلِي لَهَا شم ثَارُ(٢)

ولكن قومه أهملوه، بل هم متوجسون خيفة منه، لعله يبحث عن الخلافة التي كان قد عهدها إليه أبوه، فلم يتركوه بعد بل هبوا يضـــيقون عليه من كل جانب. يقول الدكتور محمد الكفراوي:" منذ قتل الأتـــراك المتوكل وولوا مكانه ابنه المنتصر، وخلفاء بني العباس مفتوحو الأعين

---

(١) الديوان، (٢/ ٣٤٠).
(٢) الديوان، (٢ / ٢٥٦).

على كل من يصلح للخلافة من أفراد أسرتهم ولهم عذرهم الواضح في ذلك، فإن المؤامرات والانقلابات لم تهدأ منذ ذلك الحين.

وإذا غفل الخلفاء أو تهاونوا فإن الأتراك لا يغفلون، ألا ترى أنهم حملوا المنتصر على خلع أخويه المعتز والمؤيد وإلقائهما في ظلمات السجون خوفا منهم".[١]، ولما كان شاعرنا من أشد الناس استحقاقا للخلافة لمكان أبيه وجده منها من جهة، ولفضله وعقله وأدبه من جهة أخرى، فقد صار جديرا بريبة الخلفاء، ومراقبتهم له، وتضييقهم عليه. وأظن أن هذا كاف لأن يقف منه قومه وخلفاء بني العباس موقف الخارج عليهم الساعي إلى الخلافة، وهل كان فيهم من يحمل هذه المؤهلات مثله بالإضافة إلى أنه ربما ظهر منه ما يريبهم فلقد قال الصولي:" على أني وجدت عنه أشعارا يتكذب فيها على العباس رضي الله عنه وعلى أفاضل ولده وعلى الخلفاء رحمة الله عليهم أكثره لم يظهر"[٢]، لذلك صار موقفهم العداء له ومراقبته كما سلف. واتضح موقفهم منه وفهم هو هذا الموقف، فراح يقول لهم:

عَبَّاسُ لا تَسْتَعجِلي لِمَنِيَّتي ... وَاسْتَيْقِني لِمُعَمَّرٍ هَلاكِ
فُوزِي بِمثْلي أَوْ فَتُوحِي وَالْدُبي ... لاَ تَبْخَلي عَنْ ماجد بِبُكاكِي
لا تُخبِريني وَاسْأَليني إنَّني ... عارَكْتُ هَذا الدَّهْرَ أَيَّ عِراكِ
وَلَقَدْ أَصابَنيَ الزَّمانُ بِبُؤْسِهِ ... وَنَعيمِه فَفَقَرْتُ ذاك بِذاكِ
أَسلَلْتِ سَيْفك تَسْفُكِين به دَمي ... وَلَقَدْ سَفَكْتُ بِهِ دِماءَ عِداكِ

---

(١) عبد الله بن المعتز، (ص: ٩٥).
(٢) أشعار أولاد الخلفاء، (ص: ١٠٨).

إنْ كُنتَ لا نُعْمَى شَكَرْتَ وَلا بها جازَيْتني فَإِلَيْكَ بَعْضَ أذاكَ
إيَّاكَ مِنْ بَطَرٍ عَلَى رَحِمٍ دَنَتْ لا تَنْقُضِي بِيَدِ الْعُقوقِ قُواكَ[1]

ويقول أيضا:

نُبِّئتُ أنَّ قَومي قَد دَفَنوا لي مَكرا
ضاعَ الوَفاءُ منهُم وَأَضمَروا لِي الغَدرا
رَدُّوا ردائي لَمّا رَأوا بَقائي فَخرا
طالَ عَلَيهِم عُمري فَاستَعجَلوا بِيَ القَبرا[2]

هذا موقف قومه منه، وقتلة أبيه وجده وهتكة عرض جدته ما زالوا على قيد الحياة يرتعون ويمرحون. إن الهم تجاثم على قلبه فهل من خلاص ؟ وماذا لو صار خليفة ؟ ألن يستطيع أن ينال منهم ؟ ولِمَ لا يكون الخليفة وعنده من مؤهلاتها ما لم يتوفر لأحد غيره من بني العباس ؟ لقد كان يحلم بما يحققه لو تولى الخلافة فلقد روى الصولي:" حدثني أبو القاسم الحسن بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن الحسين بن زيد بن بنت علي بن محمد الحماني، قال: حدثني أبو الحسين محمد بن الحسن العلوي المعروف بابن البصري، قال: كنت أجالس عبد الله بن المعتز وكان يحلف لي بالله لئن ملك من هذا الأمر شيئًا ليجعلن البطنين بطنًا واحدًا، وليزوجن هؤلاء من هؤلاء، وهؤلاء من هؤلاء، وقال: لا أدع طالبيًا يتزوج بغير عباسية، ولا عباسيًا بغير طالبية، حتى يصيروا شيئًا واحدًا، وأجرى على كل رجل منهم عشرة

---

(١) الديوان، (٢ / ٩٣ م).
(٢) الديوان، (٢ / ٦٥ م).

دنانير في الشهر، وعلى كل امرأة خمسة دنانير، وأجعل لهم من الدنيا ناحية تفي بذلك ".[1]

إذن لا سبيل إلا الخلافة. ولكن قومه يراقبونه والأتراك يقفون له بالمرصاد ومن الممكن أن يقتلوه بين لحظة وأخرى ولن يقف بجانبه أحد. إن التيار أقوي منه بكثير. إذن فعليه أن يسر ذلك في نفسه إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا، عليه أن يخاطب الخلافة في شعره أو يظهر أنه عافها ولا يريدها، كما يقول:

طَوَتْكُمْ يا بَني الدُّنيا رِكـابي وَحارَبَكُمْ رجائي وَارْتِقـابي
حُجِبْتُ بِهِمَّتي مِنْ أَنْ تَرَوْني أُراقِبُ مِنْكُمُ رَفْعَ الحِجـابِ
لَئِنْ عُرِّيتُ مِنْ (دُوَلٍ) أَراها تَجَدَّدُ كُلَّ يَـوْمٍ لِلْكِـلابِ
لَقَدْ خَلَّفْتُها بَعْـدَ ابْتِـذالٍ لَهَا وَمَلَلْتُها قَبْلَ الـذَّهابِ[2]

ثم يشبه الخلافة بمرض مزمن لا دواء له، يقول:

بِنَفْسي سِقامٌ لا يُـداوَي مَريضُـهُ خَفِيٌّ عَلى الْعُوّادِ بـاقٍ عَلَـى الـدَّهْرِ
هَوىً باطِنٌ فَوقَ الهَوى لَـجَّ داؤُهُ وَأَعْيا عَلى العُـذّالِ في السِّـرِّ وَالجَهـرِ
بُليتُ بِجَبّارٍ يُجَـلُّ عَـنِ الْمُـنى عَلى رَأْسِهِ تـاجٌ مِـنَ التِّيـهِ وَالكِـبْرِ
قَديرٌ عَلى ما شاءَ مِنّـي مُسَـلَّطٌ جَرِيءٌ عَلى ظُلْمي أَميرٌ عَلـى أَمـري
أَلِفْتُ الْهَوى حَتّى قَلَتْ نَفْسِيَ الْقِلا وَطالَ الضَّنى حَتّى صَبَرْتُ عَلَى الصَّبْرِ[3]

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء، (ص: ١٠٩).
(٢) الديوان، (١ / ٢٣٠ م).
(٣) نفسه، (٢ / ٢٦٠ م).

فمن هذا الجبار الذي يجل عن المنى ؟ ومن الذي على رأسه تاج من التيه والكبر ؟ أليست الخلافة ؟

وها هو يتغزل فيها ويشبهها بفتاة غادة يقول:

دَعْ نَدِيمًا قَدْ تَنــاءَى وَحَــبَسْ وَاسْقِنِي وَاشْرَبْ عُقارًا كَالْقَبَسْ
هــامَ قَلْبـــي بِفَتــاةٍ غــادَة حَوْلَهَا الأَسْيافُ فِي أَيْدي الْحَرَسْ
لا تنامَ اللَّيْلَ مِــنْ حُبِّــي وَإنْ غَرَّدَ الْقُمْرِيُّ زَارَتْ فِي الْغَلَــسْ
وَتُسَــمِّيني إذا مــا عَثَــرَتْ فَإِذا ما فَطِنُوا قالَــتْ: تَعَــسْ[1]

فمن هذه الغادة التي هام بها وحولها الأسياف في أيدي الحرس ؟ لم نعرف أن ابن المعتز هام في غير " شر" محبوبته من النساء، أليست هذه الخلافة إذن ؟

ثم يقول: وكأن الخلافة تغار عليه وتخشى أن ينشغل بسواها من تلك الأسماء التي يرددها في شعره ولكنه يطمئنها:

قالَت: تَبَدَّلتَ أُخرى قُلتُ: أَفديكِ مِن كُلِّ سوءٍ وَمَكــروهٍ وَأَحميــكِ
قالَت:وَسَمَّيتُها في الشعرِ قُلتُ لَها: سَمَّيتُ غَيرَكِ لَكِن كُنتُ أَعنيــكِ
دَعي العِتابَ لِطَيِّ الكُتبِ وَاِغتَنِمي يَومَ التَلاقي وَرَوّي فايَ مِن فيكِ[2]

ثم هو يسر كل ذلك في نفسه فلا يُطلع عليه أحدا، يقول:

أَيُّها السَّائِليَّ دَعْ سِرَّ نَفْسِي إنَّما نَفْسِي لِسِرِّيَ قَبْرُ[3]

وليس له في سبيل ذلك إلا الصبر، مهما نغصت الدنيا عليه حياته

---

(١) الديوان، (١ / ٣٧٦ م).
(٢) نفسه، (١ / ٤٠١ م).
(٣) نفسه، (١ / ٢٦٦ م).

قلْ لدنيايَ قـد تمكّنـتِ منّـي فافعلي ما أردتِ أن تفعلي بي
واخرقي كَيْفَ شئتِ خَرْقَ جَهولٍ إنّ عندي لَكِ اصطبارَ لبيبِ[1]

ولكن كثيرا ما يحول بينه وبين الصبر، تلك المصائب التي تترى عليه والهموم المتوالية التي يحس بها فيتذكر أيام لهوه وصباه، ولكـن هذه الأيام الجميلة الحلوة هي نفسها التي تذكره بمقتل أبيه، يقول مخاطبا الدهر:

يَا دَهْرُ حَسْبُكَ قَد أكثَرْتَ فَجْعَاتي شَغَلْتَ أيّامَ عُمْري بِالْمُصِـيبَاتِ
مَلأتَ ألحَاظَ عَيني كُلّهَـا حُزْنـا فَأينَ لَهْوِي وَأحبَـابِي وَلَـذّاتي
حمدًا لربِّي وذمًّـا للزمـان فمـا أقلّ في هـذه الـدُّنيا مسـرَّاتي
لوتْ يديْ أملي عن كلِّ مطّلـبِ وأغلقتْ بابَها مِنْ دُونِ حَاجَـاتي
وأنجز الدهر وعد الموت في سـلفي وقرب الهم مـن أيـام فرحـاتي
فكل يوم ترى العينـان مسـخنة وتدفن الكف عزًّا بين أموات[2]

ثم يصف هذه الهموم أيضا بقوله:

أصَابَتْني صُروفٌ لَو ألَمّتْ لَعَمْرُكَ بالزمانِ إذًا لشَابَا[3]

☆☆☆☆☆☆☆☆

كان لهذا الشقاء الناتج عن مصائبه القديمـة وتربصـه للخلافـة والمصائب التي ما زالت تترى ذلك القلق النفسي في حياة ابن المعتـز والذي انعكس ذلك كله على شعره، فبدا شعره وكأنه ابن المعتز نفسـه

(١) نفسه، (٢ / ٤٣ م).
(٢) الديوان، (٢ / ٣٢٧ م).
(٣) نفسه، (٢ / ٣٨٣ م).

يحس ويمشي ويتحرك، فنراه من شعره غير مستقر في كل شيء في حياته.

فإذا ما تزوج فهو كثير الحزن غير مستقر في زواجه، هائم في النهار، ساهر في الليل، يقول:

أنا مُذ صارَ لي سَكَن   في تبارٍ مِنَ الحَزَن
هائمُ العَقلِ في نَها   ري وَلَيلي بِلا وَسَن
لَيتَني عُدتُ مِثلَ مَا   كُنتُ أرعى بلا رَسَن[1]

وليس من سبيل عدم الاستقرار في الزواج إلا الطلاق يقول:

ونفيت عرسي بالطلاق مصمما   وكانت حصاة بين رجلي وأخمص
فأنهيت عذابي وفات الذي مضى   وهُنّيتُ عيشًا بعد عيش منغص[2]

وكذلك نلاحظ اضطرابه النفسي أيضا في تهالكه على اللذات وانكبابه على الشراب. فهو يشرب لينسى تلك الهموم التي جثمت على قلبه، إذًا لا سبيل إلى نسيانها إلا بالقهوة والخندريس، يقول:

داو الهمومَ بقهوةٍ عذراءِ   وامْزُج بِنارِ الرَّاحِ نُوْرَ المَاءِ[3]

ويقول:

وَلَيسَ لِلهَمِّ إِلّا شُربُ صافِيَةٍ   كَأَنَّها دَمعَةٌ من عَينِ مَهجورِ[4]

ويقول أيضا:

---

(١) نفسه، (١ / ٤٢٩ م).
(٢) نفسه، (٢ / ٤٥٢ م).
(٣) نفسه، (٢ / ٢١٠ م).
(٤) الديوان، (٢ / ٢٥٠ م).

اسقني الرَّاحَ في شَبابِ النَهارِ   وَانفِ هَمِّي بِالخَنْدَريسِ العُقارِ[1]

ولكنه لم يكن مستقرا في الشراب أيضا، فهو تارة يفضل الغبوق، وتارة يفضل الصبوح، وتارة يذم هذي، وتارة يذم تلك، يقول مفضلا الغبوق:

لا تَـدْعُني لِصَـبُوحٍ   إِنَّ الغَبُـوقَ حَبِيبِـي
الليـلُ لَـونُ شَـبَابِي   وَالصُبحُ لَـونُ مَشِـيبِي
مِنْ أَيْـنَ لِلصُـبْحِ سِـتْرٌ   لِعَاشِـقٍ مِـنْ رَقِيـبِ
إِذَا تَوَاعَــدَ هَــذَا   وَذَا لِوَقْـتِ الْمَغِيـبِ[2]

ثم يعود إلى الصبوح:

عُودُوا إلى الإِصباحِ   لا ماءَ إِلّا بِراحِ[3]

ثم نلاحظ أيضا أثر ذلك الاضطراب النفسي في توبته، فنراه قلقا وغير مستقر عليها، فبعد أن يودع اللذات والشهوات التي كان يعيش فيها نراه يعود إليها من جديد مخلا بهذه التوبة. يقول:

سَلامٌ عَلى اللَذّاتِ وَاللَهوِ وَالصِبا   سَلامُ وَداعٍ لا سَلامُ قُدومِ[4]

يقول أيضا:

أَلا مَن لِقَلبٍ في الهَوى غَيرَ مُنتَهٍ   وَفي الغَيِّ مِطواعٍ وَفي الرَشدِ مُكـرَهِ
أُشاوِرُهُ في تَوبَةٍ ، فَيَقـولُ : لا   فَإِن قُلتُ: تَأتي فِتنَةٌ، قالَ: أَينَ هي[1]

---

(١) نفسه، (٢ / ٢٥٩ م).
(٢) نفسه، (٢ / ٢٢٢ م).
(٣) نفسه، (٢ / ٢٣٣ م).
(٤) نفسه، (١ / ٥١٣ م).

ويقول أيضا:

يا قلبِ وَيحَكَ خُنتَني وَفَعَلتَها ... وَحَلَلتَ عُقدَةَ تَـوبَتي وَنَقَضـتَها

فالآن آيس من فلاحك بعدما ... عصت التقى نفسي فكيف أطعتها

يا عَينِ منك بَلِيَّتي يا جفنـها ... هَلّا عَنِ الوَجهِ المَليحِ سَتَرتَها(٢)

ولكن ابن المعتز رغم تكالبه على اللذات والشـهوات يريـد أن يقول أنه لم يرتكب الفواحش أبدا، يقول:

وَلَم آتِ مَا قَدْ حَرَّمَ اللهُ في المَلا ... وَلَم أَترُكْ مَا قَدْ عَفَا اللهُ بَاقِيَا (٣)

فهل حقا أنه لم يرتكب الفواحش، وعموما سواء ارتكـب أم لـم يرتكب فهو قد تاب في النهاية، يقول:

وَكُنتُ امرَأً مِنّي التَصابي الَّذي تَرى ... فَقَد بَلَغَت مِنـي النُهـى فَتَناهَيـتُ

وَقُلتُ أَلا يا نَفسِ هَل بَعدَ شَـيبَةٍ ... نَذيرٌ فَما عُذري إِذا مـا تَمادَيـتُ

وَقَد أَبصَرَت عَيني المَنِيَّةَ تَنتَضـي ... سُيوفَ مَشيبٍ فَوقَ رَأسي وَأَشفَيتُ

فَخَلَّيتُ سُلطانَ التَصـابي لِأَهلِـهِ ... وَأَدبَرتُ عَن شَأنِ الهَوى وَتَوَلَّيتُ(٤)

ونلاحظ أيضا أنه بالرغم من حب ابن المعتز " لشر" محبوبتــه، وامتلأ بهذا الحب ديوانه، إلا أنه لم يكن مستقرا في هذا الحب أيضــا، فسرعان ما يترك " شر " إلى غيرها. يقول:

---

(١) الديوان، (٢ / ٣١٨ م).

(٢) نفسه، (١ / ٣٣٠ م).

(٣) نفسه، (٢ / ٤٢٤ م).

(٤) الديوان، (١ / ٢٤٠ – ٢٤١ م).

قَلـــبيَ وثَّـــابٌ إلى ذا وذا ... لـــيسَ يـــرى شــيئاً فَيأبـــاهُ
يهيمُ بالحســـن كمـــا ينبغـــي ... ويـــرْحَم القـــبحَ فَيهـــواهُ[1]

ثم نراه ينتقل بين المحبين، ويتهم جميل بن معمر بالجهل؛ لأنـه اقتصر في حبه على بثينة فقط، يقول:

أبى الوصل إلا أن أعيش منعمـــا ... خلاف محب مات في طلب الوصـــل
رسولي إليه لا يضـــيق ونظـــرتي ... لهذا وقلبي عند ذاك علـــى رجـــل
وكم من حبيب قد قطعت وصاله ... فما ذهبت نفسي عليه ولا عقلـــي
فهذا هو الحب الذي فيـــه لـــذة ... وحب جميل كان عندي من الجهل[2]

ورغم حاجة ابن المعتز الشديدة للأخلاء للتسلية، عــن همومــه وأحزانه، إلا أن علاقته بهم لم تكن مستقرة أيضا. يقول:

قصِّـــر نَهـــارَكَ بالخَليـــل ... وَاطرِد هُمومَكَ بِالشَّـمولِ
وَدَعِ العَـــذولَ فَإِنَّـــهُ ... سَيَمَلُّ مِـــن قـــالٍ وَقيـــلِ
واصل خليلـــك إنَّمـــا الـــد ... نيـــا مواصـــلة الخليـــلِ[3]

ولكنه ما برح يغضب عليهم، ويقول:

وَأَفرَدَني مِنَ الإِخوانِ عِلمـــي ... بِهِم فَبَقيتُ مَهجورَ النَـــواحِ
عَمَرتُ مَنازِلي مِنـــهُم زَمانـــاً ... فَما أَدنى الفَسادَ مِنَ الصَـــلاحِ
إِذا ما قَلَّ مالي قَـــلَّ مَـــدحي ... وَإِن أَثرَيتُ عادوا في اِمتِداحي

---

(١) نفسه، (١ / ٣٠٩ م).
(٢) الديوان، (١ / ٤٠٥ م).
(٣) نفسه، (٢ / ٣٠١ م).

وَكَم ذَمٍّ لَهُم في جَنبِ مَدحٍ وَجِدٍّ بَينَ أَثناءِ المُزاحِ[1]

فإخوانه لم يصاحبوه إلا طمعا في ماله، فإذا قل ماله ذموه وابتعدوا عنه، ورغم أن الدكتور خفاجي[2] والدكتور شوقي ضيف[3] يؤكدان أنه كان في بحبوحة من العيش نظير الإقطاعات التي أقطعها له أبوه، ونظير ما ورثه عن جدته إلا أنه كان كثيرا ما يشكو قلة الدخل، فيقول مثلا:

يا قومُ إنّي مُرزَّا وكُلُّ حُرٍّ مُرزَّا
خَرْجٌ كبيرٌ ودَخلٌ نَزْرٌ فلم لا أُعَزَّى
فالخَرْجُ لا يتناهى وَالدَّخلُ لا يتجزَّا[4]

فربما كان دخله كبيرا ولكن نفقاته أكبر من دخله، وربما كان دخله محدودا مما جعله يشتكي قلة المال في بناء داره، يقول:

ألا مَن لنفسي وَأحزانِها وَدارٍ تَداعَت بحيطانِها
أظَلُّ نَهاريَ في شَمسِها شَقيًّا مُعَنّى بِبُنيانِها
أُسَوِّدُ وَجهي بِتَبييضِها وَأهدِمُ مالي لِعُمرانِها[5]

ولكن يبدو أنه كان في حاجة دائمة إلى المال مما اضطره إلى مدح من دونه من الوزراء، فراح يمدح آل سليمان بن ذهب – حقيقة هم

---

(١) نفسه، (١ / ٢٤٥ م).
(٢) ابن المعتز وتراثه في الأدب، (ص: ٨٠).
(٣) العصر العباسي الثاني، (ص: ٣٣٠).
(٤) الديوان، (ص: ٢٧٤) بيروت.
(٥) الديوان، (٢ / ٢٠٦ م).

عائلة محترمة كريمة – إلا أنه كان من بيت الخلافة، فأبوه خليفة وجده خليفة، حتى هو نفسه قد عهد إليه أبوه بولاية العهد، ألم يقل البحتري مادحا المعتز بالله مشيرا لذلك:

رَأينا بَني الأَمجادِ في كُلِّ مَوطِنٍ ... فَكانوا (لِعَبدِ اللَّهِ) في الجودِ أَعبُدا
عَلَيهِ مِنَ المُعتَزِّ بِاللَهِ بَهجَةٌ ... أَضاءَت فَلَو يَسري بِها الرَكبُ لَاهتَدى
سُرِرنا بِأَن أَمَّرتَهُ وَنَصَبتَهُ ... لَنا عَلَماً نَأوي إِلى ظِلِّهِ غَدا
وَأَبهَجَنا ضَربُ الدَنانيرِ بِاسمِهِ ... وَتَقليدُهُ مِن أَمرِنا ما تَقَلَّدا
وَلَم لا يُرى ثانيكَ في السُلطَةِ الَّتي ... خُصِصتَ بِها ثانيكَ في الجودِ وَالنَدى
حَقيقٌ بِأَن تَرمي بِهِ الجانِبَ الَّذي ... يَهُمُّ وَأَن تُفضي إِلَيهِ وَتَعهَدا[1]

أظن أن كل هذا كان يمنعه من أن يمدح من هم دونه، ولكن يبدو أن حاجته للمال هي التي دفعته لذلك حتى يضمنوا له راتبه من مال الدولة.

يتضح مما سبق أن الشقاء والهموم التي أصابت ابن المعتز جعلته في حالة قلق نفسي شديد مما كان له الأثر في عدم استقراره في كل شيء.. ولكن برغم هذا كله لم يتوان ابن المعتز لحظة في التطلع جميعا إلى الخلافة حتى وإن بدا أنه هجرها بالرغم من بغض الخلفاء له إلا أنه أخذ يدافع عن الخلافة دفاعا مستميتا ضد كل من أرادها بسوء، فهو يقف ضد الطالبيين العلويين، ويقف ضد الطولونيين الخارجين، ويقف ضد القرامطة والزنج المارقين، ثم يحث بني العباس على المحافظة على ملكهم، ويقول:

---

(١) ديوان البحتري، (١ / ١٧٤ – ١٧٥).

يا آلَ عبّاسٍ لَعَـا مـن عَثـرَةٍ لا تَـركُنُنَّ إلى الغُـواةِ الحُسَّـدِ
وَخُذوا نَصائحَ حازمٍ مُتَعَصِّـبٍ بالشَيب مُجتَمـعِ النُهـى مُتَأَسِّـدِ
شُدّوا أَكُفَّكُم عَلـى ميراثِكُـم فَـالحَقُّ أعطـاكُم خلافَـةَ أَحمَـدِ
وَمَتى يَرُمها الرائمونَ فَبـادِروا هامـاتِهِم حَصـدًا بِكُـلِّ مُهَنَّـدِ
قودوا لَهُم قودَ الجِيادِ ذَوائِبًـا لا يَهتَـدونَ إلى الطَريـقِ الأَبعَـدِ
هَذا هُوَ النُصحُ الصَريحُ وَرُبَّما مَحضُ النَصيحَةِ صاحِبٌ لَم يَجهَدِ[1]

وأغلب الظن أن ابن المعتز وقف مدافعا عن الخلافــة، فلربمـا تأتيه يوما ما، لأنها لو انتقلت إلى غيرهم ضاعت آماله، وحصد الهشيم بعد تعبه الطويل، ولكنها جاءته في نهاية أيامه فماذا فعلت به وفعل بها؟

توفي المكتفي في سنة خمس وتسعين ومائتين، وفي اليوم نفسـه بويع أخوه المقتدر بوصية من أخيه المكتفي قبيل وفاته، وكـان عمـره ثلاث عشرة سنة وشهرين[2] وكان الوزير آنذاك هو العباس بن الحسن، ويبدو أنه لم يكن راضيا عن بيعة المقتدر لصغر سنه فحاول أن يصرف الخلافة عنه إلى شخص آخر. ونترك الطبري يحكي لنا هذه الأحـداث التي كان معاصرا لها، فلن يكون هناك من هو أصدق منه، يقول:" فمن ذلك ما كان من اجتماع جماعة من القواد والكتاب والقضاة على خلـع المقتدر وتناظرهم فيمن يجعل في موضعه فاجتمع رأيهم على عبـد الله بن المعتز وناظروه في ذلك فأجابهم إلى ذلك على ألا يكون فـي ذلـك سفك دم ولا حرب فأخبروه أن الأمر يُسلَّم إليه عفوًا وأن جميـع مـن

---

(١) الديوان، (١ / ٢٥١ – ٢٥٢ م).
(٢) تاريخ بغداد، (٧ / ٢١٣).

وراءهم من الجند والقواد والكتاب قد رضوا به فبايعهم على ذلك، وكان الرأس في ذلك محمد بن داود بن الجراح، وأبو المثنى أحمد بن يعقوب القاضي وواطأ محمد بن داود بن الجراح جماعة من القواد على الفتك بالمقتدر والبيعة لعبد الله بن المعتز وكان العباس بن الحسن على مثل رأيهم، فلما رأى العباس أمره مستوثقا له مع المقتدر بدا له فيما كان عزم عليه من ذلك فحينئذ وثب به الآخرون فقتلوه وكان الذي تولى قتله بدر الأعجمي، والحسين بن حمدان، ووصيف بن صوارتكين وذلك يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول ولما كان من غد هذا اليوم وذلك يوم الأحد خلع المقتدر القواد والكتاب وقضاة بغداد، وبايعوا عبد الله بن المعتز ولقبوه الراضي بالله، وكان الذي أخذ له البيعة على القواد وتولى استحلافهم والدعاء بأسمائهم محمد بن سعيد الأزرق كاتب الجيش. وفي هذا اليوم كانت بين الحسين بن حمدان وبين غلمان الدار حرب شديدة من غدوه إلى انتصاف النهار (وفيه) انفضت الجموع التي كان محمد بن داود جمعها لبيعة ابن المعتز عنه؛ وذلك أن الخادم الذي يدعى مؤنسا حمل غلمانا من غلمان الدار في شذوات فصاعد بها وهم فيها في دجلة، فلما حاذوا الدار التي فيها ابن المعتز ومحمد بن داود صاحوا بهم ورشقوهم بالنشاب فتفرقوا وهرب من في الدار من الجند والقواد والكتاب وهرب ابن المعتز ولحق بعض الذين بايعوا ابن المعتز بالمقتدر فاعتذروا بأنه منع من المسير إليه، واختفى

بعضهم فأخذوا وقتلوا، وانتهب العامة دور ابن داود والعباس بن الحسن وأخذ ابن المعتز فيمن أخذ ثم قتل ".[١]

وهكذا انتهت حياة ابن المعتز، أراد الخلافة، وأخذ يسرها ويعمل لها طيلة عمره، فجاءته لتأخذ بعمره، وتطوي حياتــه فــي صــفحات التاريخ مرشوقة بالسهام والنشاب، ويتركنا نسمع صدى صوته يتردد في الآفاق بما قاله في الليلة التي قتل في صبيحتها:

يا نَفسِ صَبرًا لَعَلَّ الخَــيرَ عُقبــاكِ ... خانَتكِ مِن بَعدِ طولِ الأَمنِ دُنيــاكِ
مرَّتْ بنا سحَرًا طيرٌ فقلــتُ لهــا: ... طُوباكِ يــا ليــتني إيــاكِ طوبــاكِ
إن كانَ قصْدُكِ شرقًا فالسلام عَلَى ... شاطئ الصراة أبلغي إن كان مثواكِ
مِنْ موثَقٍ بالمنايــا لا فكــاكَ لــهُ ... يبكي الدماءَ على إلفٍ لــه بــاكي
فــرب آمنــة حانــتْ منيتُهــا ... ورب مفلتــة بــين أشــراكِ
أظنهُ آخرَ الأيــام مــن عُمُــري ... وأوشَكَ اليوم أن يبكي لي الباكي[٢]

" وبعد فقد مات ابن المعتز، وفجعت فيه دولة الأدب والقريض، وترك وراءه دويا استمر صداه واضحا على مر القرون، وخلد اسمه في صفحات التاريخ والمجد مع أدباء العربية الخالدين وشعرائها المعدودين وبذلك انتهت حياة حافلة بالعظمة والكبرياء والمجد والخلود فرحمه الله وجزاه عن الأدب والشعر خير الجزاء ".[٣]

---

(١) تاريخ الطبري، (١١ / ٤٠٤ – ٤٠٥).

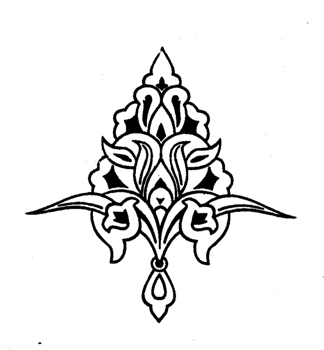
(٢) تاريخ بغداد، (١٠ / ١٠٠).

(٣) ابن المعتز وتراثه، د. محمد عبد المنعم خفاجي، (ص: ٦٨).

ولقد رثى ابن المعتز العديد من الشعراء منهم ابن بسام الذي قال فيه:

لله دَرُّكَ مـــن مَلْـــك بمضـــيعة ناهيكَ في العقل والآداب والحســـب

ما فيه لَولا، ولا ليتٌ فينقصـــهُ وإنمـــا أدركتـــهُ حِرفـــةُ الأدبِ[1]



(١) تاريخ بغداد، (١٠/ ١١١).

ثقافة ابن المعتز وآثاره

كانت حياة ابن المعتز متنوعة مختلفة شديدة الاختلاف، فهو قد عني بكل ما يعنى به المثقفون في عصره: عني بالأدب خطابة وشعرا وكتابة، وعني بالفقه ميراثا وأحكاما، وباللغة والنحو والعلل النحوية ".[١]

ولقد أسهمت نشأته الأرستقراطية في تكوينه الفكري " فاتسعت ثقافته وتعددت فروعها وتنوعت مصادرها مما أسهم في تعميق الفكرة، تلك التي صدر عنها تأثرا بالقديم والجديد ".[٢]

فابن المعتز كما يقول الصولي:" سمع من صعود صاحب الفراء، وأخذ عنه اللغة والغريب، وعن أعراب فصحاء كانوا يقدمون سر من رأى، وسمع عن أحمد بن أبي فنن، وعن الحسن بن عليل العنزي. وما رأيت عباسيًا قط أجمع منه ولا أقرب لسانًا كان من قلب، وكان يقدم أهل العلم ويؤثرهم.

وكان أبو العباس محمد بن يزيد المبرد يجيئه كثيرًا ويقيم عنده، وكان ذلك سائغًا لمحمد بن يزيد لكثرة مجيئه إلى إسماعيل بن إسحاق القاضي، وقرب القاضي من منزل ابن المعتز.

وكان قد لقي أبا العباس أحمد بن يحيى مرات، وكان يبعث إليه فيسأله عن الشيء بعد الشيء.

---

(١) من حديث الشعر والنثر، د. طه حسين، (ص: ١٥٧).

(٢) القصيدة العباسية: قضايا واتجاهات، د. عبد الله التطاوي، (ص: ١١٧).

وكان أحمد بن السعيد الدمشقي مؤدبه لا يفارقه، وكانت داره مغاثًا لأهل الأدب ".[١]

فإذا أضفنا – كما قلت من قبل – أن الضبي كان يحفظه القرآن على عهد أبيه أضفنا إلى البعد العربي لثقافته بعدا إسلاميا آخرا.

" ولكن بينما كانت ثقافته هذه تدفعه نحو القديم، كان يرى نفسه بحسب نشأته ومحيطه منجذبا نحو الحديث. ولذا جاء إنتاجه مزيجا من الأدبين وصورة من الحياتين تأتلف جوانبهما حينا وتتنافر أحيانا".[٢]

وإلى جانب ثقافته العربية الإسلامية " استوعب ابن المعتز جوانب كثيرة من الثقافات الطارئة، والعلوم المترجمة مما أفاده العرب من الفرس واليونان والهنود، فله إلمام بعلم النجوم، يشير إلى ذلك كثرة ما جاء في شعره من أوصاف للسماء والسحب والكواكب والنجوم ومظاهر الطبيعة ".[٣] وينجلي شعر الرجل العالم ابن المعتز في تلميحاته إلى الفلك والتنجيم ومدارك الفلسفة.[٤]

وكذلك لابن المعتز ثقافة في التاريخ يشهد بها شعره وأرجوزته في تاريخ المعتضد.[٥]

وله ثقافة في علم الكلام يشهد بها كثرة اقتباسه في شعره من مصطلحات المتكلمين.. وكان مطلعا على مبادئ المعتزلة من مخالطته

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء، (ص: ١٠٧).

(٢) عبد الله بن المعتز، محمد عبد العزيز الكفراوي، (ص: ١٥).

(٣) ابن المعتز صورة لعصره، د. سعد شلبي، (ص: ١٦٩).

(٤) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة: د. عبد الحليم النجار، (٢ / ٥٥).

(٥) ابن المعتز وتراثه، (ص: ٨٦).

لعلمائهم، وقراءته لكتبهم وتأثر منهم ببعض آرائهم، ولكن إيمانه بهذا لم يجعله معتزليا في رأيه حتى نراه يهجو إسماعيل بن بلبل الوزير ويذمه بالاعتزال في أرجوزته في المعتضد.

" أما عن أثر الفلسفة في شعره فلم يكن كبيرا على الرغم من أنه أكثر من الحكم والزهد حتى كان لهما فن خاص من فنون شعره، بل نستطيع أن نقول إن حكمه كانت مستقاة من ثقافاته العربية الإسـلامية، فقد كان مؤدبيه من المتخصصين في العلوم العربية المختلفة، ولم يكـن بينهم على الأغلب من تعاطي الفلسفة ".(١)

" كما كان عبد الله – ابن المعتز – حسـن العلـم بصـناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها وله في ذلك وفي غيره من الآداب كتب مشهورة ومراسلات جرت بينه وبين عبيد الله بـن عبـد الله بـن طاهر وبين بني حمدون وغيرهم تدل علـى فضـله وغـزارة علمـه وأدبه".(٢)

أما عن آثاره فبخلاف ديوانه الشعري الذي جمعه أبـو بكـر الصولي، يقول اليافعي عن آثاره:" وله من التصانيف " كتاب الزهـرة والرياض"، و" كتاب مكاتبات الشعر" و " كتاب الجـوارح"، و" كتـاب الصيد"، و" كتاب السرقات"، و" كتاب أشعار الملوك" و" كتاب الآداب"، و"كتاب حلي الأخبار"، و" كتاب طبقات الشعراء"، و" كتاب الجامع فـي

---

(١) نفسه، (ص: ٧١).

(٢) شعر ابن المعتز: القسم الثاني، د. يونس السامرائي، (ص: ٤٧).

العلم"، و" كتاب فيه أرجوزة في ذم الصبوح".[١] " وكتاب البديع في فن الشعر".[٢]

ولكن أغلب هذه الكتب ضاع، ولم يصل إلينا منها إلا القليل المطبوع، مثل: كتاب " فصول التماثيل "، وكتاب " طبقات الشعراء المحدثين "، وكتاب " البديع ". وهذه كتب منشورة.

☆☆☆☆☆☆☆☆

من خلال ما تقدم عن حياة ابن المعتز وثقافته نستطيع أن نلمس أثر تلك الحياة على شعره ويتضح ذلك فيما يلي:

١. رباه أبوه وجدته تربية عربية إسلامية فظهر ذلك واضحا في الجوانب الإيمانية التي تجلت في شعره وخاصة شعر الحكمة والزهد منه.

٢. تربى بين أحضان أبيه على سماع الموسيقى والغناء، فجاء شعره معبرا عن أثر ذلك، فشاهدنا في شعره كل آلات الموسيقى وكذلك اهتمامه البالغ بالغناء.

٣. قتل جده المتوكل في مجلس شرابه، وكذلك كان لأبيه جولات بين الأديرة فنشأ ابن المعتز يتسلى بالشراب أيضا، فنجد في شعره بابا واسعا فيه.

٤. عاصر ابن المعتز الثقافات الأجنبية الوافدة والثقافات الحضارية الجديدة فظهر كل ذلك في شعره.

---

(١) مرآة الجنان، لليافعي، (٢ / ٢٢٦).

(٢) الأغاني، (١٠ / ٢٧٦) طبعة دار الكتب.

٥. تربى في قصور جده المتوكل وأبيه المعتز، فجاء شعره مصورا لنا حركة عمرانية ضخمة.

٦. كان يعبث في صغره بما تملكه جدته قبيحة من لؤلؤ وزمرد وياقوت، فجاء شعره يئن من ثقل ما يحمله من هذه الجواهر.

٧. تربى في ربوع سامراء وبغداد حيث الجو الجميل والنسيم العليل والهواء البليل والتربة الخصبة والماء الوفير وحيث الرياض والبساتين، فجاء شعره معبقا برائحة الورود والرياحين وشتى أنواع الأزهار.

٨. أصيب بقلق شديد لما انتابه من شقاء بعد موت جدته وأمه وتفكيره في الثأر من قتلة أبيه، فجاء شعره يئن بالشكوى وعدم الاستقرار.

٩. رغبته في الخلافة جعلته يقف في وجه المناوئين لها بالمرصاد، فظهر ذلك في شعره السياسي، وهو يقف في وجه العلويين والطولونيين.. وغيرهم.

وبهذا نستطيع أن نقول: إن حياة ابن المعتز صورة لعصره – كما ذهب إلى ذلك الدكتور سعد شلبي– ولذلك فلا عجب إذ جاء شعره معبرا عن مظاهر الحضارة الإسلامية في القرن الثالث الهجري أصدق تعبير؛ لأنه لن يكون هناك أحد أصدق منه وأوعى بالحضارة منه؛ لأنه عاش الحضارة غارقا في جدها وملاذها من رأسه إلى أخمص قدميه.



الفصل الثاني

مظاهر الحضارة المعنوية في شعر ابن المعتز

إن الجوانب المعنوية للحضارة الإسلامية لا شك في أنها هي التي تميزها عن غيرها من الحضارات، فهي السمة المميزة لها، والتي جعلتها إنسانية النزعة.

والجوانب المعنوية في حضارتنا الإسلامية باقية خالدة إلى الأبد ما بقي الدين الإسلامي على ظهر الأرض، لأنها مستمدة من الدين الإسلامي فهي بخلاف الجوانب المادية التي تتأثر بعوامل الزمان والمكان وعصور القوة والضعف.

وسيحاول الباحث فيما سيأتي أن يبين المظاهر المعنوية للحضارة الإسلامية في شعر ابن المعتز العباسي. والتي تتضح فيما يلي:

أولا: الجوانب الإيمانية للحضارة الإسلامية

لقد قامت الحضارة الإسلامية على عدة جوانب إيمانية، استمدت منها عوامل قيامها وانتشارها، وكانت الركيزة الأساسية لهذه الحضارة.

فالحضارة الإسلامية قامت على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة، وهي أول حضارة تنادي بالإله الواحد الذي لا شريك له في حكمه وملكه.

وابن المعتز يصور لنا حال المؤمن حينما يقف ليتأمل، يتأمل في كل ما حوله، في السماوات والأرض، في الليل والنهار، في أحوال الدنيا وتقلباتها، ثم يهتدي إلى أن كل هذه المخلوقات من صنع الله، وأنها آيات لبديع صنعه وعجائب قدرته. يقول:

دامَ كَرُّ النهارِ وَالليلِ مَحشـو ... ثين ذا مُنية وَهَـذا مُنـيمُ
وَرَحىً تَحتنا وَأُخرى عَلَينـا ... كُلُّ من فيها طَحينٌ هَشـيمُ
وَسُـرورٌ وَكُربَـةٌ وَافتقـارٌ ... وَبَريقٌ لِزُخـرُفٍ لا يَـدومُ
وَمُعافىً وَذو سَـقامٍ وَحَـيٌّ ... وَحَبيسٌ تَحتَ التُرابِ مُقيمُ
وَغَويٌّ عـاصٍ وَبـرٌّ تَقـيٌّ ... وَاستَبانَ المَحمودُ وَالمَـذمومُ
وَبَخيلٌ وَذو سَـخاءٍ وَلَـولا ... بُخلُ هَذا ما قيلَ هَذا كَريمُ
وَتَرى صَنعَةً تُخَبِّرُ عَن خـا ... لِقنا أَنَّهُ لَطيـفٌ حَكيـمُ[١]

فإذا ما تأمل المسلم واهتدى إلى خالقه، راح يقر بالوحدانية المطلقة لله وأنه واحد لا شريك له. وفي هذا يقول ابن المعتز:

الحَمدُ لِلَّهِ لا شَريكَ لَهُ ... ما أَحَدٌ دائِمٌ عَلَى خُلُقِ[٢]

"هذا السمو في فهم الوحدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى الإنسان وتحرير الجماهير من طغيان الملوك والأشراف والأقوياء ورجال الدين، وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين، وتوجيه الأنظار إلى الله وحده، خالق الخلق رب العالمين ".[٣]

وما دام خالق الكون واحدا، فهو بيده كل شيء بيده الضر والنفع بيده البسط والقبض، بيده الأمر كله. يقول ابن المعتز:

---

(١) الديوان، (١/٢٨٨ م).

(٢) الديوان، (١/٣٩٨ م).

(٣) من روائع حضارتنا: مصطفى السباعي، (ص: ٤٦).

غلـــب الإله فمن يضر وينفع وإذا سألت فرزق ربك أوسع
في كل شيء قوة مـــن أمـــره فينا يفرق ما يشاء ويجمـــع[١]

ومن الإيمان ألا نعبد إلا الله، ولا نقصد غير الله، ولا نسأل غيـــر الله. يقول ابن المعتز:

تَخَفَّى حاجاتي عن النَّاسِ كُلِّهِم وَلَكِنَّهـــا لله تَبْـــدُو وَتَظْهَـــرُ
لِمَنْ لا يَرُدُّ السَّـــائلينَ بِخَيْبَـــةٍ وَيَدْنُو مِنَ الدَّاعِي وَيُعْطِي فَيُكْثِرُ[٢]

ومن الإيمان أن نؤمن بالموت، وأن عمر الإنسان ما هـــو إلا يـــوم وليلة، سرعان ما ينتهي لأن الموت أقرب ما يكون منا.

يقول ابن المعتز:

وما الدَّهرُ إلاّ مثلُ يومٍ وليلةٍ وما الموتُ إلاّ نازلٌ وقَريبُ[٣]

فالموت حق لا محالة، وكل شيء هالك إلا الله سبحانه وتعالى.

يقول ابن المعتز:

إما هلكت فكل شيء هالك غير الإله وصالح متقدم[٤]

ومادام الموت حقا، فيجب على الإنسان أن يتزود بالأعمال الصالحة فالعمر مهما طال فهو أيام قلائل. يقول ابن المعتز:

---

(١) الديوان، (٢ / ٤٠٦ م).
(٢) نفسه، (٢ / ٣٩٩).
(٣) نفسه، (٢ / ٣٧٧).
(٤) الديوان، (٢ / ٣٦٣ م).

ولم أرَ مثلَ الموتِ حقاً كأنه إذا ما تخطته الأمانيُّ باطل
وما أقبح التفريط في زمن الصبا فكيف به والشيب في الرأس شامل
تَرَحَّل منَ الدُنيا بزادٍ منَ التُقى فَعُمرُكَ أيامٌ تُعَدُّ قَلائلُ
وَدَع عَنكَ ما تَجري بِهِ لُجَجُ الهَوى إلى غَمَراتٍ لَيسَ فيهِنَّ ساحلُ[1]

ثم نرى ابن المعتز يصور وحدة الإنسان في قبره، بعد أن كافح غمرات الموت وسكراته. يقول:

آه من سَفرَةٍ بِغَيرِ إِيابِ آه مِن حَسرَةٍ عَلى الأَحبابِ
آه مِن مَضجَعي فَريداً وَحيداً فَوقَ فَرشٍ مِنَ الحَصى وَالتُرابِ
آه من سكرة بغير شراب آه من وثبة بغير ركاب[2]

ثم ينادى ابن المعتز أصحاب القصور، وأصحاب الأموال أن يستعدوا للموت، فالقصور فانية والأموال زائلة. يقول:

أَيا يا بَانِيَ القَصرِ استَعِدَّ لِسُفرة وَيَا حَاضِنَ الأَموَالِ سَوفَ تَطيرُ[3]

ثم نراه يعاتب، فيقول:

أَلَم تَستَحي مِن وَجهِ المَشيبِ وَقَد ناجاكَ بِالوَعظِ المُشيبِ
أَراكَ تُعِدُّ لِلآمالِ ذُخراً فَما أعددتَ لِلأَجَلِ القَريبِ[4]

فالحياة ما هي إلا سفر إلى مرحلة ما بعد الموت، فالكل ميت، وباب الموت مفتوح ولن يغلق حتى ينفذ جميع البشر. يقول:

---

(١) نفسه، (٢/٤١٣م).
(٢) نفسه، (٢/٣٨١ م).
(٣) الديوان، (٢/٣٩٩ م).
(٤) نفسه، (٢/٧٧ م).

وَقَدْ بَدا لِيَ فيما قَدْ هُدِيْتُ لَـهُ ... أن الحَيَاةَ إِلَى دار الْبِلَـى سَـفَرُ
هل أنا إلا من الناس الذين مضوا ... عاشوا بأنعم عيش ثم قد قـبروا
كيف البقاء وباب الموت منفتح ... وليس يغلق حتى ينفذ البشـر[1]

والمسلم يؤمن بيوم الحساب، يوم يقف الناس حفاة عراة كلّ رهـين عمله، وفي هذا ينادي ابن المعتز: كل خارج مارق على الدين، ينادي عبيد المادة، ينادي الأقوياء الظلمة، ينادي عبيد الشهوات والأهواء بأن الدنيا قد اقتربت نهايتها، وأن الآخرة لآتية عما قريب. يقول:

يا ذا الغنى والسطوة القادرة ... والدولـة الناهيـة والآمـرة
ويـا شـياطين بـني آدم ... ويا عبيد الشـهوة الفـاجرة
انتظروا الدنيا فقد أقربـت ... وعن قليـل تلـد الآخـرة[2]

والدنيا عند المسلم وسيلة إلى غاية، فهـي دار ابـتلاء وامتحـان، وستقود الإنسان إما إلى غي وإما إلى رشد. يقول:

أَلا إِنَّما الدُنيا بَلاغٌ لِغايَةٍ ... فَإِمّا إِلى غَيٍّ وَإِمّا إِلى رُشدِ[3]

ثم نرى ابن المعتز يبادر بالتوبة إلى الله، توبة المسلم، كل مسلم قبل أن يأتي يوم الحساب، ويلاقى عقاب ما قدمت يداه من ذنـوب، فـالموت محاط بالنفس من كل جانب، فيقول:

(١) نفسه، (٣٩٦/٢) م.
(٢) نفسه، (٣٩٩/٢) م.
(٣) نفسه، (٦٣/٢) م.

أسأت فلا أعود إلى العتاب ... وجئتك تائبا قبل العقاب
وروحي بين أسباب المنايا ... يطالعها الردى من كل باب
فهذا الذنب أول كل ذنب ... وآخره إلى يوم الحساب [١]

ومن الإيمان أن يؤمن المسلم بالقضاء والقدر خيره وشره، ويضع في قرارة وجدانه أن كل شيء بيد الله، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعت على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء كتبه الله عليه. فهو يضع نصب عينه قول الله تعالى:
" قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ "[٢]

وابن المعتز يقر قضية الإيمان بالقضاء والقدر في شعره، فكل شيء قدره الله سبحانه سوف يتم فلا داعي للأسف والفجيعة. يقول:

لا تأسفن على شيء فجعت به ... فكل ما قدر الرحمن مصنوع [٣]

ونرى ابن المعتز يفجع لموت المعتضد، ويتألم من الدهر، ولكنه سرعان ما يعود ويستغفر الله مقرا بوحدانيته؛ لأن هذا قدر الله ولا بد أن يتم. يقول:

يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحداً ... وأنت والد سوء تأكل الولدا
استغفر الله بلى ذا كله قدر ... رضيت بالله ربا واحدا صمدا [٤]

---

(١) نفسه، (٣٨٤/٢ م)؛
(٢) التوبة، الآية (٥١).
(٣) الديوان، (٤٠٦/٢).
(٤) نفسه، (٣٣٠/٢).

والمسلم يؤمن بأن الله هو المتكفل بالرزق لعباده،" وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِـي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ".[1]

يقول ابن المعتز في ذلك:

قُلْ لِلْمُطالِبِ قدْ أَنْضى رَكائِبَهُ لا تَعْجَلَنَّ فَإِنَّ الرِّزْقَ مَقْدُور[2]

ويقول أيضا:

يا طالباً مُستَعجلاً رِزقَهُ المَوتُ يَأتيكَ عَلى مَهلِ [3]

ثم نراه يتعجب من الذين يلحون في طلب الرزق، وهم يعلمـون أن الله ضامنه، يقول:

أَرى المَرءَ يَدري أَنَّ لِلرِزقِ ضامِنًا وَلَيسَ يَظلُّ المَرءُ ما عـاشَ طَلّابـا

وَما قاعِدٌ إِلّـا كَـآخَرَ سـائِرٍ وَإِن أَدأَبَ العيسَ المَراسيلَ إِدآبـا

فَيا نَفسِ إِنَّ الرِزقَ نَحوَكِ قاصِدٌ فَلا تَتعَبي حَسبي مِنَ الرِزقِ أَتعابا[4]

ولكن ما موقف المسلم من هذا الرزق الذي هو من عند الله سـبحانه وتعالى؟ عليه أن يثنى على الله ويشكره ، وأن ينفق مـا أعطـاه الله ، ولا يمنع ما يملك عن أي محتاج ؛ لأن الرزق من عند الله وهو صاحبه ، وأن الذي أعطاه يستطيع أن يسلبه منه. يقول ابن المعتز:

---

(١) سورة هود، الآية (٦).

(٢) الديوان، (٢ / ٦٨).

(٣) نفسه، (٢ / ٤١٥).

(٤) نفسه، (١ / ٢٢٧).

وما المال إلا للثناء وللشكر ... وللطالب المطلوب فيه ندى الأجر
ألا فقدت نفسي إذا أبت دافعا ... يمنعي أخا فقر أخاف أذى الفقر[1]

والمرء سيسأل يوم الحساب عن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، فعليه أن يبحث لماله عن أبواب الخير فينفقه فيها بدلا من أن يجمعه ويمنعه.

يقول ابن المعتز:

يا جامعا مانعا والدهر يرمقه ... مقدرا أي باب فيه تغلقه
جَمَعتَ مالاً فَفَكِّر هَل جَمَعتَ لَهُ ... يا جامعَ المالَ أيّامًا تُفَرِّقُه[2]

فعلى الإنسان أن يسرع بإنفاق ماله ولا يمنعه كل محتاج؛ لأنه سوف يموت، غنيا كان أم فقيرا، وسيترك ماله لوارثيه، فقد يحصد الثمر غير الزارع، يقول ابن المعتز:

يا مال كل مانع ووارث ... أبشر بريب وارث وحادث
إن الغنى والفقر غير لابث ... ولا يهاب الموت نفث النافث
قد يحصد الحبة غير الحارث ... وتدهق الدلو لغير النابث[3]

وجميع هذه النواحي الإيمانية كلها ربما تتجمع في "التقوى" فالمسلم يجب أن يراعى الله في كل أقواله وأفعاله، يتقيه، يحل ما حلل، ويحرم ما حرم، ويترك الذنوب صغيرها وكبيرها، وإلى هذا يرشدنا ابن المعتز، ويعطينا درسا في ماهية التقوى. وهي أن نترك جميع الذنوب، وألا نحتقر

---

(١) الديوان، (٢/٦٧).
(٢) نفسه، (٢ / ٤٠٨).
(٣) نفسه، (٢ / ٣٨٧)، وتدهق من أدهق الكأس ملأها، وكأس (دهاق) ممتلئة.

الصغائر، فهل الجبال الضخام إلا من الحصى، وعلينا أن نقضي هذا العمر نحذر المعاصي ونتعامل مع الدنيا وكأنها أرض شائكة نتعامل معها بحذر، يقول في أبيات بليغة:

خَلِّ الـذُنوبَ صَـغيرَها وَكَبيرَهـا فَهـوَ التُقـى
كُن مثلَ مـاشٍ فَـوقَ أَر ضِ الشَوكِ يَحذَرُ ما يَـرى
لا تَحقِـرَنَّ صَـغيرَةً إِنَّ الجِبالَ مِـنَ الحَصـى[1]

وبعد فهذه بعض الأسس الإيمانية للشخصية المسلمة التي قامت عليها الحضارة الإسلامية في كل مكان وفى كل زمان حيث لا فواصل ولا حدود. فالمسلم يؤمن بأن الله واحد، فلا يخشى إلا هو، والمسلم يؤمن بالموت، ولذلك فالدنيا عنده وسيلة لا غاية، والمسلم يؤمن بيوم الحساب؛ ولذلك يجب عليه أن يعد العدة له من خير الأعمال، والمسلم يؤمن بالقضاء والقدر، فهو يسلم بكل ما يصيبه لأنه من عند الله، المسلم يعلم أن الله قد قدر رزقه، ولذلك فهو لا يزاحم عليه ولا يتصارع من أجله.

المسلم يعلم أن المال مال الله، ولذلك فعليه أن يتصرف في مال الله بأمانة، المسلم عرف الحلال والحرام، ولذلك فعليه أن يتقى الله.

فبهذه القيم التربوية السامية للنفس الإنسانية خرج إنسان الحضارة الإسلامية ينتشر في ربوع الأرض، لا يخشى أحدا غير الله، فهو باع دنياه بآخرته.

(١) الديوان، (٢ / ٣٧٦).

ثانياً: الأخلاق والسلوك

الخلق الكريم هو الهدف الأساسي لرسالة الإسلام كما يعبـر عنـه الرسول (ﷺ) في حديثه (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

فكأن الرسالة التي خطت مجراها في تاريخ الحياة، وبذل صـاحبها جهدا كبيرا في مد شعاعها وجمع الناس حولها، لا تنشد أكثر مـن تـدعيم فضائلهم، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم. حتى يسعوا إليها على بصيرة.

والأخلاق في الإسلام عمل يعمل لا كلام يقال، عمل مبعثه القلب لا كلام مكانه اللسان، وهي أيضا سلوك يهدى إلى طريق الحق... والأخلاق الكريمة بلا شك عليها مدار الأمور كلها، فأي أمر في الحياة لا يصـاحبه حسن الخلق لن يكون مقبولا ولا نافعا.. وأي عمل جاء مع الخلق الكـريم كان موصلا للغاية محققا لأهدافه، مقبولا عند تنفيذه وتطبيقـه. وأي أمـة توافر لها حسن الخلق في أفرادها كانت أمة متماسكة مترابطـة تسـودها المحبة والوئام... متفرغة للبناء والتعمير والتقدم.

وجملة ما يراد أن يقال " إن الأخلاق التي جاء بها القـرآن شـملت الحياة كلها فأمرت بالتعاون والمودة والعفة والرحمة والإحسان، والصدق، والإخلاص، والاستقامة، والنظافة والصلاح والإخاء، والعفـو، والصـبر، والثبات والشجاعة وحسن الضيافة، والتكافل والطهر، والصـفح والحـب، والتسامح والسلام.. ولم يكتف القرآن الكريم بهذا بل تأكيدا لضبط السلوك وأخلاقيات المسلم، نهى عن الاعتداء والعدوان والبهتان والظلـم والبخـل

والغضب واللمز والحسد والنفاق والخداع والإسراف، والغش، وقتل النفس بغير حق، والكذب ولغو الحديث، وشهادة الزور، والخلاعة، والابتذال، والغيبة والنميمة والخيانة والسرقة والخصومة والسخرية..."[١] فيما لو فصلناه لوجدناه كله في القرآن.

وربما لاح لنا أن الأخلاق الإسلامية قد انهارت في القرن الثالث الهجري، ولم يصبح هم الناس إلا السكر والعربدة والابتذال، أو يظهر لنا أنهم تبذلوا الدين أو أنهم هجروه. أو يبدو لنا انتشار الفحش والجري وراء الجواري والقيان والزواج بهن أو " ما يبدو من طرق التعذيب والقتل البشعة التي كانت تزري بكرامة الإنسان، أو حب المال الذي أصبح له من القوة ما تسحق كل قيمة أخرى بل وبلغت وصمة حب المال والمكر لتحصيله أعلى طبقات رجال الدولة ".[٢] أو حركة الزندقة والإلحاد التي لم تهدأ في هذا العصر، أم " أن الشعوبية قد ظلت نيرانها مشتعلة فنجد كثيرا ممن يشيدون بفضائل شعوبهم القديمة وحضارتها ومدنيتها ".[٣]

كل هذا صحيح ولكن هذه وجهة واحدة للمجتمع " فإذا كان هناك ترخص في إباحة اللذات، فقد كان هناك أيضا أناس غالون في النهي عنها يثورون على أصحابها في الحين ليقوموا المنكر باليد واللسان ".[٤]

---

(١) أضواء على الحضارة الإسلامية، (ص: ١٥٣).
(٢) آدم متز، (٢ / ١٣٢).
(٣) العصر العباسي الثاني، (ص: ٩٧).
(٤) ابن الرومي، العقاد، (ص: ٤٤).

وابن المعتز العباسي في القرن الثالث الهجري يقر في شعره العديد من المعاني السامية في الأخلاق والتي يجب أن يتحلى بها كل مسلم، والتي نادى بها الدين الإسلامي، ينادي بها ابن المعتز ويلح عليها.

فنراه يدعو إلى المتوكل على الله؛ لأن الله سبحانه هو الذي بيده كل شيء فلا يصح أن نتركه ونتوكل على من يطلبونه أمثالنا، يقول:

دَعِ الناسَ قَد طالَ ما أتعَبوكَ ... وَرُدَّ إلى اللَهِ وَجهَ الأمَل
وَلا تَطلُبِ الرِزقَ مِن طالِبيـ ... ـهِ وَاطلُبهُ مِمَّن بِهِ قَد كَفِل [(١)]

والمسلم في كل أحواله يشكر الله على جميع نعمه تحقيقا لقوله تعالى:" وَلَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُم "، وهنا يقر ابن المعتز العباسي هذا الشكر مقرونا بالصبر على البلاء. يقول:

يا نَفسِ صَبرًا صَبرا ... أما عَرِفتِ الدَهرا
لِلَّهِ مِنّي قَلبٌ ... يَقري البَلايا شُكرا [(٢)]

ونرى ابن المعتز يؤكد الآية السابقة مستبدلا الشكر بالحمد، يقول:

فدم على الحمد لله الحميد يدم ... مزيده لك من خير ونعماء[(٣)]

ومن خلق المسلم إذا أخطأ يسرع إلى الله تائبا، وطالبا عفوه ومغفرته؛ لأن العمر يسير بالإنسان، والموت حتما ملاقيه، فلا يصح أن يضيع عمره سدى. يقول ابن المعتز في هذا المعنى:

---

(١) الديوان، (٢ / ٤١٥)، طبعة دار المعارف.
(٢) نفسه، (٢ / ٦٥).
(٣) الديوان، (١ / ٤٤٨).

جَدَّ الزَّمانُ وَأَنتَ تَلعَــب   والعُمرُ في لا شَيءَ يَــذهَب
كَم قَد تَقولُ غَــداً أَتــو   بُ غَدًا غَدًا وَالمَوتُ أَقرَب(١)

ثم نجد ابن المعتز يخاطب نفسه، بل نفس كل مسلم، يحثهـا علــى التوبة والإكثار من العمل الصالح، وألا تغتر بعز أو سلطان، فكل شــيء يزول فكم من ملك زال، وإنا به لاحقون، يقول:

توبي يكن لك عند الله جاه تقــى   وقدمي من فعال الصــالحين قــدم
لا يعجبنــك ســلطان ومقــدرة   كم غبط العز والسلطان ثم رجــم
أين الملوك الأولى كانوا وما جمعوا   فهؤلاء مثلهم فاصبر كان بهــم(٢)

ثم يتوجه ابن المعتز إلى الله سبحانه وتعالى يقر ويعترف بأنه لــيس له عذر في التوبة والعودة، وكم حوله من المواعظ التي يبثها الدهر في كل لحظة، ولكنه كأن في أذنيه وقر، وهو مع هذا كله يعلم أن الله غفور رحيم بعباده، يقول:

رب ما عندي عــذر ولكــن   عنــدك اللــهم ربي غفــر
ليس بالدهر عن الوعظ صمت   بل بأذني عن الــوعظ وقــر(٣)

ومن خلق المسلم أن يثق في الله سبحانه وتعالى ثقة مطلقة يرجــوه ولا يرجو سواه ويحط عنده رحاله، وأن يكظم غيظه، وألا يتسرع في نيل ما يبغيه، فالدنيا أحوالها متقلبة، يقول:

---

(١) نفسه، (٢ / ٢٨٣).
(٢) الديوان، (٢ / ٤١٨)، دار المعارف.
(٣) الديوان، تحقيق: ميشيل نعمان، (ص: ١٩٥).

فرغ رجاءك واحطط أرجلا قلقت ... على المطايا وثق بالواحد الأحد

واجرع حسى الغيظ ما لم تلق فرصته ... ولا تثب كوثوب العير في الشأد

كَمْ راسبٍ في عماد المُلك تَحْسَبُهُ ... في لَذَّةٍ وَهْوَ في غَمٍّ وَفي كَمَدِ

وَعاقِدٍ فَوْقَ أَمْوالٍ يُجَمِّعُها ... قَدْ أَصْبَحَتْ بَعْدَهُ مَحْلُولَةَ الْعُقَدِ

وَمُبْرِمٍ أَمْرَهُ وَالدَّهْرُ يَنْقُضُهُ ... هَلْ غالَبَ الدَّهْرَ يا لَلنّاسِ مِنْ أَحَدِ

وآيس ملئت صيدا حبالته ... وطامع رد محروما ولم يصد[1]

ومن خلق المسلم الرضا بالرزق وعدم الطمع، وابن المعتز يوضح لنا أن غنى النفس في قناعتها وقوتها، ويخاطب نفسه بأنه تترك المطامع والأماني في الدنيا، لأن الموت يغلب كل أمنية، يقول:

ألا يا نَفسِ إن تَرضَي بِقوتٍ ... وَأَنتِ عَزيزَةٌ أَبَدًا غَنِيَّة

دَعي عَنكِ المَطامِعَ وَالأَماني ... فَكَم أُمنِيَةٍ جَلَبَت مَنِيَّة[2]

ومن خلق المسلم أن يحق الحق ويزهق الباطل، لا محاباة لأحد ولا خوفا من حاكم ولكن لأن للدين سلطانا على ضميره يلزمه ويوجهه. وفي هذا المعنى يقول ابن المعتز:

وَإِنّا لَنُعطي الحَقَّ مِن غَيرِ حاكِمٍ ... عَلَينا وَلَو شِئنا كَتَمنا عَلى ظُلمِ[3]

ومن خلق المسلم الصبر واللجوء على الله. وقد أمرنا الله سبحانه بالاستعانة بالصبر في كل أمر فعسى الله أن يجعل بعد العسر يسرا ولعل بعد الضيق يأتي الفرج، يقول ابن المعتز:

---

(١) الديوان، (٢ / ٣٩٠)، طبعة دار المعارف.

(٢) الديوان، (٢ / ٤٢٤)، طبعة دار المعارف.

(٣) نفسه، (١ / ٢٨٧).

اصبر لَعَلَّكَ عَـــن قَليـــلٍ بـــالِغٌ   بتَفَضُّلِ الوَهّاب ذي الإحســـانِ
فَرَجاً يُضيءُ لَكَ انفتاقُ صَباحِه   مُتَبَلِّجًا من ظُلمَةِ الأحــزانِ (١)

بل نجده يذهب على أنه يجب أن نصبر على أعدائنا، فربما يقـتلهم صبرنا عليهم، وربما ينال الفتى بالصبر ما لم ينله بغيره، يقول:

اصبر علـــى مضَـــض الحســـــو   دِ فـــإنَّ صَـــبْرَكَ قاتلُـــهْ
فالنّـــــارُ تأكـــلُ نَفْسَــــهَا   إن لَـــمْ تَجِـــدْ مـــا تأكُلُـــهْ
فَلَرُبمـــا نـــــالَ الفَـــــتى   بالصـــبر مـــا لم يأملـــه(٢)

ويجب على المسلم أن يلجا بعد ذلك على الله لا لأحد سواه لأن الله سبحانه وتعالى معطاء قريب ممن يدعوه، يقول:

تخفى حاجاتي عن الناس كلهم   وَلَكِنَّهـــا لِلّـــه تَبـــدو وَتَظهَـــرُ
لِمَن لا يَرُدُّ الســـائلينَ بِخَيبَـــةٍ   وَيَدنو مِنَ الداعي وَيُعطي فَيُكثِرُ(٣)

والحلم من الأخلاق الحميدة، ولقد قال الرسول الله صـــلى الله عليـــه وسلم " الحلم سيد الأخلاق "، فما أجمل أن يتخلق به المسلم. والحليم عندما يغضب يكون عنيفا في غضبه. ولذلك أوصانا الرسول الكريم صـــلى الله عليه وسلم، فقال:" اتقوا شر الحليم إذا غضب " وهذا ابن المعتـــز العباســـي يحذرنا من أن نترك الحليم حتى يبلغ المدى في حلمه فلربما يكون الشـــر بعد ذلك. يقول:

لا تَأمَنوا مِن بَعدِ حِلمٍ شَرًّا   كَم غُصُنٍ أَخضَرَ صارَ جَمرا

---

(١) الديوان، (٢ / ٤٢١)، دار المعارف.
(٢) نفسه، (٢ / ٤١٢).
(٣) الديوان، (٢ / ٤٢١)، دار المعارف.

أما عن السلوك الإسلامي الحميدة فمنها الوفـاء بالوعـد حتـى أن رسول الله (ﷺ) قد جعل الإخلاف في الوعد من آيات النفاق. وابن المعتز العباسي يجعل الوعد دينا لابد أن يقضى. فهو في هذه الأبيـات يوصـي بترك العدو للدهر يتشفى منه، ويجعل الوعد دينا، والعطاء يقلل من قـدره كثرة التسويف، ثم يقر بعد ذلك نتيجة مهمة وهي أن القرآن الكريم المعطاء الذي يفي بوعده خالد أبد الدهر، وحياته كالسراج يعرفها كل حي. يقول:

خَـلِّ العَـدوَّ فَـدَهرُهُ تَشـفيكَ منـهُ صُـروفُهُ
وَالوَعـدُ دَيـنٌ وَالعَطـا ءِ مُسـتَعيَبٌ تَسـويفُهُ
إنَّ الكَـريمَ مُخَلَّـدٌ وَحَياتُـهُ مَعروفُـهُ (٢)

والعفو من السلوك الإسلامي، فكم من الآيات القرآنيـة والأحاديـث النبوية جاءت تحث على العفو والصفح وتنادى به. قال تعالى " وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّـهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ "(٣) وكأن ابن المعتز قد أخذ هذه الآية وطبقها تطبيقا عمليا في حياته، فنراه يعرف من يدس له الكيد فيعفو عنه ويداويه بعفـوه وفطنتـه فيعود هذا العدو صديقا له بعد ما كان شانئا له. يقول:

ألا رب دساس إلى الكيد حاصل ضباب الحقود قد عرفت ود واويت
فعاد صديقا بعدما كان شـانيا بعيد الرضا عني فضافى وصـافيت(٤)

---

(١) الديوان، (١ / ٢٦٦)، دار المعارف.
(٢) الديوان، (٢/٤٠٧)، دار المعارف.
(٣) سورة فصلت، (الآية: ٣٤).
(٤) الديوان، (٢٣٨/١)، دار المعارف.

بل إن ابن المعتز يذهب في العفو إلى أبعد من هذا فنــراه وهــو يمدح الخليفة المعتضد، يرسخ قاعدة في العفو، يبثها كل مســلم وهـــي أن نعفو فيما نملكه نحن أما حقوق الله وحدوده فلا عفو فيها فلابد أن تنفذ ولا نخشى في الحق أحدا. يقول:

إنْ عَفَا لَمْ يُلْغِ للهِ حَقًّا　　　أَوْ سَطا لَمْ نَخْشَ مِنْهُ جُناحا[1]

والكرم من سلوك المسلم، بكرم ضيفه، ينفق من ما له لأن المــال مال الله، وسيسأل عنه يوم القيامة، وابن المعتز ينــادي بــأعلى صــوته بالإنفاق والكرم، لأن المرء لن يلبث طويلا في الدنيا، فإن لم ينفق ما له في وجوه الخير سيتركه لورثته ينفقونه. يقول:

ســـابقْ إلى مالــكَ وُرَّاثــهُ　　　ما المرءُ في الــدنيا بلَبَّــاثِ

كم صــامتٍ تخفــق أكياســهُ　　　قدْ صاحَ في ميزان ميراثِ[2]

فالإنسان إذا لم يجد بماله في حياته، فسيجود به الدهر على ورثته، لأنه سيذهب إلى قبره صفر اليدين، ويقول أيضا إن الكرم لا يــؤدى إلـــى الفقر؛ لأن الله سبحانه وتعالى ضامن للرزق، فلا عذر للبخل إذن يقول:

إذا لَم أَجُد بالمالِ جادَ به الدَهرُ　　　عَلى وارِثي وَالكَــفُّ في قَبرِهــا صــفرُ

وَكَيفَ أَخافُ الفَقرَ وَاللَهُ ضامِنٌ　　　لِرِزقي وَهَل في البُخـلِ بَعــد ذا عُــذرُ

فَخَلّوا يَدي تُمطِر بِوابِلِ جودِها　　　عَلى الناسِ حَتّى يَعجَبَ الغَيثُ وَالبَحرُ[3]

---

(١) الديوان، (١/٤٦٨)، دار المعارف.

(٢) الديوان، (٢/٣٨٨)، دار المعارف.

(٣) الديوان، (١/٢٦٦)، دار المعارف.

ونراه في أبيات رائعة الجمال يؤكد صفة الكرم. ويقول إنه يـأبى أن يبخل بماله عن ضيفه بل حتى عن القادر، وأنه يصلح ما بقي من ماله بعد الإنفاق فيستخدمه استخداما حسنا حتى يستطيع أن يجود طيلة عمـره. يقول:

أَبَينا لمالٍ أن نَصـونَ كَرامَـةً عَنِ الضَيفِ وَالعافينَ في الخَصبِ وَالمَحلِ
وَنُصلِحُ ما أَبقى لَنا مِنهُ جودُنـا لِتَجرِيَ ما عِشنا عَلى عادَةِ الفَضـلِ[١]

ويقول أيضا:

وَمالٍ قَد حَلَلتُ الوَعـدَ عَنـهُ إِذا انعَقَدَت بِـهِ نَفـسُ البَخيـلِ
وَأوثِرُ صـاحِبِيَّ بِفَضـلِ زادي وَأُحيِي النَفسَ بِالبَلَـلِ القَليـلِ[٢]

وحفظ السر من السلوك الإسلامي الذي أو صانا به الإسـلام فقـد أوصانا رسولنا الكريم بأن نستعين على قضاء حوائجنا بالكتمان.

وهذا ابن المعتز العباس يوصينا بكتم السر، ويذهب إلـى أنـه لا يجب أن نلوم من يفشي سرنا مادمنا لم نصنه نحن، فالسر لا يسمى سـرا مادام صاحبه أباح به. يقول:

لا تلم من لم يصن سـرك إذ لم تصـنه واحـذر وانتهبـه
لا يكون السـر إلا كاسمـه لا تسم السر ما قد بحت به[٣]

بل يوصينا أن نكتم السر عن الحبيب والعدو؛ لأنه يباح من كليها:

فَاكتُمِ السرَّ حَبيبًا وَعَدوًّا فَهوَ مِن هَذا وَهَذاكَ يَشيعُ[١]

---

(١) الديوان، (١/٢٧٩)، دار المعارف.

(٢) نفسه، (١/٢٨٣)، دار المعارف.

(٣) الديوان، (٢ / ٣٨٥)، دار المعارف.

وحسن اختيار الصديق مسلك إسلامي، فربما يوجد صديق يبلغ من حبه وإخلاصه وتفانيه في خدمة صديقه مبلغ الأخوة، ويا حبذا لـــو كانــت هذه الصداقة قد بنيت على الحب في الله. وابن المعتز يوصينا بالمحافظــة على الأصدقاء لأنهم كنز. يقول:

إنما الأصدقاء كنز فكونوا   خرزا للصديق أو ياقوتا(٢)

ثم يوصينا بأن نصل أخلاءنا ولا نستمع لملامة لائم. يقول:

لا تَسْـــمَعَنَّ ملامــــةً   إنَّ المـــلامَ مِـــنَ الفضـــولِ

واصل خليلك إنّمـــا الـــد   نيـــا مواصـــلة الخليـــلِ(٣)

بل يذهب إلى أن الوفاة ليست موتا للإنسان، إنما فرقة الأحباب هي الموت. يقول:

قد تذكرت أن للعسر يسرا   وجزاء الإحسان بالإحســـان

ليس موت الوفاة للمرء موتا   إنما الموت فرقة الإخـــوان(٤)

فالأصدقاء جزء لا يتجزأ من الإنسان، لا يستغنى عنهم، ولا يستلذ العيش بدونهم وهم نسيم الحياة النقي الذي يشفى به المرء غليل نفسه ويبثه مكنون صدره.

والنظافة مسلك إسلامي جميل. نظافة الثوب، نظافة البدن، نظافــة الضمير، وكم من الأحاديث النبوية الشريفة جاءت لتدفعنا إلى النظافة دفعا.

---

(١) الديوان، (١ / ٢٧١)، دار المعارف.
(٢) الديوان، (٢ / ٤٣٣).
(٣) الديوان، (٢ / ٤١٦)، طبعة دار المعارف.
(٤) نفسه، (٢ / ٤٢١).

والرسول الكريم (ﷺ) قد ركز في تربيته الإسلامية لأمة الإسلام على وجوب الاعتناء بالمظهر وضرورة الاهتمام بالشكل، لتتميز الأمة الإسلامية على غيرها من الأمم في كل مظهر يدل عليها، وليكون المسلم مقبولا مرغوبا فيه. ومن النظافة حف الشارب. تقليم الأظافر، ونتف الإبط، حتى يكون المسلم وسيما رائحته طيبة.

وهذا ابن المعتز يتأذى من رائحة إبطي رجل قد مر بمجلسهم ويتأذى منه المجلس، ويأمره أن ينتف إبطيه، ولا يتعلل في النظافة بأي علة. يقول:

قَد نَتِنَ المَجلِسُ مُذ جِئتَنا فَكُلُّ مَن مَرَّ بِهِ يَبصُقُ

فَقَدِّ إِبطَيكَ وَأَشبِعهُما في الصَيفِ بِالمَرتَكِ يا أَحمَقُ

وَلا تَقُل ما فيهِما حيلَةٌ فَالحَشُّ قَد يُكنَسُ أَو يُطبَقُ[1]

وعيادة المريض من السلوك الإسلامية الحميدة: فقد جعلها الرسول(ﷺ) من حق المسلم على المسلم، ولكن يجب على المسلم أن يراعى حالة أخيه المريض فلا يؤذيه بطول مكثه عنده. وابن المعتز وهو في مرضه يشتكي من كثرة العواد الذين يطيلون في عيادته. ويذهب إلى أنهم ما أتوا إلا لإرادة الأجر من الله فقط. يقول:

وَعُوَّادٌ يُطيلُونَ كَمَا رُبِّطَت الحُمُر

يُعَادُوني وَيَأْتُوني إِذَا صُلِّيتِ الظُّهُر

أَرَادُوا الأَجْرَ فِي بِرِّي وَفِي هَجْرِي لَهُمْ هَجْرُ[2]

---

(١) نفسه، (٤٥٧/٢).

(٢) الديوان، (٢ / ١٧٧)، دار المعارف.

أما عن الرذائل النفسية الممقوتة والتي رفضها الإسلام فمنها البخل والحرص، فهناك أناس يقتلهم الحرص ويقضى عليهم الطمع. وابن المعتز يجعل من الحرص ذلا لصاحبه؛ لأن همه كله جمع الأموال ولا يبالي في ذلك عزة ولا كرامة، ويعرض نفسه لأسباب المعرة والهوان، ويجعل من البخل فقرا. لأن البخيل مهما كثر ماله فهو فقير، مادامت نفسه فقيرة إلى حاجاتها وطلباتها. فما جدوى المال إذا كانت النفس محرومة. يقول:

والحرص ذل والبخل فقر   وآفة النائل المطال
والخير سهل حلو جناه   والشر يكفيكه اعتزال(١)

والنفاق من الرذائل الممقوتة أيضا. وابن المعتز يشكو من إخوان مرضوا بهذا الداء، فهم في حضرته أصدقاء أو فياء وفى غيبته أعداء ألداء. يقول:

بَلَوتُ أخلّاءَ هَذا الزَمانِ   فَأَقلَلتُ بِالهَجرِ مِنهُم نَصيبي
وَكُلُّهُمُ إِن تَصَفَّحتَهُم   صَديقُ العَيانِ عَدُوُّ المَغيبِ(٢)

ويقول أيضا:

لِي صَاحِبٌ إِنْ غِبْتُ يَأكُلُنِي   وَإِذَا رَآنِي فِي النَّدَى سَجَدَ(٣)

ومن الرذائل المذمومة أيضا الحسد وهو تمني زوال نعمة الغير وابن المعتز يبين أن الحاسد لن يستطيع أن يضر أحدا مهما اجتهد في حسده؛ لأنه لا يملك النفع والضر إلا الله. يقول:

---

(١) نفسه، (٢/٤١١)، دار المعارف.
(٢) نفسه، (٢ / ٤٢٧)، دار المعارف.
(٣) الديوان، (٢ / ٦٠).

وَحَاسِدٌ لَم يَضُـــر وَنَفْسُـــهُ جَاهِـــدَة
تُخبِـــرُ أَلْحَاظُـــهُ بأَنَّهَـــا حَاسِـــدَة
يَصْلُحُ لِـــي قَولُـــهُ بِنِيَّـــةٍ فَاسِـــدَة[1]

والكذب عادة سيئة يرفضها الإسلام، لأنها أصل جميع المعاصي. وابن المعتز يدعو إلى عدم الكذب، لأن خير الكلام ما كان صدقا. يقول:

لا تكذبن فخير القول أصدقه المال يفرق من كف تفرقه[2]

وبعد، فهذه بعض الأخلاق الإسلامية الحميدة التي أقرها الإسلام ودعا إليها، والبعض الآخر رذائل مقتها الإسلام ودعا إلى البعد عنها، وجدت جميعها متبلورة في شعر ابن المعتز العباسي. وليس معنى ذلك أن هذه الصفات كان يتحلى بها مجتمع القرن الثالث الهجري، أو حتى ابن المعتز نفسه كان يتحلى بها، ولكنها وردت كأثر إسلامي في شعر شاعر ينتمي لمجتمع إسلامي، قامت فيه حضارة إسلامية. تتفاوت فيه هذه الأخلاق والصفات بين أفراده. فمنهم التقي الورع الذي أخذ بها كلها، ومنهم الشقي الفاجر الذي تجرد منها كلها، ومنهم من أخذ وترك.

ويتضح من ذلك أن الأخلاق والسلوك الإسلامية كانت من المقومات الأساسية للحضارة الإسلامية، لأنها تكون الإنسان الذي يكون أهلا لاستخلاف الله في الأرض والذي به توطدت الحضارة وامتدت عبر الزمان والمكان.

---

(١) نفسه، (٢ / ٣٩٢).
(٢) نفسه، (٢ / ٤٠٨).

ثالثاً: العلوم والمعارف

لقد جاء ديننا الحنيف يدعو إلى العلم ويمجده، ويرفع من شأن العلماء ويفضلهم على من سواهم. قال تعالى:

" قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ"[١].

" وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ "[٢].

"يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ"[٣].

وغير هذه الآيات الكثير الذي يركز القرآن الكريم فيها على العلم والتفكر والتأمل، والتي نفهم من الانطلاق في مضمونها إلى أن العلم في نظر الإسلام ليس خاصا بعلم الفقه والأصول والأحكام، وإنما يشمل كل إدراك يفيد الإنسان بمهمته في الحياة. ولقد جاء الإيماء بهذا واضحا في القرآن الكريم وبه كان العلم بمعناه الشامل العنصر الأول من عناصر الحياة في الإسلام.

" فالعلم في القرآن الكريم يشمل كل أنواع المعرفة التي تتصل بكل ما ينفع الناس في دينهم ودنياهم، وفى معاشهم ومعادهم، وفي أجسادهم

---

(١) الزمر، (الآية: ١٩).

(٢) العنكبوت، (٤٣).

(٣) المجادلة، (١١).

وأرواحهم، وهذا أمر طبيعي باعتبار الإسلام نظاما كاملا خالدا منظم شئون الدين والدنيا، وتقيم الحياة الصحيحة ".(١)

والقرن الثالث الهجري، بالرغم مما كان فيه من قلاقل سياسية واضطرابات في أمور الحكم، وكثير من مظاهر اللهو والمجون، إلا أنه كان في نفس الوقت عصر علم بمعنى هذه الكلمة، فبرز فيه العديد من العلوم بشتى مجالاتها. كما نجد أن معظم الخلفاء قد اهتموا بالعلم فهذا المأمون " الذي كان يخلو بالعلماء ويأنس بمناظراتهم ويلتذ بمذكراتهم علما منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده ".(٢) كما أن إنشاءه لدار الحكمة في بغداد كان عاملا مهما وحاسما في انتشار العلوم وانطلاق الازدهار في الشرق الإسلامي".(٣) فقد كان حب العرب للعلم عظيما، ولم يترك الخلفاء في بغداد طريقا لاجتذاب أشهر العلماء ورجال الفن في العالم إلا سلكوها، ومن ذلك أن أشهر أحدُ أولئك الخلفاء الحرب على قيصر الروم ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين في التدريس في بغداد".(٤)

" وفى هذا العصر نشطت حركة الترجمة، فقد اتسعت في عهد المأمون وزخرت بحورها، إذ استدعى المترجمين من جميع الأقطار.. حتى أنه لم ينته عصر المأمون والمعتصم والواثق حتى لم يبقَ علم مما

---

(١) أضواء على الحضارة الإسلامية، (ص: ٣١).

(٢) حضارة العرب، غوستاف لبون، (ص: ١٧٤).

(٣) جاك. س. ويسلر، (ص: ٨٣).

(٤) غوستاف لبون، (ص: ١٧٤).

صنف فيه اليونان والسريان والفرس والهنود والنبط إلا ترجم منه أكثر من كتاب... وفترت الترجمة في عهد المتوكل ثم عادت إلى ما كانت عليـــه، غير أن اهتمام الخلفاء والرؤساء بها لم يبلغ عناية المأمون".[١]

وخلاصة القول:" إن ما يشاهده المرء في هذا العصر لم يكن لـــه مثيل قبل ذلك. ففي كل مكان كلف لا حد له بالكتب، وآلاف المساجد تهتز بفصاحة العلماء، ومائة بلاط رائع تدوي بمباريـــات شـــعرية أو فلســـفية، وطرقات غاصة بعلماء الجغرافيا، وعلماء التاريخ، وعلماء الدين، للبحـــث والمعرفة وهذه أهم نقطة فكرية في التاريخ الإسلامي".[٢]

يأتي شعر ابن المعتز العباسي مصـــورا تلـــك الحركـــة العلميـــة الجبارة، فنراه يدعو العلماء إلى السخاء بعلمهم، وأن يعلمونه غيرهم، فكما أنهم عندهم علم، فغيرهم عندهم علم أيضا، فعلى العالم أن يعطـــي مثلمـــا يأخذ. يقول:

وإذا علمت العلم فاسخ بـــه   فسواك أيضا عندهم خـــبر

كم من رياض لا حلول بهـــا   تركت لأن مرامهـــا وعـــر

واحتل لعلمك أن تسوغ بـــه   لا يسخين بعلمك الكبر[٣]

وفي هذا العصر الذي تعددت فيه التخصصات. كثرت النداءات التي تطالب بالعلم والتأمل وترك الحرص وطلب الدنيا. يقول:

---

(١) العلوم والمعارف في العصر العباسي، أحمد زكي صفوت، (ص: ١٠).

(٢) جاك. س. ويسلر، (ص : ٩٩).

(٣) الديوان، (٢ / ٣٩٨)، طبعة دار المعارف.

أيا بني الدهر كم ذا الجهد والتعب الله يرزق (لا) الحرص والتعب
أما حياء أمـــا ديـــن أمـــا رعـــة أما تفكر معقول أمـــا أدب[١]

أما عن كيفية التعليم في القرن الثالث الهجري، فقد كان المسجد هو النواة الأولى للمدرسة في حضارتنا الإسلامية، فلم يكن مكان عبادة فحسب بل كان مدرسة يتعلم فيها المسلمون القراءة والكتابـــة والقـــرآن وعلـــوم الشريعة واللغة وفروع العلم المختلفة. ثم أقيم بجانب المســـجد الكتـــاب.. وكان الكتاب يشبه المدرسة الابتدائية في عصرنا الحاضر، وكان الكتـــاب الواحد من الاتساع بحيث يضم المئات أو الآلاف من الطلاب".[٢]

وهذا ابن المعتز يبين الضوضاء الشديدة التي كان يحـــدثها هـــذا الجمع الغفير من الطلاب مما كانوا يسببون الغيظ لمعلمهم. ويوضح أيضا الأجازة الأسبوعية التي كانت تعطيها الدولة يوم الثلاثاء " فقد كان الرســـم جاريا منذ صدر الدولة العباسية على إغلاق الدواوين بدار الخلافة ببغداد، وقطع الأعمال يوم الجمعة، لينصرف فيه الناس إلى الصلاة جماعة، فكانوا يقضون أكثر النهار في المساجد للصلاة ولسماع الوعظ وبقيت الحال على هذا الوجه، حتى جاء المعتضد بالله الخليفة العباسي، فأضاف يومـــا آخـــر يتوسط جمعة وأخرى، وهو الثلاثاء، حيث تغلق فيه الدواوين، ويكون يوم راحة ولهو".[٣] يقول ابن المعتز:

---

(١) نفسه، (٢ / ٣٨١).
(٢) من روائع حضارتنا، (ص: ١٢٩).
(٣) صور مشرقة من حضارة بغداد، ميخائيل عواد، (ص: ٧٩).

بالله يا ابنَ عَليٍّ فُـضَّ جَمعَهُـمُ   وَاعفِ نَفسَكَ مِن غَيظٍ وَضَوضاءِ
لا تَجعَلوا في الثَلاثاءِ اجتِمـاعَكُمُ   إِنَّ الكَتاتيبَ تَخلو في الثُلاثاءِ [1]

وقد ساعدت عدة عوامل على انتشار التعليم في هذا العصر منهـا صناعة الحبر واستخدام الورق في الكتابة.[2] وقد أشار إلى ذلك ابن المعتز في أحد تشبيهاته. يقول:

أخي ردِ كأسَ الخمرِ عني فلا خمرا   تبدلتَ منها أسودًا حالكًا مـرا
كأنَّ الندامى حين كظوا بشـربه   محابرَ وراقينَ قد ملئتْ حـبرا [3]

ومما ساعد أيضا على انتشار التعليم تقدم الكتابة والتفنن فيها مما أدى إلى كثرة نسخ الكتب وانتشارها، حتى أنهم كانوا يكتبون بماء الذهب. يقول ابن المعتز في وصف البرق:

أرقْتُ لبَرْقٍ شديد الـوَميض   تَرامَـى غواربـه بالشُـهُبْ
كـأنَ تألُقَـه في السـماء   سُطُور كُتِبْنَ بمـاءَ الـذهبْ [4]

وقد ساعد التقدم في الكتابة ووجود الأقلام والحبر والورق علـى نسخ الكتب مما ساعد على انتشار المكتبات حتى في البيوت. وهـذا ابـن المعتز يصف أرضه قد أكلت كتبه، ويبين فيها أهمية الكتب والتعلم:

كُنتُ امرَءًا مِنَ الأَنامِ مُعتَـزِلْ   عَلَيَّ سِـتْرٌ دُونَ دَمِّـي مُنسَـدِلْ
عَلَى الذّي يَمْلكُ رِزْقِي مُتّكِلْ   لا راجِيًـا لَعطْفَـةٍ مِـنَ الـدُّوَلْ

---

(١) الديوان، (٢ / ٤٢٦)، طبعة دار المعارف.
(٢) العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف، (ص: ١٢٣).
(٣) الديوان، (٢ / ٢٦٣).
(٤) الديوان، (٢ / ١٥٩).

وَلا أخافُ آجلاً عَلَى أَمَلْ ... شُغْلِي إذا ما كَانَ لِلنَّاسِ شُغُلْ
دَفْتَرُ فقه أَوْ حَدِيثٍ أَوْ غَزَلْ ... لا عَابَنِي وَلا رَأَى مِنِّي زَلَلْ
تخالهُ مكتحلاً وما اكْتَحَل ... راكبُ كفٍّ أينَمَا شَاءَ رَحَلْ
وَإِنْ مَلِلْتُ قُرْبَهُ مِنِّي اعْتَزَلْ ... أَرْقَطُ ذُو لَوْنٍ كَشَيْبِ الْمُكْتَهِلْ
وَلا يَحِلُّ مَوْضِعًا حَتَّى تُحَلْ ... وَهْوَ دَلِيلٌ لِمقالٍ وَعَمَل
يُقِيم وزنَ الْعَقْلِ حَتَّى يَعْتَدِلْ ... وَيُذْكِرُ النَّاسِيَ مَا كَانَ أَضَلّ
كَأَنَّهُ يُنْشَرُ عَنْ رَقْمِ الْحُلَلْ ... يُخاطِبُ اللحْظَ بِنُطْقٍ لا يَكِلّ
وَلا يَمَلُّ صاحِبًا حَتَّى يَمَلْ ... فَدَبَّ فِيهِنَّ دَبِيباً قَدْ أَكَلْ
عَصا سُلَيْمَانَ فَظَلَّ مُنْجَدِلْ ... يَبْنِي أنابِيبَ لَهُ فِيها سَبَلْ
بالْماءِ وَالطينِ وَما فيهَا بَلَلْ ... مِثْلَ الْعروقِ لاُ يَرى فِيهَا خَلَلْ
يَأْكُلُ أَثْمارَ الْعُقُول لا أَكَلْ ... حَتَّى يُرَى الْعالِمُ مَهْجُورَ الْمحَلّ
يَعُودُ وَقَّافاً وَقَدْ كانَ بَطَلْ ... قد فاته العلم القديم فانخزل
فَأَوْدَعَ الْقَلْبَ هُموماً تَشْتَعِلْ ... وَصَيَّرَ الْكُتْبَ سَحِيقاً مُنْسَحِلْ(١)

ومن العوامل التي ساعدت على إشعال الجذوة العلمية وإمدادها بوقود جزل لا ينفذ: مناظرات العلماء في المساجد وقصور الخلفاء والوزراء في الكلام وفى الفقه وفى اللغة والنحو وغير ذلك".(٢)

وهنا يصف ابن المعتز حال صديق كل اهتماماته دنيوية ولا يهتم بما حوله من أمور الخلافة أو مناظرات دينية كالخلاف بين علي ومعاوية، يقول:

---

(١) الديوان، (٢ / ٢٠٠، ٢٠١)، دار المعارف.
(٢) العصر العباسي الثاني: د. شوقي ضيف، (ص: ١٢٢).

وَلَسْتَ تَراهُ سائلاً عَنْ خَليفَــةٍ ... وَلا قائلاً مَنْ يَعزِلُونَ وَمَــنْ يَلــي
وَلا صائحًا كالْعَيْرِ في يَوْمِ لَذَّةٍ ... يُناظِرُ في تَفْضيلِ عُثْمانَ أَوْ عَلي[1]

أما عن العلوم التي كان يتلقاها الطلاب في هذا العصر فهي:

علوم إسلامية وعربية وتشمل الفقه والميراث والتفسـير والنحـو والعروض ورواية الأخبار والشعر.. وغير ذلك.

وربما يوضح لنا ذلك تلك الأبيات التي قالها ابن المعتـز. فقـد " روى أن البلاذري كان قد سعى عند جدته حتى أذنت له أن يجلـس إليـه ويؤدبه فغضب أحمد بن سعيد الدمشقي – مؤدبه الأصلي – واعتزل فـي داره فكتب إليه الأمير وسنه لا تتجاوز الثالثة عشر يقول:

أصبحتَ يا ابن سعيد حزتَ مَكْرُمَة ... عنها يقصّر مَنْ يَحْفَى وينتعـلُ
سَرْبَلْتني حكْمةً قد هَذَّبَتْ شـيَمي ... وأججَتْ عزبَ ذهْني فهو مشْتعلُ
أكونُ إنْ شئْتَ قُسًّـا في خَطَابتــه ... أو حارثًا وهو يوم الْحَفْلِ مُرْتجـلُ
وإنْ أشأْ فكَـزَيْـدٍ في فرائضــه ... أو مثْلَ نعمانَ لما ضــاقَت الحِيَـلُ
أو الخليل عَرُوضـيّاً أخَـا فطَـنٍ ... أو الكِسائي نَحْوِيًّا لَـه علَـلُ[2]

" وهو يعنى بقس: قس بن ساعدة الأيادي أشهر خطبـاء العـرب وأما الحارث المذكور فهو الحارث بن حلزة، ويعنى بزيد: زيد بن ثابـت أبرع من تحدث في الميراث، وأما نعمان فهو أبو حنيفة الفقيه المشـهور، والخليل والكسائي معروفان في العروض والنحو.[3]

---

(١) الديوان، (٢ /٢٩٠)، طبعة دار المعارف.

(٢) معجم البلدان، (١ / ١٣٣).

(٣) ابن المعتز العباسي: د. أحمد كمال زكي، (ص: ١٩).

ويشير ابن المعتز إلى رواية الأخبار والنحو والشعر مخاطبا أحد منكري هذه العلوم بقوله:

وَتُومى إلى عِلْمٍ خَفِيٍّ تُسِرُّهُ ... مِنَ النَّاسِ مَكْتُومٍ يُصانُ عَنِ الجَهْرِ
وَتَسْخَرُ مِمَّنْ قَالَ إِنِّي عالِمٌ ... بشيء الأَخْبارِ وَالنَّحْوِ وَالشِّعْرِ(١)

ويقول عن آخر:

يَستعمِلُ الغَريبَ في خِطابِهِ ... وَغامِضاتِ النَحوِ في كِتابِهِ(٢)

وفى هذا العصر نمت المذاهب الدينية من معتزلة وشيعة ومتصوفة ونشأ ما يسمى بعلم الكلام، وألفت فيه كتب كثيرة. ونجد مصطلحات هذا العلم تفرض نفسها على شعر الشعراء. فنجد ابن المعتز يستخدم بعض مصطلحات هذا العلم في شعره مثل:"الظاهر"،"الباطن" و"القديم" و"الحديث" يقول:

أَطَلتَ وَعَذَّبتَني يا عَذولُ ... بُليتُ فَدَعني حَديثي يَطولُ
هَوايَ هَوىً باطِنٌ ظاهِرٌ ... قَديمٌ، حَديثٌ، لَطيفٌ، جَليلُ(٣)

ويستخدم لغة المتصوفة. فيقول:

وَأَتبَعُ مِصباحَ اليَقينِ فَإِن بَدا ... لِيَ الشَكُّ في شَيءٍ يُريبُ تَناهَيتُ(٤)

---

(١) الديوان، (٢ / ٤٤٧)، طبعة دار المعارف.
(٢) الديوان، (١ / ٥٤٠)، طبعة بغداد.
(٣) الديوان، (ص: ٣٢٩)، تحقيق ميشيل نعمان.
(٤) الديوان، (١ / ٢٣٩)، دار المعارف.

ونشطت في هذا القرن الكتابات التاريخية، فمن كتابه تاريخ السيرة النبوية والأحداث الإسلامية إلى الكتابة في المدن والتراجم".[١]

ونجد ابن المعتز نفسه يشارك في كتابة التاريخ بأرجوزته التاريخية. ومنها متناولا تاريخ مدينة الكوفة:

وَاستَمعِ الآنَ حَديثَ الكوفَه ... مَدينَةٌ بِعَينِها مَعروفَه
كَثيرَةَ الأديانِ وَالأئمَّه ... وَهَمُّها تَشتيتُ أمرِ الأمَّه
مَصنوعَةٌ بِكُفرِ بُختَ نَصَّر ... وَكُفرِ نُمرودِ إمامِ الكُفَّر
وَعَشَّشَ الشمرُ بِها وَفَرَّخا ... ثُمَّ بَنى بِأرضِها وَرَسَّخا
وَغَرِقَ العالَمُ مِن تَنّورِها ... جَزاءَ شَرٍّ كانَ من شُرورِها
وَهَرَبَت سَفينَةُ الطوفانِ ... مِنها إلى الجوديِّ وَالأركانِ[٢]

(١) العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف، (ص: ١٤٧).

(٢) يندد ابن المعتز بالكوفة لتأييدها العلويين من جهة ولأنها كانت في عهد المعتضد مركزا لظهور حركة القرامطة، وواضح أن ابن المعتز في الأبيات التالية يغوص في أعماق التاريخ لينال من الكوفة باعتبار مكان وجودها في أرض بابل.

بختنصر: هو الملك البابلي الذي خرب بيت المقدس وسبى اليهود وجاء بهم أسرى إلى بابل.

نمرود: هو نمرود بن كوش بن حام، وكان يلقب بالجبار، وهو أحد ملوك البابليين، وصاحب الصرح الذي ابتناه ليرى إله إبراهيم الخليل فاقتلعته الرياح الهائجة وغرق العالم في تنورها، جاء في الطبري (١ / ١٨٣):" ويزعم أهل التوراة أن الله عز وجل أمر نوحا أن يصنع الفلك من خشب الساج حتى إذا فرغ منه وقد عهد الله إليه حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين (سورة هود) وقد جعل التنور آية فيما بينه وبينه. وقد اختلف في مكان التنور فقيل كان بالهند وقيل كان ذلك بناحية الكوفة .

الجودي: جبل مطل على جزيرة ابن عمر شوقي دجلة، من أعمال الموصل استوت عليها سفينة نوح لما نضب الماء. (المراصد: ١ / ٢٥٦).

وقد تقدمت علوم الفلسفة والمنطق في هذا العصر بفضل كثرة الكتب والمترجمة عن اليونانية. وانتشرت المصطلحات الفلسفية في شعر الشعراء، ومن ذلك ما نجده في شعر ابن المعتز. فيشير إلى أحد أعلام الفلسفة بقوله:

وَمَدَحَ أَفْلاطُونَ وَالفَلاسِفَةْ   وَسَاعَدَتْهُ فِي هَوَاهُ طَائِفَةْ[١]

ويقول مستخدما لفظ الفيلسوف في أحد تشبيهاته:

ودينار حسن لم ير الناس مثله   تعجب عند النقد منه جهابذه
يصرفه راع رفيق بمثله   متى ما يرم مستصعبا فهو آخذه
تراه كمثل الفيلسوف إذا غدا   وراح ومروان العباد تلامذه[٢]

كما نجد ابن المعتز يستخدم مصطلحات علم المنطق الذي تقدم في هذا العصر مثل: الحجة والبرهان، والشك، الصدق، الكذب، يقول:

وَقَد أتانا بِبَراهينِه   وَما نَرى البُرهانَ في حُجَّتِه[٣]

ويقول:

لَمْ يُبْقِ مِنها الْبِلى شَيْئًا سِوَى شَبَحٍ   يُجيلُهُ الْوَهم بَيْنَ الصِّدْقِ وَالكَذِبِ[٤]

وتقدمت في هذا العصر أيضا العلوم الطبيعية من فلك وصيدلة وكيمياء "فقد أخذ خلفاء بغداد يحثون على دراسة علم الفلك والرياضيات ونذكر من أعمال فلكي بغداد ما وصفوه من التقاويم لأمكنة الكواكب

---

(١) الديوان، (١ / ٥٤٢). طبعة بغداد.
(٢) الديوان، (٢ / ١٧٥)، طبعة دار المعارف.
(٣) نفسه، (٢ / ٤٣٥).
(٤) نفسه، (٢ / ٢١٩).

السيارة وإقدامهم على قياس خط نصف النهـــار، وتعييـــنهم مـــدة الســـنة بالضبط.. وكانت بغداد مركزا مهما لمباحث علم الفلك، ولكنها لـــم تكـــن المركز الوحيد لهذه المباحث، فالمراصد التي كانت قائمة في البلاد الممتدة من آسية الوسطى إلى المحيط الأطلنطي كثيرة ".(١)

ونجد ابن المعتز يستخدم هذه المراصد في إحدى صوره البلاغية يقول:

يا آلَ عبّاسٍ لَعًا من عَثـــرَةٍ   لا تَركُنُنَّ إلى الغُـــواةِ الحُسَّـــدِ

إيّاكُمُ من بَعـــدِها إيّـــاكُمُ   كونوا لَها كَأَراقِمٍ في مَرصَدِ(٢)

ويقول ذاكرا تقـــويم الشـــمس والكواكـــب والاصـــطرلاب أحـــد الاكتشافات العربية في علم الفلك:

ولا حاسباً تَقويمَ شَمْسٍ وَكَوْكَـــبٍ   لِيَعْرف أسْبابَ الْعُلوِّ مِنَ أسْـــفلِ

يَقومُ كَحِربـــاءِ الظَّهـــيرَةِ مـــائلاً   يُقَلِّبُ في اصْطِرلاْبِهِ عَيْنَ أحْوَلِ(٣)

ويقول:

وَذَكَـــرَ السُـــعودَ وَالنُحوســـا   وَالجَوهَرَ المَعقـــولَ وَالمَحسوســـا

وَذَرعَ طـــولِ الأَرضِ وَالأَفـــلاكِ   وَكَم بِلادِ الصـــينِ وَالأَتـــراكِ

وَالعَرَضَ الظـــاهِرَ في التَجســـيمِ   وَالقَولَ في طَلائـــعِ النُجـــومِ(٤)

وفى علم الكيمياء نجدهم قد عرفوا العديد مـــن المعـــادن وخواصـــها ويستخدم ابن المعتز الزئبق في وصفه للنجوم. يقول:

---

(١) غوستاف لوبون، (ص: ٤٥٦).

(٢) الديوان، (ص: ١٤١)، تحقيق ميشيل نعمان.

(٣) الديوان، (٢ / ٢٩٠)، طبعة دار المعارف.

(٤) الديوان، (١ / ٥٤٢)، طبعة بغداد.

كَأَنَّ الثُرَيّا هَودَجٌ فَـوقَ ناقَـةٍ ... يَحُثُّ بِها حادٍ إِلى الغَربِ مُزعَجُ
وَقَد لَمَعَت حَتّى كَـأَنَّ بَريقَهـا ... قَواريرُ فيها زِئبَقٌ يَتَرَجـرَجُ [١]

أما علم الصيدلة، فقد تقدمت صناعة الأدوية والأشربة. ونجد ابن المعتز يبين لنا بعض الأدوية المستعملة في هذا العصر:

فيشير إلى (الهاضوم) وهو دواء يساعد على الهضم:

وَوَرِثَ الهاضومَ عَن جَـدِّهِ ... وَعَـن أَبيـهِ فَهـوَ في رُتبَتِـهِ
ذاكَ دَواءٌ جَيِّـدٌ نـافِعٌ ... يُصلِحُ ما يَشكوهُ مِن مِعدَتِـهِ [٢]

ويشير إلى (السعط) وهو اسم لدواء يوضع في الأنف. يقول:

فَمَن يَكُ ذا سِلمٍ فَإِنّي طَبيبُهُ ... وَمَن يَكُ مَجنونًا فَعِندي لَهُ سَعطُ [٣]

ومن هنا يتضح أن ابن المعتز تأثر بما يدور في عصره من قول ودرس في شتى العلوم التي أثمرت بها حضارة الإسلام.

---

(١) الديوان، (٢ / ٣٥٧)، المعارف.

(٢) الديوان، (٢ / ٤٣٥)، طبعة دار المعارف .

(٣) نفسه، (٢ / ٧٧).

رابعا: التسامح الديني في الإسلام

إن التسامح الديني من المبادئ السامية التي قامت عليها حضارتنا الإسلامية، " فهي توجب على المسلم أن يؤمن بأنبياء الله ورسله جميعـــا، وأن يذكرهم بالإجلال والاحترام، وأن لا يتعرض لأتبــاعهم بســوء، وأن يكون معهم حسن المعاملة، رقيق الجانب، لين القول، يحسن جوارهم ويقبل ضيافهم، ويصاهرهم حتى تختلط الأسرة وتمتزج الدماء وأوجب الإســلام على الدولة المسلمة أن تحمي أماكن عبادتهم وألا تتدخل في عقائــدهم ولا تجور عليهم في حكم، وتســويهم بالمســلمين فــي الحقــوق والواجبــات العامة".[1]

أما عن مظاهر التسامح الديني في شعر ابن المعتز العباس فنجــد أصحاب العقائد والديانات الأخرى لهم حق العبادة في أمــاكن عبــادتهم، فالنواقيس تقرع، والمبتهلون في الدير يضجون مع الصباح بعد أن قضــوا ليلهم في الابتهال والتقديس. يقول ابن المعتز:

وَالنجمِ قَد لَجَّ فِي الغُروبِ وَقَد أَنذَرَ بِالصُبحِ قَــرعُ نــاقوسِ
وَضَجَّ فِي الدَيرِ كُــلُّ مُبتَهِــلٍ مُشَــفَّعٍ لَيلَــهُ بِتَقــديسِ[2]

---

(١) من روائع حضارتنا، (ص: ٨٣).

(٢) الديوان، (٢ / ٢٧١). دار المعارف.

ومن يقلب صفحات كتاب " الديارات " يجد الكثرة الكثيرة من هذه الديارات في بغداد، وفي البصرة، وغيرها من المدن الإسلامية، حتى وإن كان عبادها قد اتخذوا منها أماكن مجون ولهو وتسلية، فهي كانت موجودة لم تمد عليها يد قاسية من قبل المسلمين. وفى هذا المجون يقول ابن المعتز متمنيا إعادة ليلة لهو قضاها بدير السوسي. يقول:

يـــا لَيـــالِيَّ بـــالْمَطيرَةِ وَالكَـــرخِ وَديْرِ السُوسِيِّ باللَه عودي
كُنـــتِ عِنـــدي أنموذَجـــاتٍ مِنَ الجَنَّةِ لكنَّها بغَيرِ خُلـــودِ[١]

ومن مظاهر هذا التسامح أيضا، ترك أصحاب الديانات الأخـــرى يحتفلون بأعيادهم في حرية تامة، وليس ذلك فقط بل الاشتراك معهم فـــي هذه الاحتفالات، وتقديم التهاني لهم. ففي الاحتفال بعيد النيروز يقول ابـــن المعتز:

كيف ابتهاجك بالنيروز يا أملي فكل ما فيه يحكيني وأحكيه
نيرانه كاضطرام النار في كبدي ودمعتي كتوالي مائه فيـــه[٢]

وفي الاحتفال بعيد المهرجان يقول:

مهرجـــوا في الســـبت إن السبت يوم المهرجان
وخذوها مـــن عقـــار عتقت صفو الدنان [٣]

---

(١) الديوان، (٢ / ٢٤٧ م).
(٢) الديوان، (٢ / ٢٠٧ م).
(٣) الديوان، (٢ / ٣١٨م).

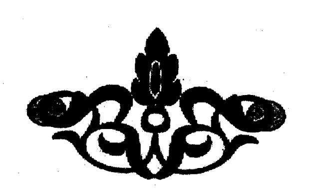
ومن هذا التسامح أيضا تأخير جمع الخراج حتـى ينتهـوا مـن أعيادهم مثلما فعـل الخليفـة المعتضـد فـي الاحتفـال بعيـد النيـروز سنة٢٨٢هـ.[١]

وفي هذا يقول ابن المعتز العباسي:

تَـأخيرُهُ الـنَيروزَ وَالخَراجـا وَلَـو أَرادَ أَخـذَهُ لَراجـا

تَكَرُّمًا منـهُ وَجـودًا شـامِلاً وَحَزمَ تَدبيرٍ وَحُكمًا عادِلا[٢]

وبعد، فهذا غيض من فيض تسامح الإسلام، فقد بقي الكثير والكثير الذي لم تسعفنا به النصوص الشعرية، حيث لا عد ولا حصر.



---

(١) تاريخ الطبري حوادث سنة ٢٨٢ هـ، (١١ / ٢٢٤- ٢٤٦).

(٢) الديوان، (٢ / ٥٥٧)، القسم الثاني. بغداد.

خامسا: الجهاد في الإسلام

لقد جاء العديد من النصوص الدينية في القرآن والسنة تحث المسلمين على الجهاد. فقد حرص الإسلام على أن يكون المسلمون على استعداد لمواجهة الباطل وقوى الإلحاد، مهما تكن التضحيات في النفس والأهل والمال، فالمواجهة بين الحق والباطل ضرورة مؤكدة.

" والجهاد في الإسلام مجرد من كل غاية أرضية، ومن كل دافع شخصي.. ليتمخض خالصا لله لتحقيق كلمة الله، وإقامة العدل ابتغاء رضوان الله، فإعداد القوة المادية والمعنوية أمر لابد منه للأمة الإسلامية.. والقوة المعنوية في الإسلام لها تأثيرها وأثرها، فالمجاهد له إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة".[١]

والدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري، كان لها من القوة برغم ما فيها من اضطرابات، وخاصة في عهد الخلفاء الأقوياء منهم كالمعتصم، والموفق، والمعتضد، والذين وقفوا في وجه الروم، ووجه جميع الثورات الخارجة على الدولة والدين.

والأمة المسلمة مطالبة أن تكون مستعدة للحرب على الدوام وتعد العدة له، كما قال جل شأنه " وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ.. " وفي الاستعداد للحرب في كل وقت حتى في أيام السلم، يبين لنا ابن المعتز

---

(١) أضواء على الحضارة، (ص: ١٨٢).

العباسي وهو يمدح المعتضد، كيف أنه وهو الخليفة المسلم كان يقود الجيش بنفسه حتى فرح الأعداء بالسلم معه، ودفعوا الخراج والجزية. وهـو فـي السلم يعد السلاح حتى يرهب أعداء يعلمهم ولا يعلمهم.

يقول ابن المعتز:

يَجعَلُ الجَيشَ إِذا صارَ ذَيـلاً   جُرأَةً فيهِ وَبَأسـاً صُـراحا
فَرَحَ الأَعداءُ بِالسـلمِ منـهُ   وَهوَ في السِلمِ يُعِدُّ السِلاحا
فَرَّقَت أَيديهِمُ المالَ كُرهـا   وَلَقَد كانوا عَلَيهِ شِحاحا[1]

والجيش الإسلامي في سبيل إعلاء كلمة الله، يقطع ربوع الأرض من مكان إلى آخر. يقول ابن المعتز:

وَسارَ مَسيرَ الشَمسِ لَم تَبقَ بَلدَةٌ   مِنَ الأَرضِ إِلّا نَحوَ أُخرى يُريدُها[2]

والمسلمون في جهادهم لا يهمهم سوى النصر أو الشـهادة. ففـي سبيل الله ترخص النفس وتهون الروح، فدماء الشهداء عندهم عطر الشباب والرجال، وسهام الأعداء في صدورهم أوسمة العزة والكمال.

يقول ابن المعتز:

وَفُرسانٍ يَرونَ القَتلَ غُنمًا   فَما لَهُمُ لَدَيهِ مِن بَراحِ[3]

أما من حيث الاستعداد للحرب في هذا العصر، فبجانب استخدامهم الأسلحة القديمة كالسيوف والسهام والنبال، فقد استحدثوا أسلحة جديدة مثل المجانيق. يقول ابن المعتز:

---

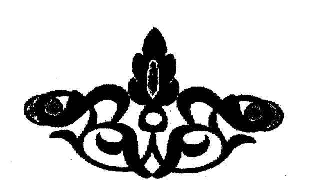
(١) الديوان، (ص : ١٤٦)، طبعة بيروت.

(٢) الديوان، (١ / ٢٤٨ م).

(٣) الديوان، (١ / ٢٢٤)، طبعة دار المعارف.

أين السيوف وأين النبل مرسلة   يصبن ما شئت من قرن وإن بعدا
أين المجانيق أمثال الفيـــول إذا   رمين حائط حصن قائم قعدا [١]

وبعد فهذه نبذة بسيطة عن الجهاد في الإسلام كمـــا ســمحت بهـــا النصوص الشعرية عند ابن المعتز.



(١) الديوان، (٢ / ٣٣١م).

سادسا: الدعوة إلى العمل

قال الله تعالى:" وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُه وَالْمُؤْمِنُونَ" فالعمل بوسائله وأنواعه أُمِرَ به المسلمون أمرا صريحا، وهذا العمل المأمور به سينظر إليه الله ورسوله والمؤمنون، والله عز وجل يجازي كل مسلم بعمله خيرا بخير وشرا بشر. وقد انفرد الإسلام بالدعوة إلى العمل؛ لأنه إذا كان العمل مفضلا لدى كل الناس فإنه بالنسبة للمسلمين دين يجازون عليه ويعاقبون على تركه أو التفريط فيه. ومن البديهي أن تقوم الدنيا كلها على العمل، وتنبني عليه، فبدون العمل لن يحصل الإنتاج وبدونه لن يعمر الكون وبالتالي لن يعيش الناس. وإلى هذا يذهب ابن المعتز، يحث على العمل ويحث على الإعداد له إذ أنه من الجهل أن نجلس ونظن أن الرزق يأتينا بدون تعب منا أو بدون أي جهد مبذول، يقول:

وقد كفتني من الدنيا مشارعها إلا ... ولى ولم يبق إلا الطرق والكـد
إذ لا نمد إلى الأشجار أيدينا ... جهلا ويسقط فى أفواهنا الثمر[1]

ونجد ابن المعتز أيضا يدعو إلى العمل والجد، لأننا ما خلقنا إلا لنعمل، بل ربط العمل بحياة الإنسان، فالإنسان الذي لا يعمل كالميت المقبور. ويجب بعد ذلك أن نترك آمالنا لقدر الله سبحانه وقضائه، يقول:

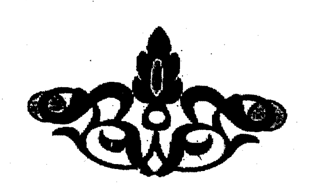
ألا شمر فإن الدهر ... ذو جد وتشمير

---

(١) الديوان، (٢ / ٣٩٦).

وعــرض أمــل الــنفس لأســـباب المقـــادير
فإن الحــي مــا لم يــك ذا ســـعى كمقبـــور
ومــا الصــبر إذا أمــك ن الصـــول بمعـــذور[1]

ومن هنا يتضح أن ابن المعتز قد أقر العمل في شعره، فيقر بذلك إحدى الدعائم التي قامت عليها الحضارة الإسلامية.



---

(١) الديوان، (٢ / ٣٩٨م).

سابعا: الشورى والنصيحة

الشورى مبدأ من المبادئ الأساسية التي كانت أساسا في قيام المجتمع الإسلامي، دعا إليها القرآن وطبقها رسول الله (ﷺ) في أعماله وحكمه ودعوته. يقول الله في معرض ثنائه على المؤمنين:" وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم "، ويقول في تعاليمه لنبيه:" وَشَاوِرْهُم فِي الْأَمْرِ".

وابن المعتز العباسي يقول شعرا يدعو فيه الإنسان إلى المشاورة. ففي المشاورة حل أو تخفيف هم، وضرب على ذلك مثلا رائعا بنهر الفرات الذي لا يستطيع أن يحمل ماء وحده فلابد أن يدفع به إلى كل نهر يتصل به. يقول:

تَجاوَزْ عنْ جِنايَةِ كُلِّ دَهْرِ وَصاحِبْ يَوْمَ حادِثَةٍ بِصَبْرِ
وَإنْ تَأْتِيكَ نائِبَةٌ فَشاوِرِ فَكَمْ حَمِدَ الْمُشاوِرُ غِبَّ أَمْرِ
وَقَسِّمْ هَمَّ نَفْسِكَ فِي نُفُوسِ وَلاَ تَتَفَرَّدَنَّ بِطُولِ فِكْر
إذا كُظَّ الفُراتُ بِماءِ مَزْنِ أَغَصَّ بِهِ حَلاَقِمِ كُلِّ نَهْرِ[١]

أما النصيحة فقد أوجبها الإسلام حتى لا يقدم أحد المسلمين على تصرفات خاطئة تضر به وبالمجتمع. فقد قال الرسول (ﷺ) في مجمل حديثه عن حقوق المسلم على المسلم:".. وإذا استنصحك فانصح له"، أي إذا طلب منك النصيحة. ويفهم من ذلك أيضا أنه لا يجب أن نفرض النصيحة بل يجب أن نقدمها لمن يطلبها ويتقبلها، يقول ابن المعتز في ذلك:

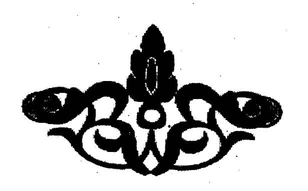
---

(١) الديوان، (٢ / ٣٩٩م).

لا تسمع النصح إلا من تقبله   عليك رأيك لي رأيي سيكفيني[١]

ويقول أيضا في هذا المعنى:

إذا لم يكن للرشد والنصح قابل   فسخطكم جهل ولؤمكم محك[٢]



---

(١) الديوان، (٢ /٣١١ م).

(٢) الديوان، (٢ / ٢٨٨م).

ثامنا: الرفق بالحيوان

لم تعرف حضارة من الحضارات قبل الحضارة الإسلامية، اهتمت بالحيوان والرفق به مثلما اهتمت به الحضارة الإسلامية، وقد ورد عن الرسول (ﷺ) الكثير من الأحاديث الصحيحة التي تدعو إلى الرفق بالحيوان والرحمة به.

ولكن البحث لم تسعفه النصوص الشعرية عند ابن المعتز ليبين هذا الهدف النبيل الذي سمت به حضارتنا الإسلامية فوق جميع الحضارات سابقها ولاحقها، اللهم إلا بيتان يتعاطف فيهما ابن المعتز مع قمري يبكي فيفجع ابن المعتز لبكائه، وتذرف الدموع على خديه تأثرا لحاله. يقول ابن المعتز:

ذُعِرتُ بِقُمرِيٍّ أَغَنَّ يَنوحُ ... عَشِيَّةَ رُحنا وَالدُموعُ سُفوحُ
تَفَجَّعَ نَحوي صَوتُهُ فَنَصَرتُهُ ... بِدَمعي وَأَنضاءُ المَطِيِّ جُنوحُ[1]



(١) الديوان، (ص: ١٢٤)، بيروت.



الفَصْلُ الثَّالِثُ

مَظَاهِرُ الحَضَارَةِ المَادِّيَّةِ فِي شِعْرِ ابْنِ المُعْتَزِّ

أولا: المباني والعمران

إذا كان تقدم الحضارات يقاس بما أنتجته من عمـــران، فـــإن الحضارة الإسلامية في القرن الثالث الهجري قد بلغت في ذلـــك شـــأوا عظيما. فهذا العصر قد اشتهر بكثرة العمران، ففيه تسابق الخلفاء فـــي بناء القصور التي تخلد ذكراهم وتمجدهم على صفحات التاريخ.

وإزاء هذه الحركة العمرانية الفذة لم يقـــف الشـــعر صـــامتا أخرس، ولكنه راح يتجول بين هذه القصور مبهورا بدقة صنعها ومـــا استحدث فيها، تشده إليها بما فيها من عظمة وإعجاز.

وابن المعتز العباسي من الشعراء المبدعين في فن التصوير لم يفته أن يصور لنا تلك النهضة العمرانية العملاقة، فإذا به يجعـــل مـــن شعره قصورا شامخات ذات حدائق فتانة، ويجعل من كلماتـــه أزهـــارا وورودا تشع منها رائحة عطر أخاذ.

ولنرى قصر (الثريا)[1] الذي بناه المعتضد شامخا في ديوانه ينطق بما فيه من إعجاز في البناء بحيث لم ير الناس له شبها من سالف الدهر. وصفه ابن المعتز بما فيه من جنان وأشجار، وجداول وأنهـــار،

---

(١) الثريا قصر كبير، يضم أبنية بناها المعتضد بالله لخلافتـــه (٢٧٩ – ٢٨٩ هـــ) قرب قصر التاج ببغداد الشرقية وعمل بينهما سردابا تمشى فيـــه حظايـــاه مـــن القصـــر الحسنى. عفى أثر الثريا في سنة ٤٦٦هـــ) راجع: رسوم دار الخلافة (ص: ٧) معجـــم البلدان (١ / ٧٧) مادة الثريا.

وميادين لسباق الخيل، وأخرى للحيوانات الأخرى. ولنترك القصيدة تتحدث هي عن روعة هذا القصر. يقول ابن المعتز:

حَلَلتَ الثُريّا خَيرَ دارٍ وَمَنزِلٍ ... فَلا زالَ مَعمورًا وَبورِكَ مِن قَصرِ
فَلَيسَ لَهُ فيما بَنى النّاسُ مُشبِهٌ ... وَلا ما بَناهُ الجِنُّ في سالِفِ الدَهرِ
وَما زالَ يَرعاهُ الإِمامُ بِرَأيِهِ ... وَبِالعِزِّ وَالتَقديمِ وَالنَهيِ وَالأَمرِ
فَتَمَّ فَما في الحُسنِ شَيءٌ يَزيدُهُ ... لِسانٌ وَلا قَلبٌ بِقَولٍ وَلا فِكرِ
سَيُثني عَلَيهِ مِن مَحاسِنِ قَصرِهِ ... مَدائِحُ لَيسَت مِن كَلامٍ وَلا شِعرِ
جِنانٌ وَأَشجارٌ تَلاقَت غُصونُها ... فَأَورَقنَ بِالأَثمارِ وَالوَرَقِ الخُضرِ
تَرى الطَيرَ في أَغصانِهِنَّ هَواتِفًا ... تَنَقَّلُ مِن وَكرٍ لَهُنَّ إِلى وَكرِ
هَجَرتَ سِواها كُلَّ دارٍ عَرَفتَها ... وَحُقَّ لِدارٍ غَيرِ دارِكَ بِالهَجرِ
وَبُنيانُ قَصرٍ قَد عَلَت شُرُفاتُهُ ... كَصَفٍّ نِساءٍ قَد تَرَبَّعنَ في الأُزرِ
وَأَنهارُ ماءٍ كَالسَلاسِلِ فُجِّرَت ... لِتُرضِعَ أَولادَ الرَياحينِ وَالزَهرِ
إِذا ما رَأَت ماءَ الثُرَيّا وَنَبتَهُ ... نَسينَ وَثوبَ الكَلبِ فيهِنَّ وَالصَقرِ[1]

ثم نراه يصف هذا القصر في موضع آخر، موضحا ما يحتوي عليه هذا القصر من عجائب وغرائب يدهش لها العقل. يقول:

---

(١) الديوان، (١ / ٤٣٤ – ٤٣٦) طبعة بغداد، (٤٧٧/١ –٤٧٨) طبعة دار المعارف.

وَلا بَنى بانِ مِنَ الخَلائِفِ ... وَلا مُلوكِ الرومِ وَالطَوائِفِ

كَما بَنى مِن أَعجَبِ البِناءِ ... لا زالَ فينا دائِمَ البَقاءِ

فَرَجَعَت كَعادَةٍ كَعابِ ... تَقَرُّ فيها أَعيُنُ الأَحبابِ

فَمَن رَأى مِثلَ الثرَيا قَصرًا ... كَم حِكمَةٍ فيهِ تُخالُ سِحرا

وَالنَهرَ وَالبُستانَ وَالبُحَيرَه[1] ... قَد جَمَعَ الماءُ إِلَيها طَيرَه

وَلِلبُزاةِ مَعَها وَقائِعُ ... فَغائِصٌ في جَوفِها وَواقِعُ

وَبَعضُها يُذبَحُ في الأَكُفِّ ... مَأسورَةٌ قَد رُمِيَت بِحَتفِ

وَما رَأى الراؤونَ مِثلَ الشَجَرَه[2] ... ذاتَ غُصونٍ مورِقاتٍ مُثمِرَه

---

(١) جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي، (٣٧٢) قال ابن حمدون النديم: غرم المعتضد على عمارة البحيرة ستين ألف دينار، وكان يخلو فيها مع جواريه وفيهن محبوبته دريرة فقال ابن بسام:

ترك الناس بحيرة ... وتخلى في البحيرة

قاعدًا يضرب بالطـ ... بل على حر دريره

فبلغ ذلك المعتضد فلم يظهر أنه بلغه، ثم أمر بتخريب تلك العمارات ثم ماتت دريرة فى أيام المعتضد فجزع عليها جزعا شديدا.انظر أيضا: معجم الأدباء (١٤ / ١٤٣).

(٢) الشجرة: جاء في تاريخ بغداد (١ / ١٠٢) وفي معرض الكلام على استقبال المقتدر ابن المعتضد لوفد رومي:" ولما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها كثر تعجبه منها، وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم، عليها أطيار مصنوعة من الفضة تصفر بحركات قد جعلت لها، فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده وجاء في (ص: ١٠٣) من المصدر نفسه: ثم أخرجوا من هذه الدار إلى دار الشجرة، وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة مدورة فيها ماء صاف وللشجرة ثمانية عشر غصنا لكل غصن منها شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة وأكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها ذهب. وهي تتمايل في أوقات ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كلما تحرك الريح ورق الشجر.

وَلَم تَكُن غَرسًا تُرابُهُ الثَّــراء وَلَم تَكُن مِن شَجَرٍ يُسقى بِماء
لَكِنَّها تُخبِـرُ عَــن حَكـيمِ مُوَفَّـــقٍ مُجَــرِّبٍ عَلــيمِ
كَأَنَّها مِن شَــجَراتِ الجَنَّــه أَنزَلَهــا إِلَهُنــا ذو المِنَّــه
وَالقُبَّةُ العَليــاءُ وَالأُترُجَّــه[1] مَلَكَ فيهــا أَربَعــينَ حِجَّــه
وَبِالزُبَيــداتِ فَــلا تَنســاها قُرَّةُ عَينِ كُــلِّ مَــن رَآهــا[2]

هذه المناظر البديعة التي تزين قصر الثريا ولاسيما الشـجرة التي لم تغرس في أرض ولم تسق بماء، فهي شجرة ذات أغصان لكـل غصن فيها فروع عليها الطيور والعصافير مذهبة ومفضضـة، وهـذه القبة العلياء والأترجة. مما يخبر عن حضارة عمرانية فذة.

ولم يتوقف ابن المعتز عند قصور المعتضد فقط، بل وصـف قصورا لخلفاء آخرين في عصره، فهو يذكرنا بقصور الخليفة المعتمـد والتي منها التل والأحمدي والمعشوق والجوسق. يقول:

---

(١) جاء في الحضارة الإسلامية لآدم متز (٢/ ٢٠٩) وفي معرض الكلام على قصور الخلفاء العباسيين:" وكان قصر الخلافة يشتمل على دور وبسـاتين ومسـطحات مظللـة بالأشجار وعلى قباب وأروقة وكانت تزيد في جماله البرك والأنهار الجارية. وكان مـن بين القباب قبة الأترجة وقبة الحمار"، وفي الهامش قبة الحمار: وهي التي يقصدها ابـن المعتز بقوله (والقبة العلياء.. ويقال إنها سميت بذلك لأن الخليفة كان يستطيع أن يصـعد إلى أعلاها راكبا حمار).

(٢) الديوان، (جـ١، ص: ٥٦٠ إلى ٥٦٢) طبعة بغداد.

والتل والبستان قد بسـطت خضراؤه وأنـاف جوسـقه
لمـا أتـاه بـه مبشـره ما كاد من فـرح يصـدقه
والأحمـدي إليـه منتسـب من قبل والمعشوق يعشقه[١]

ونراه يذكرنا أيضا بقصري (التل وعرفات)[٢] التـي بناهـا المعتصم (بسر من رأى) حتى بعد أن وقعت عليهما يد البلى. يقول:

قد شهدنا عرفات ببطون جائعات ورأينا التل والخندق قفر العرصات[٣]

ولم يقتصر ابن المعتز على وصف قصور الخلفاء، فهو شاعر يعشق الجمال، فيصف كل ما تقع عليه عيناه يقول في قصر بسطام:

سَلامٌ عَلى غَيرِ الدِيارِ البَسـابِسِ وَدِمنَـةِ رَبـعٍ قَـد تَغَيَّـرَ دارِسِ
وَهَبتُ سَلامي ما حَيِيتُ لَمَجلِسٍ عَلى قَصرِ بِسطامٍ أَميرِ المَجـالِسِ
يُطِلُّ عَلـى رَوضٍ أَنيـقٍ كَأَنَّـهُ مَقارِمُ خُضرٍ فَوقَ فُرشِ عَرائِسِ[٤]

---

(١) الديوان ، (٢ / ٥٠٠) طبعة دار المعارف .

(٢) أ- قصر التل: وهو قصر فوق تل اصطناعي مخروطي الشكل يعرف محليا (بتل العليق) عن سمراء في أدب القرن الثالث الهجري، (ص:٢٩٩) يونس أحمد السامرائي.

ب- قصر عرفات: يبدو أن المعتصم حين اتخذ سامراء عاصمة له، حاول أن يكون مـن الأتراك طبقة خاصة فاعتمد عليهم وكون منهم جيشه وأسكنهم في قطائع خاصـة ومنـع الاتصال بهم أو التزوج منهم، ويبدو أنه حاول أن يبني له إيوانات في البرية ولعلها التـي ورد ذكرها في الشعر باسم عرفات وقد جاء ذكرها في شعر محمد بن عبد الملك الزيات. (سامراء في أدب القرن الثالث الهجري، (ص: ٢٢٧ - ٢٢٨).

(٣) الديوان، (٢ / ٥٢٥) طبعة بغداد.

(٤) الديوان، (٢ / ٢٧٥) طبعة دار المعارف، (٢ / ٥٢٥) طبعة بغداد، والقـرام ثوب من صوف فيه ألوان من العهن وهو صفيق يتخذ سترا، وقيل: هو السـتر الرقيـق والجمع قرم وهو المقرمة والمقرمة محبس الفراش.

ولقد اتخذ الناس وخاصة الأغنياء منهم، وسائل للتبريد والتهوية في بيوتهم أيام الصيف، منها السراديب - واحـدها: سـرداب، فسـره القاموس بأنه بناء تحت الأرض للصيف. ولقد غالى الناس بالعناية بها لتكون مريحة في الصيف.[١]

وكان أهل الترف في ذلك العصر يستعيضـون عـن دخـول السراديب بنصب قبة من الخيش أو بيت من الخيش المبلـل بالمـاء[٢]. يقول ابن المعتز وهو يوصى بلزوم البيت في فصل الصيف:

والزم البيت وامزج الراح بالثلج واطف بالخيش نار الهجير[٣]

أما عن مواد البناء فكانوا يستخدمون الصخر والجص والآجر وخشب الساج. يقول ابن المعتز في استخدام خشب الساج وهـو يشـبه فرسه:

فهو مبني كقصر منيف تحته عيدان ساج وصخر[٤]

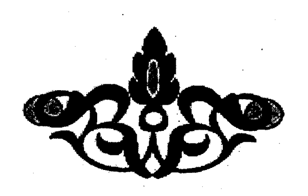
ولم يتركنا ابن المعتز نتخيل أن جميع الناس خاصتهم وعامتهم كانوا يسكنون القصور، ولكنه بين لنا أن هناك أناس كانوا يشتكون من ضيق السكن فيقول:

يـا رُبَّ بَيـتٍ زُرتُـهُ فَكَأَنَّمـا قَد ضَمَّني مِـن ضِـيقِهِ سِـجنُ
لَم يُحسِنِ الرُمّانُ يَجمَـعُ حَبَّـهُ في قِشـرِهِ إِلّـا كَمـا نَحـنُ[٥]

---

(١) صورة مشرقة من صور الحضارة، (ص: ١٨).
(٢) الحضارة الإسلامية: آدم ميتز، (١ / ٢٠٥).
(٣) الديوان، (٢ / ٢٦٤)، طبعة دار المعارف.
(٤) الديوان، (١ / ٢٦٥) طبعة دار المعارف.
(٥) الديوان، (٢ / ٢٠٦)، طبعة دار المعارف.

وهكذا بين لنا ابن المعتز كيف حفلت بغداد وغيرها من أمهات البلدان الإسلامية، أيام ازدهار الحضارة الإسلامية فيها بعدد كبير مــن القصور الشامخة والدور الفخمة والعمارات الفسيحة، ظل أمرها أحدوثة الزمان.



ثانيا: منافع وخدمات الدولة

لقد اهتم الخلفاء بالعديد من المصالح والخدمات التي تهم الرعية وتعود عليهم بالخير. " ومن هذه الخدمات الاهتمام بالطبابة وبناء المستشفيات حيث حبست عليها الأوقاف الدارة ودرب فيها الأطباء المهرة، والصيادلة والفراشون وغيرهم. كما جهزت بالأدوية والأشربة، ووسائل الرفاهية والراحة والتسلية لتخفف عن المرضى آلامهم وأسقامهم"[١]. ولعلنا في هذا الموضع نستطيع أن نستشف بعض مظاهر هذا التقدم من خلال شعر ابن المعتز:

فيصف لنا ابن المعتز عملية جراحية أجريت للخليفة المعتضد، وهى عملية " الفصد " – والفصد : هو شق العرق وقطعه – يقول:

يا دما فاض من ذراع الإمام	**أنت أذكى من عنبر ومدام**
قد ظنناك إذ خرجت إلى الطست	**دموعا من مقلتي مستهام**
إنما غوص الطبيب شبا المبضع	**في نفس ملحة الإسلام[٢]**

ثم نجده في أبيات أخرى يبين مدى صعوبة هذه العملية حتى أنها أصعب من كسر الحديد وتشكيله. يقول:

ليس ما حل بالحديد من الكسر	**وتثليم خده بعجيب**
عجبي إذا مددت للفصد كفا	**كيف لم ينصدع فؤاد الطبيب[٣]**

---

(١) صورة مشرقة من الحضارة، بغداد. (ص: ١١٠).

(٢) الديوان، (١ / ٥٠٨) طبعة دار المعارف.

(٣) نفسه، (٢ / ١٥٧).

ثم نجد ابن المعتز أيضا يستخدم " تجبير الكسور " في بعض تشبيهاته. فيقول:

والنوى كالضلع الكسيرة   لم تقومها الجبائر[١]

ثم يصف لنا بعض الوصفات الطبية والتي وصفت له عند إصابته بالحمى. يقول:

ولكن عندي الحمى   وطول الهم والفكر
وشرب بعقاقير   دواء طعمه مر
وأكل الخل والزيت   عليه الورق الخضر[٢]

ومن الخدمات التي اهتمت بها الدولة أيضا(مصلحة البريد) "وكان البريد في يد الحكومة في بداية الخلافة ثم أصبح تحت تصرف الشعب في الأزمنة التالية وكانت رسائل البريد تشحن عن طريق السفن البريدية، أو الإبل المهرية أو البغال تبعا للبلاد "[٣]

أما عن مظاهر هذا الاهتمام في شعر ابن المعتز، فلم نجد في شعره إلا بيتين ذكر فيهما البريد الذي يحمل نبأ عزل أحمد بن طولون عن الولاية. يقول:

---

(١) الديوان، (٢ / ٣٤١)، طبعة دار المعارف.

(٢) نفسه، (٢ / ١٧٧).

(٣) الحضارة الإسلامية: جاك. ر. بسلر، (ص: ١٣٤).

كَـــم تائـــه بولايَـــة وَبِعَزلــه يَعــدو البَريــد
سُكرُ الوِلايَــة طَيِّــبٌ وَخُمارُها صَعِقٌ شَــديد[١]

ومن المنافع الهامة الحمامات التي كانت توجد في بغداد حتـى قيل:" إنه كان في الجانب الشرقي من بغداد وحده فـي القـرن الثالـث الهجري خمسة آلاف حمام"[٢]، وابن المعتز تحدث عن هذه الحمامـات في غير موضع من شعره، ولكن يبدو أنه كان يذمها في أكثر الأحيان. يقول:

ما هو بالحمــام حــرا ولا يصلح فيه غــير تبريــد مــاء
وجدت في الصيف به رعدة فكيف أرجو عرقا في الشتاء[٣]

ويقول فيها أيضا:

حَمّامُنا كَعَجــوزٍ يَشقى بِهِ الــوارِدُ
فَبَيتٌ لَــهُ مُنــتِنٌ وَبَيتٌ لَهُ بــارِدُ[٤]

ويقول أيضا:

يا مُدخِلَ الصُلعِ حَمّامًا يَزيدُهُمُ بطولِ مُكثِهِمُ في جَوفِهِ وَسَــخا
حَتّى إِذا عَرِقوا مِن حَرِّهِ خَرَجوا وَكُلُّهُم بِخُلوفٍ مِنهُ قَد لُطِخا[٥]

---

(١) الديوان، (٢ / ٤٤١)، طبعة دار المعارف.
(٢) جغرافية اليعقوبي، (ص: ٢٥٤).
(٣) الديوان، (٢ / ١٥٠). طبعة دار المعارف.
(٤) نفسه، (٢ / ١٧٢).
(٥) نفسه، (٢ / ٤٣٩).

ومن الخدمات الهامة في الدولة كذلك الشرطة، " وكان للشرطة العباسية مكان خاص بهم يسمى (مجلس الشرطة)، وكانت العقوبات تنفذ في رحبة هذا المجلس أحيانا، فيجتمع العامة لحضورها وبخاصة إذا كان المعاقب مشهورا أو معلوما لدى الجمهور... وفى نهاية هذا العصر أعطيت للشرطة وصاحبها سلطات وصلاحيات جديدة فأخرجت من صيغتها التنفيذية الصرفة. فلقد أصبح لصاحب الشرطة حق إصدار الأحكام القضائية في الجرائم وإيقاع العقوبات مباشرة "[١]

أما عن الشرطة في شعر ابن المعتز، فنجده يصف لنا أحوال الشرطة والأساليب الانتهازية التي كانت تتبع بعد أن فسدت الأحوال السياسية أو في حالة الضعف السياسي. فأصحاب الشرطة راحوا يجمعون المال بشتى الطرق. حرامه أكثر من حلاله. وفى هذا يبين لنا ابن المعتز في أرجوزته التاريخية المشهورة فيقول عن تعسف الشرطة في عهد الوزير أبو الصقر إسماعيل بن بلبل[٢]

يَأخُذُ من هَذا الشَقِيِّ ضَيعَتَه ... وَذا يُرِيدُ ما لَهُ وَحُرْمَتَه
وَوَيلُ مَن ماتَ أبوهُ موسِرا ... ألَيسَ هَذا مُحكَمًا مُشَمِّرا
وَطالَ في دارِ البَلاءِ سَجنُهُ ... وَقالَ مَن يَدري بأنَّكَ ابْنُهُ
فَقالَ جيراني وَمَن يَعرِفُني ... فَنَتَفوا سِبالَهُ حَتّى فَني
وَأسرَفوا في لَكمِهِ وَدَفعِهِ ... وَخدرَت أكُفُّهُم في صَفعِهِ

---

(١) البغداديون أيام زمان: راسم الجميلي، (١ / ٢٦٧).

(٢) هو أبو الصقر إسماعيل بن بلبل استوزره الموفق لأخيه المعتمد سنة ٢٦٥ هـ، ثم قبض عليه المعتمد وحبس وعاقبه ثم قتله في محبسه واستصفى أمواله. (الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقى، ص:٢٥٢ -٢٥٣).

وَلَم يَزَل في أضيَقِ الحُبـوسِ	حَتّى رَمـى إِلَيهِمُ بِـالكيسِ
وَتـاجِرٍ ذي جَـوهَرٍ وَمـالِ	كانَ مِنَ اللَهِ بِأحسَـنِ حـالِ
قيلَ لَـهُ: عِنـدَكَ لِلسُلطانِ	وَدائِـعٌ غالِيَـةُ الأَثمـانِ
فَقالَ: لا وَاللَهِ ما عِندي لَـهُ	صَـغيرَةٌ مِـن ذا وَلا جَليلَـه
وَإِنَّما رَبِحـتُ في التِجـارَه	وَلَم أَكُن في المالِ ذا خَسـارَه
فَـدَخَّنوهُ بِـدُخانِ الـتِبنِ	وَأَوقَـدوهُ بِثِقـالِ اللَـبِنِ
حَتّى إِذا مَلَّ الحَيـاةَ وَضَـجِر	وَقالَ: لَيتَ المالَ جَميعًا في سَقَر
أَعطاهُمُ ما طَلَبـوا فَأُطلِقـا	يَستَثقِلُ المَشيَ وَيَمشي العَنَقا[1]

والمزدوجة مليئة بهذه الأساليب الإجرامية في الانتهاز. فالشرطة بعد أن تخلت عن وظيفتها الرسمية راحت تنهب الأموال من كل ذي مال بشتى الطرق، يقبضون عليه ويضعونه في السجن ويستخدمون معه أقسى أساليب التعذيب من وضع الحبال في يده ورجليه ومن تعليقه في الجدار ومن نتف شعره إلى صب الزيت المغلي عليه حتى يتخلى عن جميع أمواله وبعد أن يستكتبوه يشهدوا أنه تنازل عن ماله برضاه ثم يطلقوا سراحه. ولكن لما تولى المعتضد بالله الخلافة عاد الأمن والأمان للدولة من جديد كما يقول ابن المعتز:

فَالآنَ زالَ كُلُّ ذاكَ أَجمَعُ　　وَأَصبَحَ الجَورُ بِعَدلٍ يُقمَعُ[2]

كما أن الأمر لا يخلو أيضا من وجود بعض أصحاب الشرطة العادلين وقد كتب عبد الله بن المعتز إلى عبيد الله بن عبد الله بن

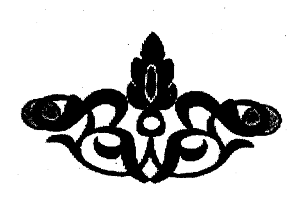
---

(١) الديوان، (١ / ٥٣٨ – ٥٣٩)، طبعة بغداد.

(٢) نفسه، (١ / ٥٦٠).

طاهر[1] وقد استخلف مؤنس ابنه محمد بن عبد الله على الشرطة ببغداد مهنئا:

فَرِحْتُ بما أضعَافُهُ دون قَدْركمْ	وقلتُ: عَسى قد هَبَّ من نومه الدهرُ
فترجعُ فينـــا دَولـــةٌ طاهِرِيَّـــة	كما بدَأت والأمرُ من بعـــده الأمـــرُ
عسى الله إنّ الله ليسَ بغافِـــلٍ	ولابدَّ من يُسْرٍ إذا ما انتهى العُسْرُ[2]



---

(١) عبيد الله بن عبد الله بن طاهر (٢٢٣ - ٣٠٠ هـ)، أمير الأدباء الشـعراء ولـي الشرطة بغداد، ومولده ووفاته. وكان مهيب رفيع المنزلة عند المعتضد، له براعـة فـي الهندسة والموسيقى، حسن الترسل وله تصانيف، وكانت له مراسلات مع ابن المعتز.(عن الأعلام ٤ / ٣٥٠).

مؤنس الخادم (٢٣١ - ٣٢١ هـ): الملقب بالمظفر المعتضدي: أحد الخدام الذين بلغـوا مرتبة الملوك، كان من خدم المعتضد، وكان أبيض فارسا شجاعا من الساسة الدهاة بقـي ستين سنة أميرا، وندب الحرب المغاربة العبيديين وولي دمشق للمقتدر ثم حاربـه وقتـل المقتدر وخلفه القاهر بالله فلما تمكن القاهرة قتله (الأعلام: ٨ / ٢٩٢).

(٢) الأغاني، (١٠ / ٢٨٦)، دار الكتب.

ثالثا: المهن والحرف

كانت بغداد في العصور السالفة منبتا لطائفة كبيرة من أنــواع الصناعات وضروب الفنون، وقد نمت وازدهرت وطارت شهرتها فــي ديار المشرق والمغرب مدى عصور عديدة.

ونرى ابن المعتز في هذا الموضع يستخدم فــي شــعره مــن الإشارات والتشبيهات التي تدل على الكثير من هذه الصناعات. فيشــير في شعره إلى صناعة الحلي والصواغة. يقول في حديثه عن الخمر:

فأخرجَ بالمِبزالِ منها سبيكةً   كما فتلَ الصواغُ خَلخالَهُ فَتلا[١]

وكذلك نالت صناعة العطور والدهون والطيــب والمعــاجين ونحوها عناية كبيرة من أئمة المؤلفين والعلماء والأطباء".[٢]

وكذلك تفنن القوم ببغداد في صناعة النجارة فصنعوا ضروب الآلات وكثيرا من آلات البيت[٣]

وعن صناعة العطور وصناعة النجارة يشير ابن المعتز فــي بعض تشبيهاته:

يا مسكَةَ العَطّــارِ   وَخالَ وَجهِ النَهارِ
وَلَعبَةً أحكَمَتــها   عِنايَةُ النَجــارِ[٤]

---

(١) الديوان، (٢ / ٢٩٣)، طبعة دار المعارف.
(٢) صورة مشرقة من حضارة بغداد، (ص: ٣٤).
(٣) نفسه، (ص: ٢٤).
(٤) الديوان، (٢ / ١٨٠)، طبعة دار المعارف.

" وكذلك تفنن العراقيون في صناعة الزجاج، فقد صنع البللور المصفى لأول مرة.. كما يتصدر الخزف العباسي المحلى بزخارف ذات بريق معدني المكانة بين زخارف العالم"(١) ويشير ابن المعتز إلى الصناعات الخزفية التي تقدمت في هذا العصر فيقول، في حديثه عن الكرم:

فَلَمَّا تَدَلَّت كَالثُدَيِّ وَأَصبَحَت عَلى القَصَبِ المَعروشِ مُنبَعِثاتِ
أُضيفَت إِلى قارِيَةٍ خَزَفِيَّةٍ مُصَبَّغَةٍ بِالطينِ مُعتَجِراتِ(٢)

وأما عن ضرب النقود " فلقد ضربت بغداد المدورة بعد أن انتهى أبو جعفر المنصور من بنائها في مكان أطلق عليه دار الضرب. وقد انتشرت دور الضرب ببغداد الغربية والشرقية في خلافة العباسيين ومن جاء بعدهم وكان يطلق عليها أيضا دور الصرف".(٣)

وعن هذه الصناعة يشير ابن المعتز في بعض تشبيهاته:

وكأنّ الشّمسَ المُنيرةَ دينا رٌ جَلَته حَدَائدُ الضُرَّاب(٤)

ويبدو أنه كانت هناك عملة ورقية وهذا ما يفهم من قول ابن المعتز:

ما زِلتُ أَنتقدُ الوُجوهَ بِنَظرَتِي نَقدَ الصَيارِفِ جَيِّدَ الأوراقِ(٥)

---

(١) الحضارة الإسلامية: جاك. س رمسيس.
(٢) الأغاني، (١٠ / ٢٨٦)، دار الكتب.
(٣) البغداديون راسم الجميلي، (١ / ١٦).
(٤) الديوان، (٢ / ٢٥٥)، طبعة دار المعارف.
(٥) الديوان، (١ / ٣٩٦)، طبعة دار المعارف.

كما أشار في أحد تشبيهاته إلى وجود بعض العملات المزيفة.

يقول:

كأنَّ نجومَ الليلِ في حجراتها   دراهمٌ زيف لم يجزن على النقدِ[١]

" ولصناعة الحياكة والنسيج وما يدخل في هذا الباب الصدارة بين كثير من الصناعات والفنون التي اشتهرت بها بغداد في عصورها الزاهرة أيام بنى العباس، وكان النساج في العراق ينسجون الثياب من القطن والحرير والصوف والكتان ويتفننون في صنعها".[٢] وعن صناعه حلج القطن يشير ابن المعتز وهو يصف فرسه:

أضْيَعُ شيْءٍ سَوْطُهُ إذْ تَرْكَبُهُ   تخاله والنقع يعلو أصهبه

كالقطن المندوف طار عطبه   وَالْجرْيُ يَرْمِي ماءَهُ وَيَحْلبُهُ[٣]

ويقول أيضا:

ضَمِنَ اللقاءَ رَواحُ ناجيَةٍ   مَقذوفَةٍ بالنَحض كَالرَعِنِ

زَبَدُ اللُغامِ يَطيرُ من فَمِها   نَفضَ النَوادِفِ ناعِمَ القُطنِ[٤]

أما عن صناعة نسج الملابس، فنراه يشير إلى نسيج الدروع[٥] وهو يصف أحد سقاة الخمر:

---

(١) الديوان، (٢ / ٦١)، طبعة دار المعارف.

(٢) صورة مشرقة، (ص: ٣٨).

(٣) الديوان، (٢ / ١٥٨)، طبعة دار المعارف.

(٤) نفسه، (١ / ٢٩٠).

(٥) الدروع والدرايع جمع دراعة: جبة مشقوقة المقدم تعمل من الديباج أو الديبقى أو الصوف يلبسها الرجل كما تلبسها المرأة. صور مشرقة، (ص : ٤٥) .

له شعر مثل نسج الدروع وطرف سقيم إذا مارنا[1]

وإلى صناعة الحبال يشير ابن المعتز في إحدى تشبيهاته. يقول في وصف حاله الفراق بعض منازله:

وفى القلب منى حسرة لفراقه يلازمه كرب لها غير منجلى

كقوة حبل ما يفـــارق قـــوة أجادها كف الصناع المفتل[2]

" وأدى انتشار التعليم وإقبال الناس على اقتناء الكتب إلى قيام سوق واسعة لها. وذكر أنه كان في بغداد في القرن الثالـــث الهجـــري سوق للوراقين كان فيه أكثر من مائة حانوت".[3]

وكان الوراقون ينسخون بناء لطلب زبائنهم ومنهم مـــن يقـــوم بنسخ الكتب الرائجة".[4]

ولقد أشار ابن المعتز إلى هذه المهنة:

كأن الندامى حين كظوا بشربه محابر وراقين قد ملئت حبر[5]

" كما انتشر البقالون في بغداد في حوانيتهم الصغيرة، وعنـــد إخراج الأسواق من مدينة المنصور إلى الكرخ أبقى الخليفة حانوتا في كل ربع من أرباع المدينة على ألا يبيع إلا الخل والبقل وحده.. وقـــام البقالون في محلات بغداد بالقرب من منازل الناس ومـــنهم مـــن كـــان

---

(١) الديوان، (١ / ٢١٧) طبعة دار المعارف.

(٢) الديوان، (٢ / ٢٨٩)، طبعة دار المعارف. (٢ / ١٩٥)، طبعة بغداد.

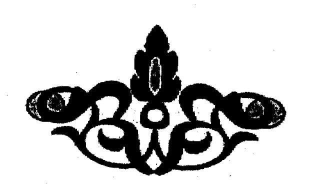
(٣) تاريخ بغداد، (٢ / ٢٨٩).

(٤) العامة في بغداد، فهمي عبد الرازق سعد، (ص: ١٥٨).

(٥) الديوان، (٢ / ٢٦٣)، طبعة دار المعارف.

يتجول بين الأحياء ليبيع سلعته ".[1] يقول ابن المعتز عن زواج البقال من شريرة:

زوجوا ويلهم شريرة بالبـــــ	قال يا حســنها ويــا قــبح بعلــي
سبح الناس إذ رأوا درة الملك	مع البــيض عنــد صــاحب بقــل
قلت ما كان مهرهــا ؟ قيــل	من بسر ومن كامخ وزيت وخل[2]



(١) العامة في بغداد، (ص: ١٤٤ - ١٤٥).
(٢) الديوان، (٢ / ٤٦٠)، طبعة دار المعارف.

رابعا: الملابس

شأن اللباس والثياب والأزياء ببغداد في العصر العباسي شأن جدير بالعناية والدرس، لما فيه من الفوائد والطرائف. فقد تعددت الأزياء، وكان لكل صنف من الناس زي خاص يتميزون به.

وقد أشار ابن المعتز إلى العديد من أنواع الملابس في شعره فيشير إلى (القباء) – وهو لباس أسود أو بنفسجي يصل إلى الركبة وكان يلبسه الخلفاء[1] يقول في مدح المكتفي:

مـا رَأَت عَـيني كَظَـبيٍ زارَني في يَـومِ عيـدِ
في قَبـاءٍ فـاختِيِّ الـ ـلَونِ مِن لُـبسٍ جَديـدِ[2]

ويقول أيضا:

فَأَدَرْنا رَحَى السُّرُورِ فَـدارتْ بِحَـرامٍ مُشَـبَّهٍ بـالْحَلالِ
من يدي عسكرية الزى تمشى في قباء مشمر الأذيـال[3]

وأشار ابن المعتز إلى لباس (الطيلسان) – وهو لباس أخضر، لحمته وسداه من صوف يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ والقضاة، جمعه الطيالسة[4] يقول ابن المعتز في وصف ناقته:

---

(١) صور مشرقة، (ص: ٤٢).
(٢) الديوان، (١ / ٤٧٤)، طبعة دار المعارف.
(٣) نفسه، (٢ / ٢٩٧).
(٤) صور مشرقة، (ص: ٤٣).

مَلَأَت دلاءَ تَستَقلّ بحَملهـا ... قُدّامَ كَلكَلِها كَصُغرى الحَنظَلِ
وَغَدَت كَجُلمودِ القِذافِ يُقِلُّها ... وافٍ كَمِثلِ الطَيلَسانِ المُخمَلِ(١)

كما أشار ابن المعتز إلى لبس الدروع. فيقول:

لَهُ شَعَرٌ مثلُ نَسجِ الدُروعِ ... وَطَرفٌ سَقيمٌ إذا ما رَنا(٢)

كما كان من الرسوم المتبعة عند دخول الناس على الخلفاء وعلى الأمراء وعلى السادة والعظماء، أن يدخلوا وهم معممين " لأن ذلك أشبه بالاحتفال وبالتعظيم والإجلال، وأبعد من التبذل والاسترسال وأجدر أن يفصلوا بين أنسهم في منازلهم ومواضع انقباضهم".(٣)

ويبدو أن الوزراء والأمراء كانوا يلبسون عمامة سوداء. يقول ابن المعتز عن بدر المعتضدي – أحد قادة جيش المعتضد:

ملأ النفوس مهابةً ومحبةً ... بدرٌ بدا متعممًا بسواد(٤)

كما أشار ابن المعتز إلى (الإزار) وهو لباس كان يلبسه الزنوج. يقول في أحد تشبيهاته عن الكرم:

ظَلَّتْ عَناقيدُها يَخرُجنَ في وَرَقٍ ... كَما اختَبأَ الزِنجُ في خُضرٍ مِنَ الأُزُرِ(٥)

ثم يشير إلى لباس (الديباج)، وهو ثوب سداه ولحمته حرير يقول وهو يصف فرسه:

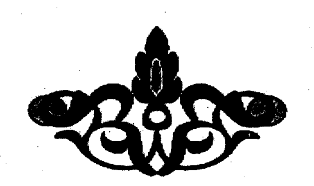
---

(١) الديوان، (ص: ٣٢٤)، بيروت.
(٢) الديوان، (١ / ٢١٧)، دار المعارف.
(٣) البيان والتبيين للجاحظ، (٣ / ٧٧)، تحقيق السندوبي.
(٤) الديوان، (١ / ٤٧١)، طبعة دار المعارف .
(٥) الديوان، (٢ / ٢٠١)، طبعة دار المعارف .

وَإذا بَدا تَحتَ الرِحالِ حَسِبتَهُ مُتسَربِلاً ثَوباً مِنَ الديباجِ[١]

كما أشار إلى اللباس (المعصفر)، يقول في غزله:

يا عاذِلي كَم لَحاكَ اللَهُ تَلحاني في حب بَدرٍ عَلى غُصنٍ مِنَ البانِ
قَد مَرَّ بي وَهوَ يَمشي في مُعَصفَرَةٍ عَشيَّةً وَسَقاني ثُمَّ حَيّاني[٢]



---

(١) الديوان، (ص: ١١٧)، بيروت.

(٢) الديوان، (١ / ٤٢٦)، طبعة دار المعارف.

خامسا: الأطعمة

أما من ناحية الأطعمة " فقد نال فن الطبخ عناية كبيرة من جانب المؤلفين حتى نجد أبا الحسن على بن هارون المعروف بالمنجم، وكان ممن يجالس الخلفاء وإبراهيم المهدي، وكان أميرا يحسن الغناء وحجظه وكان شاعرا مجيدا، نجدهم جميعا يؤلفون كتبا في فن الطبخ في القرن الثالث الهجري".(١)

وإلى بعض هذه الأطعمة يشير ابن المعتز العباسي مخاطبا أصحابه عن طعام يوم العيد:

وتأتيكم إذا جعتم صفار المعز الشعر
وحدث كسكريات لها من ذهب قشر
وبنى وشبوط ذراع عرضه شبر
وأصناف من الحلوا ء ما عن مثلها صبر
إذا ما فتحت عنها ضخام السفر والسمر(٢)

كما يشير ابن المعتز إلى تفنينهم في شواء اللحم. يقول:

يَقُولُ أَكَلْنَا لَحْمَ جَدْيٍ وَبَطَّةٍ وَعَشْرَ دَجَاجَاتٍ شِوَاءً بِأَلْوَانِ(٣)

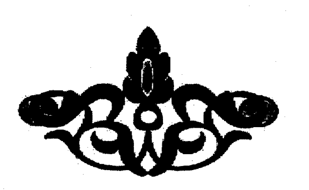
---

(١) آدم متز، (١ / ٢٣٦).
(٢) الديوان، (٢ / ١٧٦)، طبعة دار المعارف، (٢ / ٥٧٠)، طبعة بغداد - والكسكر: كورة واسعة كانت مشهورة بالدجاج، والبني والشبوط: أنواع من الأسماك.
(٣) الديوان، (١ /٧٣١)، طبعة بغداد.

كما اهتم الناس أيضا بتبريد الشراب في أيام الصـــيف، ممـــا يجعلهم يولعون بالثلج. فكانت قصور الخلفاء والأمراء والأعيان لا تخلو من خزائن يخرن فيها الثلج".(١)

وإلى استعمال الثلج في التبريد يشير ابن المعتز، يقول:

والزم البيت وامزج الشراب بالثلج   واطف بالخيش نار الهجير(٢)



(١) صور مشرقة، (ص: ١٩).

(٢) الديوان، (٢ / ٢٦٤)، طبعة دار المعارف.

سادسا: الأعياد والمناسبات والحفلات

لقد كان الخلفاء والمسلمون يحتفلون بالأعياد الإسلامية -عيدي الفطر والأضحى- احتفالا دينيا... فكان الخليفة يؤم الناس في الصلاة ويلقى خطبة بليغة في فضائل العيد فيحث المسلمين على التمسك بتعاليم الإسلام. وكانت بغداد تسطع بالأنوار في ليالي العيد وتتجاذب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير وتزدحم دجلة بالزوارق المزينة بأبهى الزينات".[1] ولم يفت ابن المعتز العباسي أن يوضح لنا كيفية هذا الاحتفال في شعره. فنراه يبين لنا قدوم عيد الفطر المبارك والاستعداد له. يقول:

قَد قَرَّبَ اللَّهُ منّا كُلَّ ما امتَنَعا ... فَالآن فَاغدُ عَلى المُدام وَبَكِّرْ
فَخُذ لِفطرِكَ قَبلَ العيدِ أُهبَتَهُ ... فَإِنَّ شَهرَكَ في الواواتِ قَد وَقَعا[2]

ويقول أيضا مرحبا بعيد الفطر:

أهلاً بفطرٍ قَد أنارَ هلالُهُ ... كَأَنّي بِهِلالِ العيدِ قَد طَلَعا
وَانظُر إِلَيهِ كَزَورَقٍ مِن فِضَّةٍ ... قَد أَثقَلَتهُ حُمولَةٌ مِن عَنبَرِ[3]

كما يشير ابن المعتز إلى الأضحية في عيد الأضحى وكيف أن الناس يضحون بالشاة والبقر. يقول:

---

(١) العرب والحضارة، د. الخربوطلي، (ص: ٢٥٣).

(٢) الديوان، (٢ / ١٩١)، طبعة دار المعارف.

(٣) نفسه، (٢ / ١٨٥).

إن كان ضحى الورى بالشاة والبقر   فكل يوم يضحى بدر بالبدر[١]

" وكان الاهتمام بشهر رمضان يجري على الصعيدين الرسمي والشعبي، فكانت الحكومة تبادر عند حلوله إلى توزيع الصدقات على الفقراء والمحتاجين وتعنى بالمساجد فتضيئها ليلا بالمصابيح[٢] كما كان المسلمون يهتمون بالاحتفال بهذا الشهر المبارك ويكثرون فيه من العبادة ويهنئون بعضهم بقدومه. يقول ابن المعتز مهنئا الوزير القاسم بن سليمان بشهر رمضان:

أدامَ المُهَيمنُ عِزَّ الوَزيرِ   وَزادَ الحَسودَ عَلَيه هَوانا
وَعَرَّفَهُ يُمنَ شَهرِ الصِيامِ   وَأعطاهُ مِن كُلِّ سوءٍ أمانا[٣]

وكان الغاوون من المسلمين يمتنعون عن ارتكاب الموبقات في شهر رمضان وكانوا يقضون الشهر الكريم في الصيام والصلاة. يقول ابن المعتز مبينا الامتناع عن الشراب في هذا الشهر والاجتهاد في العبادة:

قم فاحي بالكاسِ قوماً   ماتوا صلاةً وصوما
لم يَطعَموا لذّةَ العيـ   ـشِ مذ ثلاثين يوما[٤]

ولقد وضح ابن المعتز كيف أن إبليس نفسه ينفى في شهر رمضان . يقول:

---

(١) نفسه، (١ / ٤٥٣).

(٢) البغداديون أيام زمان، (١ / ١٣٥).

(٣) الديوان، (١ /٥٢١)، طبعة دار المعارف.

(٤) الديوان، (٢ / ٣٠٩)، طبعة دار المعارف.

ووجدنا الشيخ إبليس مقيما بالغلاة قد نفاه شهر نسك وصيام وصلاة[١]

وفى بداية موسم الحج يتوافد الحجاج من كل فج متجهين إلـى بيت الله الحرام، ليقيموا شعائر الحج، وإلى جانب الحج يقومون ببعض الأعمال التجارية التي تجلب عليهم الكسب والمنفعة، يقول ابن المعتـز موضحا ذلك في أرجوزته التاريخية:

فَكَم مُلَبٍّ أشعَثٍ قَد أحرَما يَرجو مِنَ اللَه العَطاءَ الأعظَمـا
جاءَ إلى الكَعبَة مِن أرمينيَـه وَمِن خُراسـانَ وَمِـن إفريقيَـه
وَعابِدٍ جاءَ مِـنَ الشـاماتِ قَد سارَ في البَـرِّ وَفي الفُـراتِ
وَتاجِرٍ مَع حَجِّـه وَعُمرَتِـه يَطلُبُ رِبـحَ مالِـه في سَـفرَته
مُقَدِّرٍ في الربحِ أضعافَ الثَمَن من قاصِدٍ صَنعا إلى أرضِ عَدَن[٢]

ولم يكتف المسلمون بالاحتفال بالأعياد والمناسبات الإسـلامية فقط بل كانوا يحتفلون بأعياد الفرس والديانات الأخرى مجاملة لرعاياهم ومن أشهر هذه الأعياد النيروز والمهرجان.

" أما النيروز فهو أول أيام السنة عند الفرس، وكانت العامـة يتبادلون فيه الهدايا.. وكان أصحاب السماجات يظهـرون بـين يـدي الخليفة فينثر عليهم الدراهم".[٣]

وعن الاحتفال بعيد النيروز يقول ابن المعتز:

فَاشرَب غَداةَ النَيروزِ صافيَةً أيّامُها في السُـرورِ سـاعاتُ

---

(١) نفسه، (٢ / ١٦٧).
(٢) الديوان، (١ / ٥٦٩ – ٥٧٠)، طبعة بغداد.
(٣) آدم متز (١ / ٢٨٧).

قَد ظَهَرَ الجِنُّ بِالنَهارِ لَنا ... مِنهُم صُنوفٌ مُردٌ عَتيّاتُ
تَميلُ في رَقصِهِم قُدودُهُم ... كَما تَأَلَّت في الريحِ سَرواتُ
وَرُكِّبَ القُبحُ فَوقَ حُسنُهُمُ ... فَفي سَماجاتِهِم مَلاحاتُ[1]

أما عيد المهرجان، " فكان يعتبر أول أيام الشتاء، وظل إلى جانب النيروز أكبر الأعياد، وكان الناس يتهادون فيه أيضا.. وكان العامة يغيرون فيه الفرش والآلات وكثيرا من الملابس".[2]

ويقول ابن المعتز في الاحتفال بعيد المهرجان:

مهرجوا في السبت ... إن السبت يوم المهرجان
وخذوها من عقار ... عتقت صفو الدنان
واستخصوا كل عود ... واقصدوا قصد المثاني
إنما العيش شراب ... وسماع من قيان[3]

كما كانوا يحتفلون بعيد (الشعانين) "وهو من أعياد القبط ومعناه بالعربية التسبيح، يعملونه في سابع أحد من صومهم[4] يقول عنه ابن المعتز:

إِنَّ في قَلبي مِنَ الظَبيِ كُلوم ... فَدَعِ اللَومَ فَإِنَّ اللَومَ لُوم
حَبَّذا يَومَ الشَعانينَ وَما ... نِلتُ فيهِ مِن سُرورٍ لا يَدوم[5]

---

(١) الديوان، (ص : ١٠٧). طبعة بيروت.

(٢) آدم متز، (١ / ٢٩٠).

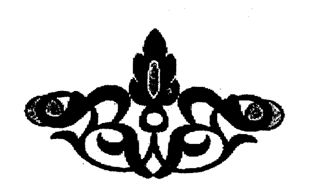
(٣) الديوان، (٢ / ٣١٨)، طبعة دار المعارف .

(٤) صبح الأعشى، (٢ / ٤١٥).

(٥) الأغاني، (١٠ / ٢٧٩)، دار الكتب.

" وكذلك كانت حفلات الختان والزواج من أشهر الحفلات في قصور الخلافة[١] وعن زواج جعفر بن الخليفة المعتضد بابنة بدر، وتزويج الهلال بابنة القاسم ابن عبيد الله الوزير. يقول ابن المعتز مهنئا بهذا الزواج:

قُل للأميرِ سَلِمتَ لِلـ ... دُنيا وَشَعبِ صُدوعِها
قَد نِلتَ مَهرَ خِلافَةٍ ... لَم تَخطُ حُسنَ صَنيعِها
وَحَوَيتَ بِنتَ وِزارَةٍ ... كَالشَمسِ حينَ طُلوعِها
إِنَّ الأُصولَ تَفَرَّقَت ... فَتَعانَقَت بِفُروعِها [٢]



(١) آدم متز، (١ / ٢٩٥).
(٢) الديوان، (١ / ٤٧٦)، طبعة بغداد.

سابعا: الموسيقى والغناء والشراب ووسائل اللهو والمرح

من الصور الطريفة التي كان لها الصدارة في عصور بغداد السالفة المزدهرة: فنون الغناء والموسيقى. فقد كانت آلات الموسيقى في أغلب الأحيان: العود، والطنبور، والقانون، والمزمار، والجُنك.

وكانت الجواري يغنين من وراء ستارة. وإذا بالغ رب البيت في إكرام ضيوفه، طلب إليهن أن يغنين بين يدي الستارة، حيث يصيح بهن: ما هذا الاحتشام لأضيافنا أعزهم الله، اخرجن، فيهتك الستارة، فيخرجن، وهن ما بين: عوادة، وطنبورية، وزامرة، وصناجة، ورقاصة، ودفافة، وكراعة. وكلهن بفاخر الثياب ونفيس الحلى".[١]

فالموسيقى تقدمت تقدما كبيرا وألفت فيها الكتب. وعن بعض أدواتها يحدثنا ابن المعتز العباسي. فيقول:

أما تَرى أَربَعًا لِلَّهوِ قَد جُمِعَت ... جُنكٌ وَعودٌ وَقانونٌ وَمزمارُ[٢]

ويقول أيضا:

ومجلس فيك لست ناسيه ... حسن به مزهر ومزمار[٣]

---

(١) صور مشرقة، (ص: ٨٧)، والكراعة: مغنية تغنى على طبل صغير.

(٢) الديوان، (ص: ٢٢٢)، بيروت.

(٣) الديوان، (٢ / ٢٥٥)، طبعة دار المعارف.

أما عن الغناء فقط ارتبط أكثر ما ارتبط بالشراب، ففي دور الشراب وحانات الخمر كانت تجتمع قريحة الشعراء، وحناجر القيان المغنيات، وصخب السكارى، وقرقعة الكئوس والدنان فواحد يطلب سماع إبراهيم الموصلي والآخر يرغب سماع غناء عريب – والقيان حريصات على إرضاء الجميع. وهؤلاء القيان من طبيعة مهنتين يتوددن إلى صاحب المال ويبدين غوايتهن له ويعمدن إلى جميع الوسائل المغرية لإيقاعه في أحابيلهن".[١]

وعن الغناء يقول ابن المعتز:

عندَنا سيِّدي نَديمٌ وَرَيحا نٌ وَكَأسٌ وَقينَةٌ وَحَبيبُ
وَمُغَنٍّ يَقولُ ما تَعجزُ الأَل فاظُ عَنهُ حُلوُ الحَديثِ أَديبُ[٢]

وكثيرا ما كان يصحب المغنى فرقة موسيقية من الجواري والقيان فهذه عوادة تضرب على العود، وطنبورية، وزامرة.. وغيرهم، يقول ابن المعتز يصف زامرة:

وَأَسوَدَ في كَفٍّ مَجدولَةٍ لَطيفٍ لَهُ خِلقَةٌ مُنكَرَه
إذا استَودَعَت سِرَّها عِندَهُ فَأَحسَنُ ما فيهِ أَن يُظهِرَه[٣]

أما عن أرض الشراب فكانت تفرش بالورود والرياحين، وشتى أنواع الزهور. يقول ابن المعتز:

---

(١) البغداديون أيام زمان، (جـ١ / ١٥١).
(٢) الديوان، (٢ / ١٥٧)، طبعة دار المعارف.
(٣) نفسه، (٢ / ١٨٥).

يَسقيكَها خَنِثُ الأَلحاظِ ذو هَيَفٍ   كَأَنَّ أَلحاظَهُ أَفرَقنَ مِن داءِ
عَلى فِراشٍ مِنَ الوَردِ الجَنِيِّ وَما   بَدَلتَ مِن نَفَحاتِ الوَردِ بِاللاءِ[1]

أما عن الشراب نفسه فقد تعددت أنواعه وأسماؤه، من خمر وخندريس، وسلافة، وقهوة صفراء، ودوشاب، ونبيذ وغيرها، كما كثرت أدواته أيضا، من أباريق ودنان وكئوس وأقداح ومبذال. يقول ابن المعتز في الشراب:

أنا في لذة وفى طيب عيش   فأغنى اليوم من شراب الزبيب
واسقني من سلافة الكرم ريا   إن للراح راحة في القلوب
قهوة تجلب السرور وتنفى   كل هم إذا بدا للكئيب
شاب منها الماء لون اصفرار   فلها لون عاشق مكروب
وصغت فهي ليس تشبه   به إلا خلق الماجد الكريم النجيب
فإذا ما كرعت فيها   تلقتك لها ضمه كضم الحبيب[2]

وإلى أنهم كانوا يقصدون البساتين للشراب فيها حيث الجمال والخضرة، يقول ابن المعتز:

اشرب على الورد في البساتين   وخضرة الآس في الميادين
من قهوة في الدنان مسكنها   يا صاح رطلا ملاء واسقيني
إن كان ورد الربيع من زهر   فإن ورد الخدود من (نسرين)[3]

---

(١) نفسه، (٢ / ٢٠٩)، طبعة دار المعارف.

(٢) الديوان، (٢ / ٢١٥)، طبعة دار المعارف، وللمزيد عن الشراب انظر: الفصل الأول من القسم الثاني في الخمر.

(٣) الديوان، (٢ / ٢٠٧ م)، طبعة دار المعارف.

أما عن وسائل اللهو فقد عرف العصر العديد من الألعاب مثل سباق الخيل والصوالجة[١] والصيد ولعب الشطرنج وغيرها. وعن الصوالجة وسباق الخيل يقول ابن المعتز يصف معركة سباق:

وكم غدوت بفتيانٍ تسيل بهم ... سوابقٌ أحكمتهنَّ المضاميرُ
مكنفات بآذانٍ نواصيها ... كما يشقُّ عن الطلع الكوافير
تنزو كرائمُهُمْ في كلِّ مُعترك ... كما يطيرُ من الذعرِ العصافيرُ
كأن سرجي على فتخاء ضاربة ... مخضبات دما فيها الأظافير
تخالُ آخرَه في الشدِّ أوّلَه ... وفيه عدْوٌ وراءَ السَّبْقِ مذخورُ
أن يدقق الصخر يهشمه بحافره ... كأنه من علاه القين منقور
يملأ (ميادينه) والخيل ناقصة ... وذنبها فيه عند القوم مغفور[٢]

وإلى لعبة الصوالجة يشير ابن المعتز في إحدى تشبيهاته يقول:

وَأَصْغَتِ الْعَقْرَبُ للرَّغائبِ ... بِذَنَبٍ كَصَوْلَجانِ الّلاعِبِ[٣]

كما يشير إليها أيضا وهو يصف ساقى خمر:

وَساقٍ مُطيعٍ لأَحْبابِه ... علىَ الرُّقَباءِ شَديدِ الْجرَةْ
له شعر كجناح الغداف ... يسيل على غرة مقمرة
وَفِي عَطْفَةِ الصُّدْغِ خالٌ لَهُ ... كَما استلبَ الصَّوْلَجَانُ الْكُرَةْ[٤]

---

(١) الصوالجة هو ضرب كرة من ظهور الخيل، وأصلها فارس وكان الخلفاء يلعبون بالصوالجة في ميادين خاصة في قصورهم " آدم متز (١ / ٢٥٦).

(٢) الديوان، (٢ / ١٦٩)، طبعة دار المعارف.

(٣) نفسه، (٢ / ٣٦٨)، طبعة دار المعارف.

(٤) نفسه، (٢ /٢٥٥)، طبعة دار المعارف.

أما عن الصيد، فقد احتفظ بمقدمة وسائل اللهو والمرح. وابـــن المعتز يصف لنا رحلة صيد، يقول:

وَلا صـــيدَ إلّـــا بوثّابَـــةٍ تَطيرُ عَلـى أربَــعٍ كَالعَــذَب
وَإن أطلقَت مِــن قِلادَاتِهــا وَطارَ الغُبارُ وَجَــدَّ الطَلَــب
فَزَوبَعَةٌ مِـــن بَنــاتِ الرِيــاحِ تُريكَ عَلى الأرضِ شَيئًا عَجَب
تَضُـــمُّ الطَريـــدَ إلى نَحرِهـا كَضَمِّ المُحِبِّ لِمَن قد أحَـب
ألا رُبَّ يَـــومٍ لَهــا لا يُـــذَمُّ أراقَت دَمًا ، وَأغابَت سَـغَب
لَها مَجلِسٌ في مَكانِ الرَديفِ كَتُركيَّةٍ قَد سَـبَتها العَــرَب
وَمُقلَتُهــا ســائِلٌ كُحلُهــا وَقَد جُلِيَت سَبَجاً مِن ذَهَــب
فَظَلَّت لُحومُ ظِبــاءِ الفَــلاةِ عَلى الجَمرِ مُعجَلَــةً تُنتَهَــب
وَطافَت سُــقاتُهُمُ يَمزِجــونَ بماءِ الغَــديرِ بَنــاتِ العِنَــب
وَحَثّوا النَــدامى بِمَشــمولَةٍ إذا شارِبٌ عَبَّ فيهــا قَطَــب
فَراحوا نَشاوى بِأيدي المُــدامِ وَقَد نَشَطوا عَن عِقالِ التَعَــب
إلى مَجلِسٍ أرضُــهُ نَــرجِسٌ وَأوتارُ عيدانِــهِ تَصــطَخِب[1]

وعادة ما تنتهي رحلة الصيد بشواء اللحم والشراب. كما نفهم من الأبيات السابقة.

ويشير ابن المعتز إلى أنهم كانوا يستخدمون السفن في الصـــيد من البحر يقول مخاطبا أصحابه في مظاهر الاحتفال بالعيد:

فـــان أثـــر تم الصـــيد فهـــذا الـــبر والبحـــر
فإن شئتم فحمر الوحش والظلمـــــان والعفـــر

---

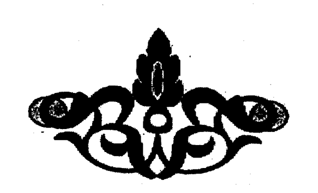
(١) الديوان، (ص: ٥٨ - ٥٩)، طبعة بيروت.

وإلا فالسمندات وطير الماء والغر [١]

أما عن لعبة الشطرنج فقد " كان الناس يلهون بها وخصوصا الخلفاء لهوا كبيرا. وكانوا يعدونه في ذلك العصر من الآداب. وكان المتوكل يرى ندماه يلعبون الشطرنج بين يديه، وكذلك أولع بالشطرنج المعتضد، وقد كانوا يشترطون في النديم أن يكون شطرنجيا، وإذا كانت القينة شطرنجية زادت قيمتها وزادت الرغبة فيها، نظرا لجمعها بين الأنوثة والمنادمة ".[٢]

وقد أشار ابن المعتز إلى لعبة الشطرنج في إحدى تشبيهاته، يقول:

وَتَسلُكُ في شَوارِعَ خالِياتٍ أَحَلَّ اللَهُ فيهِنَّ الشَتاتا
وَحيطانٍ كَشِطرَنجٍ صُفوفٍ فَما تَنفَكُّ تَضرِبُ شاةَ ماتا[٣]



(١) الديوان، (٢ / ١٧٦)، طبعة دار المعارف.
(٢) البغداديون أيام زمان، (١ / ١٤٨).
(٣) الديوان، (٢ / ١٦٣)، طبعة دار المعارف.

ثامنا: التجارة والزراعة ووسائل الانتقال

" لقد نالت التجارة جانبا عظيما من عناية العباسيين ورعايتهم فقد اتسعت الدولة العباسية وأصبحت أعظم دول العالم في ذلك الحين، وشملت أقاليم متنوعة البيئات والمناخ. وأدى هذا التنوع إلى تنوع في المحصولات الزراعية واختصاص كل إقليم بأنواع خاصة من المصنوعات وقامت حركة تبادل على نطاق واسع بين ولايات الدولة العباسية تحقيقا لسياسة الاكتفاء الذاتي، كما قامت حركة تجارية عالمية، ترمي إلى تبادل أنواع التجارة المختلفة مع دول العالم".[١]

ولكن يبدو أن التجار كانوا غير آمنين في معظم عصر ابن المعتز. فعن التجارة واستخدام السفن في نقل البضائع، وكيف كان الصفار ورجاله يهددون أمن التجارة يقول ابن المعتز في أرجوزته التاريخية:

وَجَزِعَت مِن خَوفِهِ الفَراعِنَه ... وَأَصبَحَت سُفنُ البِحارِ آمِنَه
وَكانَ في دِجلَةَ أَلفُ ماخِرِ ... لَم يَعنِها إِلّا جَناحُ طائِرِ
يَجبونَ كُلَّ مُقبِلٍ وَمُدبِرِ ... مُجاهِرينَ بِالفِعالِ المُنكَرِ
كَم تاجِرٍ راوَغَهُم بِزَورَقِه ... فَأَغمَدوا سُيوفَهُم في مَفرِقِه
وَفَرَّتِ الأَعرابُ في البِلادِ ... وَأُهلِكوا إِهلاكَ قَومِ عادِ[٢]

---

(١) العرب والحضارة، د. الخربوطلي، (ص: ٢٤٠).

(٢) الديوان، (١ / ٥٤٦ – ٥٤٧)، طبعة بغداد.

ولكن ابتزاز التجار والاستيلاء على سفنهم قلب في عهد المعتضد حيث انتشر الأمن والأمان كما تقول الأرجوزة:

فَالآنَ زالَ كُلُّ ذاكَ أجْمَعُ وَأَصبَحَ الجَورُ بِعَدلٍ يُقمَعُ[١]

أما عن الزراعة فقد " لقيت اهتماما كبيرا في عهد الخلفاء العباسيين لأن عاصمتهم بغداد كانت تقع في أحسن البقاع في ذلك السهل الخصيب المعروف باسم السواد، وفطن العباسيون إلى أن الزراعة من أهم موارد الدخل في الدولة. وكانت فلاحة الأرض يقوم بها السكان الوطنيون الذين تحسنت حالتهم في ظل الدولة العباسية".[٢] " وكانت حاصلات العراق الرئيسية في العصر العباسي تتكون من الشعير والأرز والبلح والسمسم والقطن والكتان".[٣]

" وكانت الحنطة أكثر مما يزرع، وكان ارتفاع أسعار القمح يذكر دائما دليلا من دلائل غلاء المعيشة. وكان الكروم أكثر مما يزرع من الفاكهة. وقد أضاف القرن الثالث فاكهتين – الأترج والنارنج وكذلك وجد البطيخ والتفاح والرمان والتمر، وكان من الأطعمة المحبوبة التين الذي يؤكل في آخر الطعام ".[٤]

ويحصى ابن المعتز العديد من هذه الحاصلات الزراعية في ديوانه.

يقول في القمح مثلا:

---

(١) الديوان، (١ /٥٦٠)، طبعة بغداد.

(٢) تاريخ العرب، (ص:٤٢٩).

(٣) نفسه، (ص:٤٤٠).

(٤) آدم متز، (١ / ٣٠١).

أودعت قمحاً فلّما نثرت كُلُّ أرضٍ أنبتت شوكَ القَتادِ[1]

وفى النخل:

ولقائح فى الطين باركة لا تشتكى حلا ولا رحلا[2]

ويقول في الجزر:

أنظُر إلى الجَـزرِ الّـذي يَحكي لَنا لَهَبَ الحَريقِ
كَمِذَبَّـةٍ مِـن سُـندُسٍ وَبِها نِصابٌ مِن عَقيقِ[3]

ويقول في النارنج:

وَكَأَنَّما النـارَنجُ في أَغصـانِه مِن خالِصِ الذَهَبِ الَّذي لَم يُخلَطِ
كُرَةٌ رَماها الصَولَجانُ إِلى الهَوا فَتَعَلَّقَت في جَوِّهِ لَـم تَسـقُطِ[4]

ويقول عن التفاح:

وتفاحةٍ صفراءَ حمـراءَ غضـةٍ كخدِّ مُحبٍ فوقَ خـدِّ حبيـبِ
أحيا بها طورًا وأشربُ مثلـها من الراح في كَفي أغن ربيبِ[5]

وقال في الرمان:

ولاحَ رُمّانُنـــا فَزَيَّنَنـــا بَيْنَ صَـحيحٍ وَبَـيْنَ مَفْتُـوتِ
مِنْ كُلِّ مُصْـفَرَّةٍ مُزَعْفَـرَةٍ تَفُوقُ في الحُسْنِ كُلَّ مَنْعُـوتِ

---

(١) الديوان، (٢ / ٥٨)، طبعة بغداد.

(٢) نفسه، (٢ / ٦٢٨).

(٣) الديوان، (٢ /٦٢٢). طبعة بغداد.

(٤) الديوان، (٢ /٦١٠)، طبعة بغداد.

(٥) الديوان، (٢ / ٤٨٠)، طبعة دار المعارف.

كأنها حُقّـــةٌ فـــإن فُتِحَــتْ   فَصُرَّةٌ من فُصُوصِ يَــاقُوتِ[١]

وقال في القثاء:

انظر إليـــه أنابيبًـــا منضـــدة   من الزمرد خضرًا ما لهـــا ورق
إذا قلبت اسمه بانت ملاحتـــه   وصار مقلوبه أني بكم أثـــق[٢]

وقال في الليمون:

كَأنَّما اللَيمـــونُ لَمَّـــا بَـــدا   لِلعَـــينِ في أوراقِـــهِ الخُضـــرِ
مَداهِنٌ مِن ذَهَـــبٍ أُطبِقَـــت   عَلى زَكِيِّ المِسكِ وَالخَمـــرِ[٣]

وقال في التين:

أنعِم بِتينٍ طابَ طَعمًا وَاكتَسى   حُسنًا وَزانَ مَخرَجًا مِن مَنظَـــرِ
في بَردِ ثَلجٍ في نَقـــا تِـــبرٍ وَفي   ريحِ العَبيرِ وَطيبِ طَعمِ السُكَّرِ
يَحكي إِذا ما صُبَّ في أَطباقِـــهِ   خيمًا ضُرِبنَ مِنَ الحَريرِ الأَحمَرِ[٤]

وقال في الفستق :

وفســـــتقٌ مســـــتلذٌّ   منْ بعدِ شربِ الرحيـــقِ
كأنـــه حـــينَ ترنـــو   إليـــه عـــينُ الرمـــوقِ
حقٌّ من العاج يحـــوي   زمـــــرداً في عقيـــــق

---

(١) الديوان، (٢ / ١٦٦).
(٢) الديوان، (٢ / ٦٢٣)، طبعة بغداد.
(٣) الديوان، (٢ / ٥٩٩)، طبعة بغداد.
(٤) نفسه، (ص: ٥٩٥)، وما بعدها.

وكانت زراعة الورد متقدمة جدا، فهناك الورد والنرجس والشقيق والباقلاء والكافور والبهار والأقحوان والسوسن والبنفسج والياسمين والخيري والنوار".[١]

وتزخر كتب التراث العربي بأخبار الأزهار والأشجار والبساتين والمشهور في التاريخ، أن أكثر القوم عناية بأمر إنشاء البساتين يوم ذاك، والولوع في تنسيقها، هم الخلفاء والأمراء والسلاطين والوزراء وأعيان الناس وأماثلهم من ذوى المال والغنى".[٢]

وابن المعتز العباسي كان يهتم بزراعة البساتين، فنراه يذم بستانه لأنه لا يخرج زرعا، يقول:

إذا ما سَقى اللَّهُ البَساتينَ كُلَّها ... سَجالَ سَحابٍ دائمِ الوَرقِ مُنسَكِبِ
فَأَعطَشَ بُستانِي الإِلَهُ وَلا سَقى ... لَهُ طاقَةٌ ما لاحَ نَجمٌ وَما غَرَب
كَتُومٌ لِحَبِّ البِذْرِ لَيسَ بِناتِجٍ ... وَأَشْرَبُ مِنْ رَمِلاتٍ يَبْرِينَ لاَ شَرَبْ
وَمَرْسَى لِغَرْسِ الآسِ وَالنُّقْلِ حالِقٌ ... بِتُرَبِته الجَرْباءِ مِنْ أَخْبَثِ التُّرَبْ
أُصَفِّقُ فِيهِ حَسْرَةً وَتَلَهُّفا ... وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أُصَفِّقَ مِنْ طَرَبْ[٣]

ويقول في البنفسج:

ولازورديَّة أوفتْ بزُرقتها ... بينَ الرياض عَلَى زُرْقِ اليواقيتِ
كأنَّها فوقَ طاقات ضَعُفن بها ... أوائلُ النّار في أطرافِ كبريتِ[٤]

---

(١) آدم متز، (١ / ٢١٣).
(٢) صور مشرقة من حضارة بغداد، (ص: ٩٥).
(٣) الديوان، (٢ / ١٥٤)، طبعة دار المعارف.
(٤) نفسه، (ص: ١٨٦).

ويقول في النرجس:

النرجس الغض الجني عيونـــه حدق بلا هدب ولا أشـــفار

حدقت به فوق الزبرجد فضة تحكى شعاع كواكب الأسحار

ويكفى أن نقرأ أرجوزته التي قالها في ذم الصــبوح؛ لنــرى ونشم[1] ذلك البستان الجميل المليء بشتى أنواع الــورود. يقــول فــي مقدمتها:

أما تَرى البُستانَ كَيفَ نَــوَّرا وَنَشَرَ المَنشــورُ بُــرداً أَصــفَرا

وَضَحِكَ الوَردُ عَلى الشَــقائِقِ وَاعتَنَقَ القَطرَ اعتِناقَ الوامِــقِ

في رَوضَـــةٍ كَحُلَّـــةِ العَــروسِ وَخَـــدَمٍ كَهامَـــةِ الطـــاوُوسِ

وَياسَــمينٍ في ذُرى الأَغصـــانِ مُنتَظِمـــاً كَقِطَـــعِ العِقيـــانِ[2]

أما عن وسائل الري في هذا العصر، فقد كــانوا يســتخدمون السواقي، حيث أن المياه كانت متوفرة. وفى الساقية يقول ابن المعتز:

كأنما نــاعورة غنــت لنــا معدد يبكى على إلف هجر

كأنما الدولاب في ترجيعــه عصابة تتلو المزامير سحر[3]

كما كانوا يستخدمون الآبار في الري. إذ كانت الأرض بعيــدة عن مجرى المياه. يقول ابن المعتز في صفة بئر:

وَبِئرٍ هَــديت بِهــا عَذبَــةٍ وَطِفلُ النَباتِ بِهــا مُنــتَعِش

فَتَقتُ بِها جَيــبَ كــافورَةٍ مِنَ الأَرضِ جَدوَلُها مُنكَمِش

---

(١) نفسه، (ص: ١٦٨).

(٢) الديوان، (٢ /٥٤٠)، طبعة بغداد.

(٣) الديوان، (١ / ٣٦٩)، طبعة دار المعارف.

تُمَزِّقُ رَيَّـا جُلـودِ الثّمـا ... رِ إذا مَصَّ ماءَ الثمارِ العَطَش
كَفيـلٌ لأشـجارِها بالحَيـا ... ةِ إذا ما جَرى خِلتَهُ يَرتَعِش
وَدَبَّتْ سَواقِيهِ فِـي رَوْضَـةٍ ... حَماحِمُها كَرُؤوسِ الحَبَش(١)

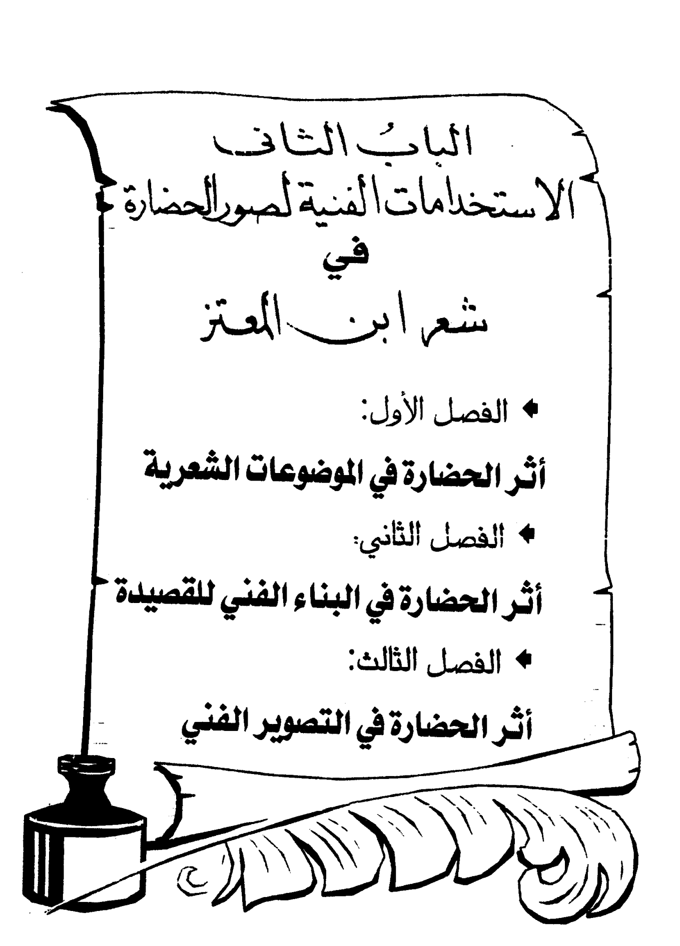
أما عن وسائل الانتقال في هذا العصر فكان اكتـراء الحميـر وسيلة قريبة للانتقال تستعملها الطبقة الوسطى من أهل المـدن، وكـان أكبر محل يقف فيه الحمارون بحميرهم ببغداد عند باب الكرخ، وهـو مدخل القسم التجاري وأما في المدن التي تقوم عليها الأنهـار كبغـداد والبصرة فقد كان الانتقال بالقوارب أيضا، وقد أحصـيت السـمريات والعبرانيات بدجلة أيام الخليفة المعتمد فكانت ثمانين ألفا يقـدر كسـب ملاحيها في كل يوم بتسعين ألف درهم".(٢)

ويقول ابن المعتز عن سفينة:

زِنْجِيَّةٌ كُرْدِيَّةُ الحلي فَوْقَهـا ... جَناحٌ لها فَرْدٌ علـى المـاءِ يَخْفُـقُ
يُؤَدِّبُها أولادُهَـا بِعِصِـيِّهِمْ ... فَتَحْبِسُ قَسْرًا كيف شاءُوا وتُطْلَقُ(٣)



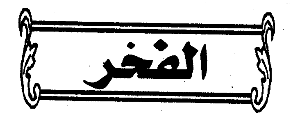
(١) الديوان: (٢ / ٦٠٦). طبعة بغداد.
(٢) آدم متز، (١ / ٢٧٢).
(٣) الديوان، (٢ / ٦٠٦).


الباب الثاني
الاستخدامات الفنية لصور الحضارة
في
شعر ابن المعتز
الفصل الأول:
أثر الحضارة في الموضوعات الشعرية
الفصل الثاني:
أثر الحضارة في البناء الفني للقصيدة
الفصل الثالث:
أثر الحضارة في التصوير الفني



الفصل الأول

أثر الحضارة في الموضوعات الشعرية



الفخر

والافتخار كما يقول ابن رشيق:" هو المدح نفسه إلا إن الشاعر يخص به نفسه وقومه، وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار، وكل ما قبح فيه قبح في الافتخار".[١] وإنه لما كانت فضائل الناس، من حيث أنهم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه أهل الألباب، من الاتفاق في ذلك، إنما هي: العقل، والشجاعة، والعدل، والعفة؛ كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبا، والمادح بغيرها مخطئا... ومن أقسام العقل: ثقافة المعرفة، والحياء، والبيان، والسياسة، والكفاية، والصدع بالحجة، والعلم، والحلم عن سفاهة الجهلة، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى.

ومن أقسام العفة: القناعة، وقلة الشره، وطهارة الإزار، وغير ذلك مما يجري مجراه.

ومن أقسام الشجاعة: الحماية، والدفاع، والأخذ بالثأر، والنكاية في العدو والمهابة، وقتل الأقران، والسير في المهامة الموحشة، وما أشبه ذلك.

ومن أقسام العدل: السماحة، ويرادف السماحة التغابن، وهو من أنواعها وإلا فظلام والتبرع بالفائل، وإجابة السائل، وقرى الأضياف، وما جانس ذلك".[٢]

---

(١) العمدة، (ص: ٣٥٥).

(٢) نقد الشعر: لقدامة بن جعفر، (ص: ٩٦- ٩٨).

هذا بالإضافة إلى أن الإسلام أدخل العديد من المفاهيم والصفات لتى ينبغي أن يتمسك بها المسلم. ومن خلال ذلك نريد أن نعرف بماذا افتخر ابن المتعز وكيف رأى نفسه. وذلك بتناول البناء العقلي لشخصيته ثم البناء المعنوي. فمن البناء العقلي: صدع الحجة والبيان، كما يذهب قدامة ومن ذلك يفتخر ابن المتعز بنفسه. يقول:

وَفَتَقتُ أسماعَ الخُصومِ بِحُجَّةٍ بَيضاءَ تُبري بالبَيانِ الأكمَها[1]

ومن افتخاره بأدبه وصواب رأيه واكتفاء نفسه بقوتها:

لا تَلتقي بي طُرُقُ المَناهِلِ وَلا أرى فَريسَةً لآكِلِ
مِن مَعشَرِهِم جِلَّةُ القَبائِلِ مُنفَرِدًا بِحَسَبٍ وَنائِلِ
وَأدَبٍ يُكثِرُ غَيظَ الجاهِلِ وَقوتِ نَفسٍ كانَ غَيرَ واصِلِ
يُقعِدُني عَنهُ قِيامُ السائِلِ وَيَفتَديني مِن رَجاءِ الباخِلِ
وَرَأيُ قَلبي كَالحُسامِ فاصِلِ مُهَذَّبٍ يَرسُبُ في المَفاصِلِ[2]

وعن صواب رأيه يقول:

ورأيًا كمِرآةِ الصَّناعِ أرَى بِهِ سَرائِرَ غَيبِ الدَّهرِ حيثُ ما سَعَى[3]

ويفتخر بحلمه والذي قال عنه رسول الله(ﷺ):"الحلم سيد الأخلاق"، يقول ابن المعتز:

أنا مَن تَعلَمونَ أَسهَرُ لِلمَجـ ـدِ إذا غَطَّ في الفِراشِ اللَئيمُ
وَمَليٌّ بِصَمتِهِ الحِلمِ إن طا رَت سَريعاً مِثلَ الفِراشِ الحُلومُ[4]

---

(١) الديوان، (١ / ١٩٣)، طبعة بغداد.
(٢) الديوان، (١ / ١٥٣)، طبعة بغداد.
(٣) الديوان، (١ / ١٣٩)، طبعة بغداد.
(٤) نفسه، (١ / ١٧٣).

ويفتخر بالحلم عن سفاهة الأعداء والسياسة.فيقول:

أَلا رُبَّ دَسّاسٍ إِلى الكَيدِ حامِلٍ ضِبابَ حُقودٍ قَد عَرَفتُ وَدارَيتُ

فَعادَ صَديقًا بَعدَما كانَ شانِئًا بَعيدَ الرِضى عَنّي فَصافى وَصافَيتُ[1]

وهذا مصداق لقوله تعالى:" خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ"[2] وقوله تعالى:" وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ".[3]

أما عن البناء المعنوي ويشمل: الأخلاق والدين والسلوك، فنجد أن ابن المعتز يفتخر بتقواه وذلك بجانب علمه. والتقوى قال الله عنها في كتابه الكريم:" وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى".[4]

يقول ابن المعتز:

فَإِن مُتُّ فَانعيني إِلى المَجدِ وَالتُقى وَلا تَسكُبي دَمعاً إِذا قامَ نائِحُ

وَقولي هَوى عَرشُ المَكارِمِ وَالعُلى وَعُطِّلَ ميزانٌ مِنَ العِلمِ راجِحُ[5]

وفي مكان آخر يرد نفسه للتقوى ويفتخر ببذل المال:

رَدَدتُ إِلى التُقى نَفسي فَقَرَّت كَما رُدَّ الحُسامُ إِلى القِرابِ

وَمالٍ قَد سَخَوتُ بِهِ وَجاهٍ وَجيهٍ لا يَخافُ أَذى الحِجابِ

---

(١) نفسه، (١ / ١٧٣).

(٢) سورة الأعراف، (الآية : ١٩٩).

(٣) سورة فصلت، (الآية : ٣٤).

(٤) سورة البقرة، (الآية : ١٩٧).

(٥) الديوان، (١ / ٢٧٨)، طبعة دار المعارف.

وَكَيفَ تُصانُ عَن أَجرٍ وَحَمـدٍ ... وُجوهٌ سَوفَ تُبـذَلُ لِلتُـرابِ[(١)]

وينبغي أن نفرق بين بذل المال هنا وبـذل المـال والكـرم فـي الجاهلية، فالكرم في الجاهلية مجال للمباهاة والشهرة أما الفخر ببذل المال في الإسلام كما صوره ابن المعتز ليس إلا حمدا لله وابتغاء الاجر والثواب منه.

ثم يفتخر بإيثاره بخير ما عنده وترك القليل لنفسه. مصدقا لقولـه تعالى: "وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ".[(٢)]

يقول ابن المعتز:

وَمالٍ قَد حَلَلتُ الوَعـدَ عَنـهُ ... إِذا انعَقَدَت بِهِ نَفـسُ البَخيـلِ
وَأوثِرُ صـاحِبِيَّ بِفَضـلِ زادي ... وَأُحيي النَفسَ بِالبَلَلِ القَليـلِ[(٣)]

وهذا العطاء لا يتبعه بالمن والأذى، يقول:

أباعد بين مني والعطاء ... وأجمع بين برقي والسجام[(٤)]

ويفتخر بصبره على المصائب: وهو جمع بين العقل والشجاعة كما يذهب قدامة:

وَدَهرٍ مُؤاتٍ قَد مَلَكتُ نَعيمَـهُ ... وَأُعطيتُ مِن حَلواءِ عَـيشٍ وَأَعطَيـتُ
وَآخَرَ يُشجيني صَبَرتُ لِمَضِّـهِ ... وَكَم مِن شَجىً تَحتَ التَصَبُّرِ قاسَيتُ[(٥)]

---

(١) الديوان، (٥٨/١)، طبعة بغداد.
(٢) سورة الحشر، (الآية: ٩).
(٣) الديوان، (١٦١/١).
(٤) نفسه، (١٦٩/١).
(٥) نفسه، (٦٢/١).

ويفتخر باتقائه شر الشبهات عملا بقول الرسول (ﷺ):" اتقوا شـــر الشبهات "، يقول:

وَأَتبَعُ مِصباحَ اليَقينِ فَإِن بَدا لِيَ الشَكُّ في شَيءٍ يُريبُ تَناهَيتُ[١]

ويفتخر بإغاثة المظلوم فيقول:

وَيا رُبَّ يَوْمٍ لا تُوارَى نُجُومُهُ مَدَدْتُ إِلَى الْمَظْلُومِ فِيهِ يَدَ النَّصْرِ[٢]

وبالسرعة في نداء المكروب يقول:

وَذي كُرَبٍ إِذ دَعاني أَجَبتُ فَلَبَّيتُهُ مُسرِعًا إِذ دَعا[٣]

ومن سلوكه عدم النفاق في جميع موافقة يقول:

وَيَخافُ شَيطانُ النِفاقِ مَواقِفي وَإِذا رَآني حاضِرًا لَم يَنزَغِ[٤]

ومن سلوكه كتمان السر، عملا بقول الرسول (ﷺ):"استعينوا علـــى قضاء حوائجكم بالكتمان"، يقول:

وَسِرٍ طوَته النفس لي وَلِصاحِبٍ فَما أَظهَرَتهُ بَوحَةٌ مُنذُ أُخفِيَت[٥]

ويقول:

وَرَبُّ سِرٍّ كَنارِ الصَخرِ كامِنَةٍ أَمَتُّ إِظهارَهُ مِنّي فَأَحياني[٦]

ومن سلوكه صلة الرحم حتى مع من يقطعونه. يقول:

---

(١) الديوان، (١/٦٢)، طبعة بغداد.

(٢) نفسه، (١ / ٩٤).

(٣) نفسه، (١/١٤).

(٤) الديوان، (٢ / ٨٣)، طبعة دار بغداد.

(٥) الديوان، (١ / ٦٤)، طبعة بغداد.

(٦) نفسه، (١ / ١٨٣).

وَمن عَجَبِ الأيّامِ بَغــيُ مَعاشـرٍ غضاب عَلى سَبقي إذا أنا جارَيتُ
يَصُدّونَ عَن شُكري وَتُهجَرُ سُنَّتي عَلى قُربِ عَهدٍ مثلَ ما يُهجَرُ البَيتُ
لَهُــم رَحِـــمٌ دُنيـــاهُمُ يَعرِفونَها إذا أمّكوهـــا بالقَطيعَـــةِ أبقَيــتُ
فَذَلِكَ دَأبُ البِرِّ مِنّــي وَدَأبُهُــم إذا قَتلوا نُعمايَ بالكُفرِ أحيَيــتُ[1]

ثم ينتقل ابن المعتز إلى الفخر بآبائه وأجداده. يقول ابن رشـــيق: "وإنما طريقة المدح أن يجعل الممدوح يشرف بآبائه والآباء تزداد شرفا به فجعل لكل واحد منهم حظا في الفخر، وفـــي الممـــدوح نصـــيبا،... وإذا حصلت الحقائق كان النصيبان مقسومين بل كان الكل خالصا لكل فريـــق منهم، لأن شرف الوالد جزء من ميراثه ومنتقل إلى ولده كانتقال ماله فإن رعي وحرس ثبت وازداد وإن أهمل وضيع هلك وباد، وكذلك شرف الولد يعم القبيلة، وللوالد منه القسم الأوفر والحظ الأوفر".[2]

ولكن ابن المعتز عند فخره بنسبه لم يُردْ أن يفخر فخرا قبليًا؛ لأن الإسلام قضى على العصبية فقال الله تعالى:"إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَــاكُمْ"[3] وقال الرسول الكريم (ﷺ):" لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى".

فابن المعتز عند فخره بنسبه يريد أن يفتخر بعراقته في الإســـلام، ولذلك نجده عندما يفتخر بقبيلته بني هاشم لا يفتخر بهـــا ولكـــن بالبيـــت المخصوص الذي نزل فيه الرسالة يقول:

---

(١) نفسه، (١ / ٦١).
(٢) العمدة، (ص: ٣٥٧).
(٣) سورة الحجرات، (الآية: ١٣).

هاشميٌّ إذا نُسِبتُ وَمَحصو ... صٌ بَيتُ من هاشمٍ غيرَ عارِ[1]

ثم يفتخر بأن الإسلام تصدر للدنيا كلها من عندهم؛ ولم لا؟ أليسوا أهل الرسول (ﷺ)؟ يقول:

أَيُّها السائلي عَنِ الحَسَبِ الأَط ... يَبِ ما فَوقَهُ لِخَلقٍ مَزيدُ

نَحنُ آلُ الرَسولِ وَالعِترَةُ الحَـ ... قُ وَأَهلُ القُربى فَماذا تُريدُ

وَلَنا ما أَضاءَ صُبحٌ عَلَيهِ ... وَأَتَتهُ آياتُ لَيلٍ سودُ

وَمَلَكنا رِقَّ الإِمامَةِ ميرا ... ثًا فَمَن ذا عَنّا بِفَخرٍ يَحيدُ

وَأَبونا حامي النَبِيِّ وَقَد أَد ... بَرَ مَن تَعلَمونَ وَهوَ يَذودُ

وَسَعى لِلنَّبِيِّ في بَيعَةٍ تَمْـ ... ـمَ بِهَا الدِّينُ والعيونُ رُقُودُ[2]

وهو هنا إلى جانب فخره بأن الرسول منهم يفتخر بأحقيتهم بالخلافة؛ لأنهم قدموا للإسلام الكثير منذ وقوف جده العباس بن عبد المطلب بجانب الرسول بحضوره بيعة العقبة، وإخفائه إسلامه مع بقائه في مكة ينقل الأخبار إلى الرسول، ووقوفه بجانب الرسول في غزوة حنين "وهذا معنى مخصوص في الفخر لبني العباس".

ومن فخره أيضا فخره بالبيت الحرام حيث كان عبد المطلب بن هاشم مسئولا عنه قبل الإسلام، ويشير إلى موقعة الفيل وكيف أن الله نصرهم بالطير الأبابيل، حيث قال الله تعالى:" أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ

---

(١) الديوان، (١ / ١٠٣)، طبعة بغداد.

(٢) نفسه، (١ / ٨١).

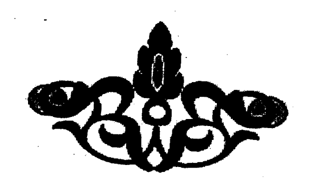
بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ(٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ(٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ(٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ(٥)».[١]

كما يفتخر أيضا بالرسول الكريم حيث أسري بـه مـن المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ممتطيا البراق ثم عرج به إلى السموات العلى.

يقول:

حسبي مكاني من أسرة كرمت	من فخرها أحمد وجبريل
وزمزم ركضة الملائك والـ	طير ذوات الحصى الأبابيل
وكلما أجدب الورى فينا	صرار خلف السماء محلول
وبين أبياتنا بمكة بيت	الله لم يبن مثله جيل
محجب تعفر الجباه له	في كل عام بالحج موصول
ومن مطاياتنا البراق إذا	هملج تحت الاكاسر فيل[٢]

ومن هنا كان فخر ابن المعتز بنسبه مرتبط بقربه مـن الرسـول (ﷺ)، أي هو فخر إسلامي أيضا.



---

(١) سورة الفيل، (الآيات: ١- ٥).

(٢) الديوان، (١ / ٢٨٥)، طبعة دار المعارف.

المديح

يعد المديح أبرز غرض فني في الشعر العربي، ويعني المديح بصفات الممدوح المادية والمعنوية (الخلقية) التي تجعله مثلا عاليا وصورة يقتدى بها... وهي صفات تبعث في نفس الممدوح الشعور بالرضا والارتياح لخصاله التي يتمتع بها وما ينبغي أن يكون عليه.

"وتقوم معاني المديح على المثل الخلقية التي يعتد بها العربي منذ جاهليته من مروءة وسماحة، وحزم، وعفة، وعزة نفس، وإباء، وشجاعة، وكرم".(١)

وفى الإسلام صار المديح الإسلامي يدور حول قيمة هداية الرسالة وصلتها بالله والإيمان بقيادة الرسول، والعدل في السيرة والالتزام بالحق والمساواة بين الناس والصدق في الدعوة، وتبليغ الرسالة وتطبيق أحكام القرآن".(٢)

وفي العصر العباسي" برز الإلحاح على المعاني الإسلامية بخاصة في مدح الخلفاء والوزراء على نحو لم يعهد من قبل، حيث كان المفروض وفقا لنظرية العباسيين في الحكم أن الخليفة الذي يرعى شئون الحياة هو

---

(١) التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول: د.مجاهد مصطفى بهجت، (ص:٢٢٩).

(٢) دراسات في الأدب الإسلامي: د.سامي مكي العاني، (ص : ٧٤).

في الوقت نفسه إمام المسلمين وحامي حمى الإسلام"[١]، كما صارت للمعانى الاسلامية مكانة كبيرة، وقيمة يمتدح بها علية القوم ".[٢]

وتبلغ المدائح عمقها وسعتها الحقيقية في الاتصال بالقيم الإسلامية والمظاهر الدينية عندما يمتدح هارون الرشيد، إذ كان حريصا على مثل هذه المثل في سلوكه وخلقه، يتحراها فيما يمتدح به، فيذكر " أن الشعراء اجتمعوا ببابه، فقال الرشيد للحاجب: اخرج إليهم، فقل لهم: من اقتدر أن يمدحنا بالدين والدنيا في ألفاظ قليلة فليدخل".[٣]

"ولهذا كان للإسلام أثره الواضح في شعر المديح في العصر العباسي إذ ألهم الشعراء أن يضيفوا في مديح الخلفاء والوزراء مثالية رفيعة فى الحكم، فتغنى لهم بتقوى الله والتمسك بالشريعة وبالعدالة التي لا تصلح حياة الأمة بدونها هذا إلى جانب المثالية في الشيم والطباع.[٤]

وبهذه المعاني الإسلامية وجدنا ابن المعتز العباسي يقدم المدائح لممدوحيه كل يأخذ منها حسب منزلته، ولذلك تدرج المديح من مديح للخلفاء ومديح لآل البيت ومديح للوزراء والقادة ومديح للعلماء وغير ذلك، وإن كانت بينهم خلافات يسيرة هي مناسبة للممدوح لكنها تدور حول المعاني الإسلامية.

---

(١) في الشعر العباسي،الرؤية والفن: د.عز الدين إسماعيل، (ص: ٣٥٩).

(٢) التيار الإسلامي في شعر العصر العباسى الأول، (ص: ٢٣٠).

(٣) طبقات الشعراء: لابن المعتز، تحقيق عبد الفتاح فراج، (ص: ١٥٠).

(٤) التيار الإسلامي، (ص: ٢٣٢).

(مديح الخلفاء)

نجد ابن المعتز عندما يريد أن يمدح الخليفة فيقول عنه:" بأنه يصلح الفاسد ويمنع الفاحشة، ويأمر بالعدل والإحسان بالدين... ويجمع الأمة على حبه والإخلاص له ويقوم بسداد أمورهم، فيدفع عن ثغورهم الأعداء، ويبسط الأمن فى البلاد.[١]

فنجد ابن المعتز يمدح الخليفة المعتضد بأنه أصلح ما فسد وأنه أعاد الهدي لحكمه بين الناس بالعدل يقول:

لَقَد شُدَّ مُلكَ بَني هاشِمٍ وَأَبدَلَهُ بِالفَسادِ الصَّلاحا

إِمامٌ أَعادَ الهُدى عَدلُهُ وَلاقى بِهِ المُرتَجونَ نَجاحا[٢]

ويمدحه بأنه يحكم بالعدل وأعاد المهابة للملك فيقول:

يا إِمامَ الهُدى وَيا أَحكَمَ النا سِ بِعَدلٍ في العَفوِ أَو في العِقابِ

يا مُعيدًا لِلمُلكِ يا مَلجَأً لِلـ أُسدِ حَتّى بَصبَصنَ بِالأَذنابِ[٣]

كما يمدحه بأنه يتخذ التقوي منهجا فى حياته يقول:

رَفَعتُ يَدي أَستَوهِبُ اللَهَ صِحَّةً لِخَيرِ إِمامٍ سالِكٍ في التُقى نَهجا[٤]

كما يمدحه بالاستقامة والهداية والعدل:

صراط هدي يقضي على الجور عدله ونور عكسي الدنيا من الحق ساطع[٥]

---

(١) نفسه، (٢٣٣).

(٢) الديوان، (١ / ٤٢٢-٤٢٣)، طبعة بغداد.

(٣) نفسه، (١ / ٤١٦).

(٤) نفسه، (١ / ٤١٦).

(٥) نفسه، (ص: ٧٤٢).

ويمدحه بالشكر على النعم، والصبر عن المصائب، فيقول، وهـو يعزيه في وفاة زوجته:

أنتَ عَلّمتَنا على النّعَمِ الشُكـ ـرَ وَعنْدَ الْمَصَائبِ التسليما[١]

ويمدحه بالسماحة والكرم والعفو في غير حدود الله وحسن الـرأي والشجاعة وتقدم الجيش في الحروب. وإعداد العدة للحرب وقـت السـلم. عاملا بقوله تعالى:" وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ "[٢]، فكان من نتيجة ذلك فـرح أعـداءه بالسـلم معـه وإعطاؤهم ما عليهم من مال يقول:

جُمِعَ الحَقُّ لَنـا في إمـامٍ قَتَلَ البُخلَ وَأحيا السَّـماحا
إنْ عَفا لَمْ يُلْـغِ للهِ حَقّـاً أوْ سَطا لَمْ نَخشَ مِنْهُ جُناحا
ألِفَ الهَيجاءَ طِفلاً وَكَهـلاً تَحسَبُ السَيفَ عَلَيهِ وِشاحا
وَلَهُ مِـن رَأيِـهِ عَزَمـاتٌ وَصَلَ اللّهُ ضِمنَهُنَّ نَجاحـا
يَجعَلُ الجَيشَ إذا صارَ ذَيلاً جُرأَةً فيهِ وَبَأسـاً صُـراحا
فَرِحَ الأعداءُ بالسلمِ منـهُ وَهوَ في السلمِ يُعِدُّ السلاحا
فَرَّقَت أيديهِمُ المالَ كُرهـاً وَلَقَد كانوا عَلَيهِ شِحاحا[٣]

كما يمدحه بقيادة الجيش في الفتوح لا يبالي القـلاع والحصـون يقول:

سَحبَ الجُيوشِ فَكَم بِها فُتِحَت بَعدَ التَمَنُّـعِ بَلْـدَةٌ بِكـرُ

---

(١) نفسه، (ص: ٥٠٠).
(٢) سورة الأنفال، (الآية: ٦٠).
(٣) الديوان، (١ / ٤١٩).

مــا رَدَّ عَــن مُتَحَصِّــنٍ يَــدَهُ إِلَّــا وَقَلعَتُــهُ لَــهُ قَــبرُ
مُستَأسِــدٌ فِي الحَــربِ هِمَّتُــهُ قُدّامَهُ وَالقَتــلُ وَالأَسـرُ[1]

ويمدحه بإحقاق الحق والسهر على شئون الرعية:

وبالحق يــنعش قومــا بــه وبالحق يهلك قوما بــه
ويسهر والنــاس في غفلــة لأمر يفكــر في غيــه[2]

وبهذا ينال الخليفة حب الرعية. فيقول في مدح الخليفــة المكتفــي الذي ولي الخلافة بعد أبيه، المعتضد. يقول:

بِالمُكتَفي كُفِيَ الأَنامُ هُمُــومَهُم وَغَدا عَلَيهِم طالِعٌ مَســعودُ
جَاءوكَ يَحشُرُهُم إِلَيــكَ مَحَبَّــةٌ طَوعًا وَسَيفُكَ عَنهُمُ مَغمــودُ
وَلَطالَما ظَمِأَت إِلَيكَ نُفوسُــهُم وَطَريقُ بابِكَ عَنهُمُ مَسدودُ[3]

"ولم تكن همة الخلفاء منصرفة إلى الدين دون الدنيا لأن التصــور الإسلامي للحياة قائم على أنها خلافة وعمارة ولنا فيها حظ".[4]قال تعالى: " وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا "[5]؛ ولذلك جــاء مديح الخلفاء بحرصهم على صلاح الدنيا قدر حرصهم على صلاح الدين.

يقول ابن المعتز:

---

(١) نفسه، (١ / ٤٤٨).
(٢) نفسه، (١ / ٣٩٧).
(٣) الديوان، (١/٤٢٩).
(٤) التيار الإسلامي، (ص:٢٤٣).
(٥) سورة القصص، (الأية: ٧٧).

واعتضد الدين والدنيا بمعتضد ... بالله في الله ما أعطى وما صنعا[١]

كما يمدح ابن المعتز الخليفة المعتمد بما تم في عصره من بناء وعمران وتشييد قصور. يقول:

والتل والبستان قد بسطت ... خضراؤه وأنار جوسقه

لما أتاه به مبشره ... ما كاد من فرح يصدقه

والأحمدي إليه منتسب ... من قبل والمعشوق يعشقه[٢]

****

(مديح آل البيت)

وخرج ابن المعتز على غير عادة العباسيين يمدح آل البيت وخاصة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. يروى عنه أبو بكر الصولي راوي ديوانه يقول:" إنه كان يذكر عليه أصحاب رسول الله (ﷺ) لا يذكر له أحدا إلا عدد فضائله وناضل عنه ونصره، إلا أنه كان يقدم بني هاشم ويفضلهم... ثم حدث في آخر أيامه شعر فيه مفاخرة لأهله وبني عمه الطالبيين، وكان يرى أنهم يناقضونه الشعر فكان قوله يمضي على ذلك، وتمر له أبيات يتأول فيها شيئًا فيتأول أعداؤه غير ذلك، ويحتمل الشعر المعنيين. حتى اجتمع إليه جماعة من الطالبيين منهم أبو الحسين محمد بن الحسن المعروف بابن البصري وكان يجالسه على قديم الأيام.

---

(١) الديوان، (١/٤٧٤)، طبعة بغداد.

(٢) الديوان، (١/٤٨٣)، طبعة بغداد. (التل والبستان والجوسق والأحمدي والمعشوق) أسماء لقصور في سر من رأى.

ومنهم القاسم بن إسماعيل فحلفوا له أنه ما يقول هذه الأشعار أحد منهم، فتندم على ما كان من قوله... ثم عمل أشعارًا يعتذر فيها ويمدح أمير المؤمنين عليًا وولده، وأعطى الله عهدا ليقولن باقي عمره في هذا الفن".[1]

فنراه يمدح عليا بن أبي طالب بما أثر عنه من محاسن جمة وخصال حميدة، من سبق في الإسلام، وتأييد ونصر للرسول (ﷺ)، وشجاعة وبلاء حسن في قتال الكافرين واليهود في بدر وأحد والأحزاب وخيبر وبني قريظة. كما يشير إلى فيض علمه وتمكنه في القضاء وزواجه من خيرة النساء العالمين، ثم يشير إلى الحسين بن علي وما صنع به يقول:

مُجَلّي الكُروبِ وَلَيثُ الحُروبِ ... في الرَهَجِ الساطِعِ الأَشهبِ
وَبَحرُ العُلومِ وَغَيظُ الخُصومِ ... مَتى يَصطَرِع وَهُمُ يَغلِبِ
يُقَلِّبُ في فَمِهِ مِقوَلاً ... كَشِقشِقَةِ الجَمَلِ المُصعَبِ
وَأَوَّلُ مَن ظَلَّ في مَوقِفٍ ... يُصَلّي مَعَ الطاهِرِ الطَيِّبِ
وَكُفؤًا لِخَيرِ نِساءِ العِبادِ ... ما بَينَ شَرقٍ إِلى مَغرِبِ
وَأَقضى القُضاةِ بِفَصلِ الخِطابِ ... وَالمَنطِقِ الأَعدَلِ الأَصوَبِ
وَفي لَيلَةِ الغارِ وَقّى النَبِيَّ ... عِشاءً إِلى الفَلَقِ الأَشهَبِ
وَباتَ ضَجيعًا بِهِ في الفِراشِ ... مُوطِّنَ نَفسٍ عَلى الأَصعَبِ
وَعَمرُو بنُ عَبدٍ وَأَحزابُهُ ... سَقاهُم حَسا المَوتِ في يَثرِبِ
وَسَل عَنهُ خَيبَرَ ذاتَ الحُصونِ ... تُخَبِّركَ عَنهُ وَعَن مَرحَبِ
وَسِبطاهُ جَدُّهُما أَحمَدٌ ... فَبَخٌّ لِجَدِّهِما وَالأَبِ
وَلا عَجَبٌ غَيرَ قَتلِ الحُسَينِ ... ظَمآنَ يُقصى عَنِ المَشرَبِ
لَئِن كانَ رَوَّعَنا فَقدُهُ ... وَفاجَأَ مِن حَيثُ لَم يُحسَبِ

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء: أبي بكر الصولي، (ص: ١٠٧- ١٠٨).

فَكَم قَـد بَكَينـا عَلَيـهِ دَمـاً ... بِسُـمرٍ مُثَقَّفَـةِ الأَكعُـبِ[١]

****

(مديح القادة الوزراء)

راج فن المديح في هذا العصر واتسع، فخرج من الخلفاء إلى قادة الحروب والمعارك... فكان مديح الأبطال لونا جديدا من المديح إذ غايرت معانيه معاني مدائح الخلفاء... فالشعراء يمدحون فيهم البطولة والمروءة ومواقف القتال والحرب.

" ويكثر هذا المديح لمن اتصلوا بالحرب اتصالا مباشرا بقيادة الجيوش أو اتصالا غير مباشر بأن يكونوا من أبناء القواد أو من الخلفاء والولاة الذين تسير الجيوش باسمهم إلى ميادين القتال".[٢]

فنجد ابن المعتز يمدح الموفق عمه وقائد الجيش على عهد الخايفة المعتمد وأبا الخليفة المعتضد، يمدحه بنصرة الدين والإسلام وهازم الزنج ومعيد مجد الخلافة الدارس.

فيمدحه بنصرة الإسلام بعد أن تخلى عنه أهله. يقول:

يا ناصرَ الإِسلامِ إِذ خُـذِلَت ... دَعَواتُهُ فَابتَلَّ وَانتَعَشـا

لَمّا اسـتَغاثَ وَقَـلَّ ناصِـرُهُ ... لَبَّيتَهُ وَسَعَيتَ مُنكَمِشـا

كَاللَّيـثِ لا تُبقـي مَخالِبُـهُ ... يَدًا لِجارِحَةٍ إِذا بَطَشا[٣]

---

(١) الديوان، (١/٤١٠ – ٤١١-٤١٢)، طبعة بغداد.

(٢) ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده: د. درويش الجندي، (ص: ١٤٤).

(٣) الديوان، (١/٤٦٢)، طبعة بغداد.

ويقول فيه أيضا:مادحه بنصرة الدين وقيادة الجيش وسياسة أمور الملك:

يا ناصرَ الدينِ إذ هُدَّتْ قواعِدُهُ ... وأصْدَقَ الناسِ في بُـؤْسٍ وإنعـام
وقائدَ الخيلِ مذ شُـدَّتْ مـآزِرُهُ ... مـذلَّلاتٍ بإسْـرَاجٍ وإلجـامِ
وسائسَ الملك يَرْعـاه ويكلـؤُهُ ... إذا حَلاَ الغَمْضُ في أجفانِ نُوَّامِ[1]

وربما يشير في الشطر الثاني من البيت الأخير إلى الخليفة المعتمد الذى كان خليفة بالاسم فقط أما تدبير أمور الخلافة وقيادة الجيش كانت في يد الموفق لذلك جاءت مدائحه مشابهة لمدح الخلفاء.

وربما يتضح الفرق بين مديحه في الموفق وبين مديحه في بقية القواد عندما يمدح بدر المعتضدي. وهو كان أحد أمراء الجيش العباسي في عهد الخليفة المعتضد وكان جوادا شجاعا محبا للعلماء"[2]، فيمدحه بصدق نصيحته للخليفة وحسن المنادمة في غير أيام الحرب، وفي الحرب ليث غاب وكأنه خلق كما يريد الخليفة، يقول:

ما رأينا للمُلك أنصَحُ منهُ ... أينَ ذا من أولَئكَ الأصـحاب
تابعٌ ما تُحبُّ في كُلِّ شيءٍ ... ولمـا لا تُحبُّـهُ ذو اجتنـاب
مُؤنسٌ يومَ لَـذَّةٍ ونَـديمٌ ... وَهوَ في حَومَةِ الوَغى لَيثُ غاب
هُوَ خُلقٌ كَما أرَدتَ وَحَظٌّ ... من عَطايا المُهَيمنِ الوَهّـاب[3]

---

(١) نفسه، (١/٥٠٢-٥٠٣).

(٢) تاريخ بغداد، (٧/١٠٥).

(٣) الديوان، (١/٤٠٢)، طبعة بغداد.

أما معظم مدائحه في الوزراء كانت من نصيب بني وهب، ولا عجب فقد وزر ثلاثة منهم لبني العباس في فترات متعاقبة وكان اتصال الشاعر قويا بعبيد الله بن سليمان وابنه القاسم، وفي آل وهب يقول:

لآل سليمان بن وهب صنائع   إليّ ومعروف لديّ تقدّما
هموا علموا الأيام كيف تبرني   وَهُمْ غَسَلُوا عَنْ ثَوْبِ والدي الدّمَا[١]

" وإن دل موقف الشاعر من بني وهب، ومدائحه فيهم على شيء، فعلى أن البلاط العباسي كان مليئا بالفتن والدسائس، وأن حياة البارزين من أفراد الأسرة الحاكمة وحريتهم كانت دائما في خطر، وإن أقل وشاية كانت كافية للإطاحة برؤوسهم، أو إلقائهم في غياهب السجون والمعتقلات، مما اضطر صاحبنا – رغم أنه أمير وابن الخليفة –إلى أن يتطامن أمام بني وهب إبقاء على حريته وحرصا على حياته".[٢]

فيقول يمدح القاسم بن عبيد الله، بالوزارة بعد جده وأبيه ويمدحه بحسن الرأي وحسن تدبير الأمور، وأسلوبه وبيانه أن الوزارة كانت حريصه عليها، لأنها تجد فيه خير من يليها:

يا ثالثَ الوُزَراءِ كَم مِن حَلقَةٍ   للكَربِ وَالأحزانِ قَد فَرَّجتَها
وَخَفِيَّةٍ بِالفِكرِ قَد ناجَيتَها   وَعَواقِبٍ بِالرَأيِ قَد أبصَرتَها
وعزيمة أمضيتها، وكريهة   صابرتها، ومكيدة قد كدتها
وَلَرُبَّ مَعنى حِكمَةٍ أفرَغتَهُ   في قالِبٍ مِن لَفظَةٍ أوجَزتَها
مِثلِ العَروسِ تَزِفُّها لَكَ نَفسُها   جاءَتكَ مُسرِعَةً وَما أمهَرتَها[٣]

(١) الديوان، (١/٥١٠)، طبعة دار المعارف.
(٢) عبد الله بن المعتز العباسي: محمد عبد العزيز الكفراوي، (ص: ٧١).
(٣) الديوان، (١/٤١٥ - ٤١٦)، طبعة بغداد.

كما نجده يمدح عبيد الله بن سليمان بأن الله عمر الوزارة به وأنها قد قرب قرارها بعد أن وليها وكانت قبله غير مستقرة. يقول:

لَقد عَمَّرَ اللهُ الوَزارَةَ باسمِــه وَرَدَّ إليها أهلَها بَعـدَ إقفــارِ
وَكانت زَمانًا لا يَقرُّ قَرارُهــا فَلاقَت نِصابًا ثابتًا غَيرَ خَوّارِ(١)

****

(مديح العلماء والصالحين)

"ومن المديح الإسلامي ما جاء حافلا بالإشادة بالعلماء والصالحين، إذ كانوا وجوه الأمة وأطوادها.. وكان من جلالهم وهيبتهم أن اتجه إلـيهم الشعراء ليشهدوا لهم، ويكرموا مقامهم ومنزلتهم... ومظهر الصدق في هذا المديح أوضح مما مضى، لصدق بواعثه وعدم إثباته بمصلحه خاصة مما يؤمله الشاعر تجاه الآخرين".(٢)

ومن الطبيعي أن يمدح التلميذ أستاذه بما يجد فيه من خلق وعلـم كبيرين. ولهذا " كان عبد الله بن المعتز يحب لقاء أبي العباس أحمـد بـن يحيي ثعلب ويعلمه ذلك، وكان أبو العباس أحمد بن يحيي يعتذر إليه فـي تخلفه عنه بأنه ضعف عن أن يمضي إلى أحد.

فكتب إليه عبد الله يعرفه شوقه إليه، ويصف مقداره فـي العلـم، ويعتذر من ترك إتيانه؛ لأن الركوب ليس بسائغ له:

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء، (ص:١٢٦).

(٢) التيار الإسلامي، (ص: ٢٦٦).

ما وَجْدُ صادٍ في الحبالِ مُوثَقِ ... بماءِ مُزْنٍ باردٍ مُصَفَّقِ
بالرِّيحِ لَمْ يُطْرَقْ وَلَمْ يُرَنَّقِ ... جادَتْ به أخلافُ دَجْنٍ مُطْبِقِ
بصَخْرةٍ إنْ تَرَ شَمْساً تَبْرُقِ ... فَهْوَ عَلَيْها كالزُّجاجِ الأَزْرَقِ
صَريحِ غَيْثٍ خالصٍ لَم يُمذَقِ ... إلّا كَوَجدي بكَ لَكِن أَتَّقي
يا فاتحًا لكُلِّ علمٍ مُغلَقِ ... وَصَيْرَفِيًّا ناقِدًا للمَنطقِ
إن قالَ هَذا بَهرَجٌ لَم يَنفُقِ ... إنَّا عَلى البُعادِ وَالتَفَرُّقِ

لَنلتَقي بالذِكرِ وَإِن لَم نَلتَقِ[1]

****

(مدح المدن)

لقد ظهر هذا الاتجاه عند شعراء القرن الثاني الهجري وجرى شعراء القرن الثالث مجراهم، ولهذا نجد أن ابن المعتز يكثر من مدح (سر من رأى). فيقول من ذلك:

أَنعمي يا سُرَّ مَنْ رَأى صَبَاحَا ... وَإذا غَادَاكِ غَيْثٌ فَرَاحَا
دِيَمًا في كُلِّ يَومٍ وَوَبلاً ... وَاغتباقًا بالنَدى وَاصطِباحا
كُلُّ مَن يَنأى مِنَ الناسِ عَنها ... فَهوَ يَرتاحُ إِلَيها ارتِياحا
لا أَرى مِثلَكِ ما عِشتُ دارًا ... رَبوَةٌ مُخضَرَّةٌ أَو بِطاحا
لَو حَلَلنا وَسطَ جَنَّةِ عَدنٍ ... لَاقتَرَحناكِ عَلَيها اقتِراحا
تتفقا عن رياحين روض ... يسحب الليل عليها الرياحا
وَإِذا ما ذَرَّتِ الشَمسُ فيها ... فَتَحَت أَعيُنَ رَوضٍ مِلاحا
في ثَرىً كَالمِسكِ شيبَ بِراحٍ ... كُلَّما أَنبَتَهُ القَطرُ لاحا[2]

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء، (ص: ١١٤– ١١٥).

(٢) الديوان، (١ / ٤٤٢)، طبعة دار المعارف.

الرثاء

لعل أصدق الفنون شعورا، وأحفلها عاطفة فن الرثاء الصادر من قلب ملتاع ونفس فقدت أثيرا وخليلا – فتفيض منه المشاعر ألما وحزنا ودموعا وبكاء.ويتضمن الرثاء:

١-معنى الندب بالنواح على الميت والبكاء عليه بالألفاظ المحزنة.

٢-معنى التأبين بالثناء على الميت وذكر محامده ومناقبه.

٣-معنى التعزية والمواساة لأولياء الميت بالصبر والرضا بقضاء الله[١] إقتداء بقوله تعالى:" وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ ".[٢]

ولقد رثى ابن المعتز العباسي العديد من الشخصيات التي تأثر بها في عصره وكان رثاؤه لهم صادقا في أحاسيسه. تنم كلماته عن تفجع وحسرة لفراقهم، مما يدل على تأثره البالغ بمن رثاهم وصدقه في رثائه.

فنجد ابن المعتز يندب ويبكي عبيد الله بن سليمان بكاءا حارا، فكم قدم له هذا الرجل من معروف وحماه من غوائل الأيام ولذلك نجد ابن المعتز متأثرا جدا لفراقه حتى إنه لم يصبر على رحيله. يقول:

حب الإله جـواره فأحلـه ... في جنة نفست على الدنيا بـه

ومضى كما يمضي الربيع بحزنه ... غراء آخـر غيثـه وسـحابه

(١) التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول، (ص:٢٨١).

(٢) البقرة، (الأيتان: ١٥٥- ١٥٦).

يبس النبات الغض بعد فراقه	من طل ضحوته وبرد شـــرابه
قالوا تصبر قد أثبت بفقــده	يا ليته حي مكـــان ثوابـــه[1]

وفى أبيات أخرى يصور لنا ابن المعتز تفجعه عليه وأنه بقي حيًّا بعده رغمًا عنه فهو كان يتمنى أن يعزى هو إليهم لا يعزون إليه يقول في أبيات مملوءة بالحرارة والصدق:

يا ابنَ وَهْبٍ بالكُرْه منّي بقيتُ	عجبي يوم متَّ كيف حَيِيــتُ
أيها الدهر ليس يحسن أن تـــ	حسن ما للكرام منك بخوت
أين أهلي وأين أحباب نفســي	ليتهم بي عزوا ومــا عزيــت
كـــل يـــوم كـــأنهم وكـــأني	ورق هـــز غصـــنه محتـــوت
حسرة ما احتسبتها في عبيـــ	ــد الله قلبي بحرها متكـــوت
إنما طيّب الثناء الذي خلفــت	لا مِسْــك نَعْتِــك المفتــوتُ
واختصرت الطريق بعدك للمو	ت فلاقيتُه ولســـتُ أفــوتُ
يا لهــا فجعـــة تغطـــت بآمـــا	لي حـــتى بيومهـــا فوجيـــت
ذكـــروه بكـــان يرحمــــه الله	فيا لهفة بهـــا قـــد شـــجيت
إن تكن فـــتني فـــالبكره مـــني	وبما يبتلى الظنين ابتليــت[2]

ومن المعاني الإسلامية الواضحة ندب الشعراء أنفســـهم وكـــأنهم ينعونها بقرب الرحيل والأجل " وهذا من بديع الرثاء، وتأثيره في الـــنفس ووقعه عليها لا يخفي؛ ذلك أن الشاعر يذكر نفسه بالموت، ويهيئهـــا لــــه، ويعد العدة لاستقباله، وهذا يهيج عواطف من حوله عليه "[3] ويأتي الشعر

---

(١) الديوان، (٢/٣٢٤)، طبعة دار المعارف.

(٢) الديوان، (٢ /٣٢٧-٣٢٨). طبعة دار المعارف.

(٣) التزام في الشعر: ناصر عبد الحمن الخنين، (ص:٢٦٥).

هنا حاملا معاني التوبة والإنابة، والتطوع وطلب العفو والرحمة من الله تعالى على ما فرطوا في جنبه.

وهنا نجد ابن المعتز يندب نفسه مبينا سلطة الموت القوية فهو يستطيع أن يأخذه في أية لحظة، كما أنه ينقص من قوته كل يوم حتى يستأثر به في النهاية. يقول:

من ترى من عايش خالد ... كم ترى من هالك مات فاني
لو أعنت العين إذ أبصرت ... واعظاتٍ بفؤادي كفاني
كيف والدنيا لها ممسك ... بعناني إن عدلت عصاني
أي شيء أتقي والردى ... بين جنبي بعيني يراني
يعذر الموت بأسقامه ... وهو من دون السقام دهاني
كل يوم ناقص قوة ... من بقائي جاذب عناني
قد قسا العيش على أهله ... وبدت أخلاق هذا الزمان
ورأيت الموت مستأثرا ... بالذي تكره نفسي عناني
والاقيه بلا جنة ... فإن شاء حيني زماني[1]

ويتجاوز الندب الأحبة والأقرباء إلى المدن حين تشتد بها المحن وتحيق بها المخاطر " فرثاء المدن في العصر العباسي كان يمثل موقفا جديدا لشاعر العصر، فرضته عليه ظروف الحياة في المدينة وارتباطه الوجداني بها، إلى جانب الأحداث والظروف السياسية الداخلية التي عرفها ذلك العصر وإن لم يكن تراثه الشعري القديم تقاليد فنية راسخة لمثل هذا الرثاء، كان عليه أن يعول على نفسه في ابتكار الأطر المعنوية والفنية

---

(١) الديوان، (٢ / ٣٦٩ – ٣٧٠)، طبعة بغداد.

التى يصوغها فيها[١]، ونجد ابن المعتز يندب (سر من رأى) بعد أن صارت أطلالا دوائر، ومزقتها أكف البلى. يقول من قصيدة طويلة:

أشجتك بُعْدَ الحَيِّ منـــ ـــزلة وأطلال دوائر
وكأنما سحبت عليـــ ـــها الريح أطراف المآزر
حتى عفت آياتها فكأنها ترقيش ساطر
وسحابة مملوءة حبلا رواياها مواقر
تدع السماء كأنها وشل تكدره الأعاصر
لم يبق منها غير آيا ت لذكراها غوابر
والنوى كالضلع الكسيـ ـرة لم تقومها الجبائر
وملبب بالجبل أشـ ـعث غير مدهون الغدائر
شبح الولائد رأسه بالفهر وهو لهن صابر
فكأن حر الشوق لم يقبل بسكانها المجاور[٢]

" وحين يتجه الشاعر في شعره إلى تأبين الميت بذكر مناقبه ومحامده يعرض لخصاله التي عرف بها في حياته من شجاعة وكرم ووفاء، وسماحة وسيادة وشرف مما كان يمتدح به في حياته، ويسبغ عليه الأخلاق الإسلامية مما اختص واقترن بالإسلام من مُثل وقيم دينية. فيؤبنه بالعدل والتقوى والزهد في الحياة، وإخلاص الوجه لله والجهاد والعمل الصالح".[٣] ومن ثم فإننا نتوقع أن يكون مدار الرثاء على المعاني التي

---

(١) في الشعر العباسي، الرؤية والفن: د. عزا لدين إسماعيل، (ص: ٣٧٨).

(٢) الديوان، (٣٤١/٢)، طبعة دار المعارف.

(٣) التيار الإسلامي، (ص:٢٨٦).

تبرز في الوقت نفسه في قصيدة المدح".[١] فليس بين الرثاء أو المدح فرق إلا أن يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت مثل كان أو عدمنا به كيت وكيت أو ما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت.[٢]

وأول ما نلاحظه في تأبين ابن المعتز هو مناسبة الرثاء لمن يرثيهم، مثلما كان يناسب بين المديح والممدوح تماما.

....

(تأبين الخلفاء)

فابن المعتز يؤبن المعتضد بما كان يمدحه من قبل وحسبنا أن نقرأ هذه القصيدة لنرى فيها الخليفة المعتضد بما عرف من الفروسية، والعدل، والمهابة، والوقار، والقضاء على الثروات، والبناء والعمران وغير ذلك.

يقول ابن المعتز:

يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحدًا	وأنت والد سوءٍ تأكل الولدا
أستغفر الله بل ذا كله قدر	رضيت بالله ربا واحدا صمدا
يا ساكن القبر في غبراء مظلمة	بالظاهرية مقصى الدار منفردا
أين الجيوش التي قد كنت تسحبها	أين الكنوز التي لم تحصها عددا
أين السرير الذي قد كنت تملؤه	مهابة من رأته عينه ارتعدا
أين الأعادي الألى ذللت صعبهم	أين الليوث التي صيرتها بعدا
أين الرجاء الذي قد كنت تصحبه	أين أمانيك في الدنيا غدا وغدا
أين الوفود على الأبواب عاكفة	ورد القطا صفو ماء جال واطردا
أين القصور التي شيدتها فعلت	ولاح فيها سنى الإبريز فاتقدا

---

(١) في الشعر العباسي: الرؤية والفن، (ص: ٣٦٢).

(٢) العمدة لابن رشيق، (ص: ٣٥٨).

أين الجنان التي تجري جداولها وتستجيب إليها الطائر الغردا
أين الرجال قياما في مراتبهم من راح منهم ولم يطمره فقد سعدا
أين الوصائف كالغزلان رابحة يسحبن من حلل موشية جددا
أين الجياد التي حجلتها بدم وكن يحملن منك الضيغم الأسدا
أين الرماح التي غذيتها مهجًا مذ مت ما وردت قلباً ولا كبدا
أين السيوف وأين النبل مرسلة يصبن ما شئت من قرن وإن تعدا
أين المجانيق أمثال الفيول إذا رمين حائط حصن قائم قعدا
أين الوثوب إلى الأعداء مبتغيا صلاح ملك بني العباس إذ فسدا
ما زلت تقسر منهم كل قسورة وتخبط العالي الجبار معتمدا
ثم انقضيت فلا عين ولا أثر حتى كأنك يومًا لم تكن أحدا (١)

أظن أن الدارس لتاريخ الخليفة المعتضد بالله لو قرأ هذه القصيدة بدون أن يعرف – مسبقا – أنها رثاء له، لكتب عنوانها وحده " في رثاء المعتضد ".

ومن تأبينه لأهل البيت، نجده يرثي الحسين بن علي كرم الله وجهه، ويصفه بالتقوى والشجاعة ويصف الأمويين بالغدر والخيانة. يقول:

حر أنفاسي ليوم حسين وإليه حسن وفد مقالي
لك نفسي من قتيل وقلت يوم يدعو المعلمون نزال
مستضيف مشروع الماء يقرى ضبة النصل ووقع النبال
كنت حلالا برغم الأعادي وعلى القرن جريء الصيال
وخلا المحراب من عامريه ولقد يمسى بكم غير خالي
أسد فلت شباه المنايا فأصابته صروف الليالي

---

(١) الديوان. (٢/٣٣٠ – ٣٣١)، مطبعة دار المعارف.

من لخيل خضبت تحت نقع | كدخان طار عن جمر صالي
من لخصم عرم الشر فيه | تلقح العاقر بعد الحيال
يا خليلي ألقيا عبد شمس | بمقال ناطق عن فعال
كنتم بالغدر أولى وكنا | بتقاضي التبل أولى الموالي
فجزينا الكيل صاعا بصاع | ولكم نقص على كل حال(١)

أما تأبينه للوزراء، فنجده يرثي عبيد الله بن سليمان بالحلم والعلم والعقل وصواب الرأي، وهي أشياء كان يمدحه بها. يقول:

لما شفى مرض الخلافة رأيه | بصواب أمري: عفوه وعقابه
مستظهرا قبل الخطوب بعده | والسيف يشحذ قبل خبر ضرابه
وأضاء من تدبيره ملك دجا | زمنا وذلت أسده لكلابه
وأفاض عدلا للبرية شاملا | ليست تروع شاؤه بذئابه
ودعا الليوث فجئن من آجامها | فإذا بدا بصبصن تحت ركابه
حسب الإله جواره فأحله | في جنة نفست على الدنيا به(٢)

ويقول:

لِلّهِ ما ضُمِّنَ مِنكَ التربُ | حِلمٌ، وَعِلمٌ، بارِعٌ، وَلُبُّ(٣)

ومن رثاءه للعلماء والأدباء:

تأبينه للحسين بن ثوابة الشاعر، يقول منها مشيرا إلى شعره وقوافيه وحسن أسلوبه وكتابته:

---

(١) الديوان، (٢/٣٥٣)، طبعة دار المعارف.
(٢) الديوان، (٢/٣٢٤).
(٣) نفسه، (٢/ ٣٢٣).

لـــيس شـــيءٌ لصـــحّة ودَوام غلبَ الدهرُ حيلــة الأقــوَامِ
وتـــولّى أبـــو الحُســـين حميـــدًا فعلى رُوحـــه أجـــل الســـلامِ
كَانَ رَيْحانـــة النـــدامى وميـــزا ن القَوافِي شعراً وبَحْر كَـــلاَمِ
ومكان الفهم الذي لا يُرَى الشــ ـــكُ ولا يســـتغيث بالأفهـــام
ساحر الـــوحي في القـــراطيس لا تحـــبس عنـــه أعنّـــة الأقـــلام
وإذا ما رأيته خِلْـــت في كفّـــ ـــيْه صُـــبْحاً منقّبًـــا بظـــلام
نفسُ، صَبْراً لا تجزَعِـــي إن هـــذا خُلق مـــن خلائـــق الأيـــام[1]

" وفي العزاء وقف الشعراء عند فكرة الاحتساب والرضا بما عند الله والصبر على قضائه".[2] كما قال ابن المعتز يعزي المعتضد عن جارية له تعرف بدريرة، وهي أم إبراهيم ابنه:

يا إمام الهدى بنا لا بك الهـــ ـــم وأفنيتنا وعشـــت ســـليما
أنت علمتنا على النعم الشكـــ ـــر وعند المصائب التســـليما
فاسل عما مضى فإن التي كـــا نت سرورًا صارت ثوابًا عظيما
قد رضينا بأن نمـــوت وتحيـــا إن عندي في ذاك خطًا جسيما
إن يكن ساءك الفراق بـــألف بعد ما سرك التلاقـــي قـــديما
فكذا الدهر لا أعـــاد إليـــك الله شـــــرا ولا أراك هومـــا
من يمت طائعًا لديك فقد أعـــ ـــطي نورًا ومات موتًا كريما[3]

---

(١) الديوان، (٣٦٦/٢)، مطبعة دار المعارف.
(٢) التيار الإسلامي، (ص: ٢٩٢)
(٣) الديوان، (٥٠٠/١ – ٥٠١)، طبعة بغداد.

وفي النهاية نضيف هذه الفضائل الإسلامية التي تصاحب الميت وسجلها الشعر. من هذه الفضائل (الصلاة على الميت). يقول ابن المعتز في رثاء المعتضد:

قضوا ما قضوا من أمرهِ ثم قدموا ... إمامًا لهم والنعشُ بينَ يديهِ

فصلوا عليه خاشعينَ كأنهم ... قيامٌ صفوفًا للسلامِ عليه[١]

ومن هذه الفضائل الدعاء للميت بالمغفرة. يقول ابن المعتز يرثي بعض الإخوان:

فضمان الله بالغفر لكم ... ورضا الله رحيب المشرع

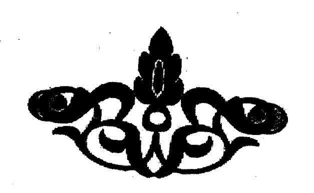
لا تظنوا أنني قد فتكم ... سوف آتيكم وإن لم أسرع[٢]

ويقول في رثاء الموفق:

تلقاه غفر الله من ميت ثوى ... ومن يلقه غفرانه فهو فائز[٣]

وقال في رثاء آخرين، يدعو برضا الله ودخول الجنة:

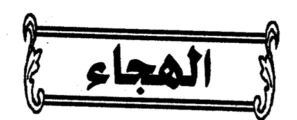
علل السقيا لأقبركم ... ورضا الله ويرد الجنان



(١) الديوان، (٢/٣٧٥)، طبعة دار المعارف.

(٢) نفسه، (٢/٣٥٠).

(٣) نفسه، (٢/٣٤٥).



فن شعري وغرض من أغراض الشعر الغنائي عند العرب، يجرد فيه الشاعر المهجو من القيم والمثل والأخلاق، ويكشف عن عيوبه ونقائصه بقصد إهانته والازدراء به.

" فإذا كان المديح تعبيرا عن الفضائل، وإظهارا لعظمتها في شخص المتصف بها، وكان الهجاء ضد المديح، فإن الهجاء تعبير يبرز الرذائل في صورة بغيضة تنسب إلى المهجو وتلصق به".[١]

وكلام قدامة بن جعفر ومقاييسه هنا في فن الهجاء مبني على كلامه في فن المديح فيقول:" إنه قد سهل السبل إلى معرفة وجه الهجاء، وطريقة ما تقدم في قولنا في باب المديح وأسبابه، إذ كان الهجاء ضد المديح، فكلما كثرت أضداد المديح في الشعر كان أهجى له، ثم تنزل الطبقات على مقدار قلة الأهاجي فيها وكثرتها".[٢]

"والهجاء على أنواع، منه الهجاء الشخصي: وفيه يتناول الشاعر المهجو في عرضه ونسبه، وخلقه، وخلقته، والهجاء السياسي: الذي ينال من القبيلة والسلطان والسياسة، والهجاء الديني: يعرض للعقيدة والمذهب

---

(١) قدامة بن جعفر والنقد الأدبي: د. بدوى طبانة، (ص:٣٥٣).

(٢) نقد الشعر: لقدامة بن جعفر، تحقيق د. خفاجي، (ص: ١١٣).

والدين، والهجاء الاجتماعي: يصف الأخلاق العامة وطبقات الأمة ويرسم انحلالها ".[١]

ويهمنا من الهجاء، ما كان متصلا بأثر الحضارة عليه أي الهجاء الديني بجانب المستجدات الحضارية. فنجد في الحقيقة أن الإسـلام ينكـر ويلغي الهجاء في المجتمع الإسلامي، ويوصد باب التهاجي بين المسلمين؛ لأن موضوعه يدخل فيما نهى الله عنه بقوله تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"[٢]

فأما الهجاء المتصل بالقيم الإسلامية والمثل الدينية " فالشاعر حين يعيب على المهجو انحرافا في دينه وعزوفه عن الاستقامة، وانصرافه إلى الآراء والأفكار والقيم الوافدة يكون هجاؤه دينيا إسـلاميا.. ويلاحـظ أن الآثار والسمات الإسلامية في هذا الغرض ضئيلة بالنسـبة لغيرهـا مـن الأغراض، لكن هذه الملامح لا نفقدها ولا يتجـرد عنهـا هـذا الغـرض الشعري".[٣] ومن أجل إظهار هذه الملامح نبدأ بسلب الصفات الحسنة التى أقرها الإسلام ثم بالصفات المنافية للإسلام.[٤]

---

(١) الهجاء، د. سامي الدهان، سلسلة فنون الأدب، دار المعارف، (ص: ١١).

(٢) سورة الحجرات، (آية: ١١).

(٣) التيار الإسلامي، (ص:٢٧٠).

(٤) وقد أشار الأستاذ زغلول سلام على الباحث بذلك.

وابن المعتز العباسي لم يكن هجاء بمعنى هذه الكلمة، فلم يكن هجاؤه إلا بعض النوادر والدعابات، فابن المعتز " كان يرتفع بنفسه عن هذا الفن الذي يستحيل في أيدي الشعراء سهاما يسددونها إلى خصومهم، ولم يكن له خصوم".[١] كما " أن نفسه لم تنطوي على الحقد للناس والمجتمع وهو عنصر مهم في هذا الفن، كما انطوت نفوس غيره من شعراء هذا النوع من الشعر، كبشار ودعبل وابن الرومي".[٢]

ولذلك نجد أن معظم شعر ابن المعتز في فن الهجاء مقطوعات قصيرة، أما القصائد المطولة في الهجاء فقليلة.

ومعظم هجاء ابن المعتز يستمده من المعاني الإسلامية فنراه ينفي الصفات الحسنة من المهجو. فإذا كان القرآن يأمرنا بالخشوع في الصلاة "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ ".[٣]

فنجد ابن المعتز يهجر من لايتقن صلاته ولا يخشع فيها ويتسرع في أدائها. يقول:

لَنـا إمـامٌ ثَقيـلٌ … خَفيفُ روحِ الصَّـلاةِ
يَظَـلُّ يَـرْكُضُ فيهـا … نَقـرًا بغَـيرِ قِـراةِ
كَراكِـبٍ وَتَـراهُ … مُسـتَعجِلاً بِـزاةِ[٤]

ويقول في رجل آخر:

---

(١) العصر العباسي الثاني: د. شوقي ضيف، (ص: ٣٣٩).

(٢) شعر ابن المعتز: القسم الثاني: د. يونس السامرائي، (ص: ١٧٠).

(٣) سورة المؤمنون، (الآية:٢٢١).

(٤) الديوان، (٦١١/١)، طبعة بغداد.

أَخَفُّ مِن لا شَيءَ في سَجدَتِه   كَأَنَّهُ يُلسَعُ في جَبهَتِه[1]

وإذا كان الصيام ركن من أركان الإسلام" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ"[2] نجد ابن المعتز يسخر من رجل يشك في إنه صائم. يقول:

جاء شهر الصيام يا ابن علي   قبل الله منك إن صمت فيه

لا تغالط فإننا قد علمنا   ليس يخفي عنا الذي تأتيه[3]

وإذا كانت التقوى هي عماد الأمر كله في الإسلام، يقول تعالى: "وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى"[4]، والأخلاق هي أساس الدعوة المحمدية. يقول (ﷺ): " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، نجد ابن المعتز ينفي في هجائه لأحد الرجال هاتين الصفتين. يقول:

عُريانُ مِن حُلَلِ الجَلالَةِ وَالتُقى   لَم يَحوِ مِن كَرَمِ الخَلائِفِ مورِثا[5]

وإذا كان ديننا الحنيف يأمرنا بالإنفاق في سبيل الله. يقول تعالى: "لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ "[6]، نجد ابن المعتز يهجو رجلا بالبخل وعدم الإنفاق. يقول:

يا بَخيلاً لَيسَ يَدري ما الكَرَمْ   حَرَّمَ اللُؤمُ عَلى فيهِ نَعَمْ

---

(١) نفسه.

(٢) سورة البقرة، (الآية: ١٨٣).

(٣) الديوان، (٤٦٨/٢)، طبعة دار المعارف.

(٤) سورة البقرة، (الآية: ١٩٧).

(٥) الديوان، (٤٣٦/٢)، طبعة دار المعارف.

(٦) آل عمران، (الآية: ٩٢).

حَدِّثُونِي عَنْهُ فِي الْعِيـدِ بِمَـا سَرَّنِي مِنْ لَفْظِه فِيمَـا حَكَـمْ
قَالَ: لا قَرَّبْـتُ إِلاّ بِـدَمِي ذَاكَ خَيْرٌ مِنْ أَضَاحِيِّ الْغَـنَمْ(١)

وإذا كان الإسلام يأمرنا بالوفاء بالعهد، فقال الله فى كتابه الكريم فى مجمل حديثه عن البر"وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ"(٢) نجد أن ابن المعتز يهجو رجلا بعدم الوفاء بالعهد. يقول:

وَصاحبٍ يَسخَرُ فِي مَوعِـده وَأَحمَـدُ اللَّـهَ وَلا أَحمَـدُه
زَرعُ الْمُـنى بِقَولِـهِ لَفظَـةٌ ثُمَّ مِطالٌ بَعدَهُ يَحصُـدُه(٣)

وإذا كان الإسلام يأمرنا بالنظافة حتى قال الرسول الكريم(ﷺ): "النظافة من الإيمان" نجد ابن المعتز يهجو رجلا بعدم النظافة. يقول:

قَد نَتَنَ الْمَجلِسُ مُـذ جِئتَنـا فَكُلُّ مَنْ مَـرَّ بِـهِ يُصْـعَقُ
وَكُلُّ مَنْ مَـرَّ بِـهِ عائِـذٌ بِـاللهِ مِنْـهُ كـالِحٌ يَبْصُـقُ
فَقَـدْ إِبْطَيْـكَ وَاشْـبِعْهُما فِي الصَّيْفِ بِالْمُرتَك يا أَحْمَقُ
وَلا تَقُلْ مـا فِيهِمـا حِيلَـةٌ فَالْحُش قَدْ يُكْنَسُ أَوْ يُطْبَقُ(٤)

أما عن الهجاء بالصفات المنافية للإسلام والتي نهى الإسلام عنها فنجد أنه إذا كان الإسلام يمنع الكبر حتى قال الرسول(ﷺ):" لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر". نجد ابن المعتز يهجو رجلا بهذة الرذيلة. يقول:

---

(١) الديوان، (٧١٨/١)، طبعة بغداد.
(٢) البقرة، (الآية: ١٧٧).
(٣) الديوان، (٦٤٤/١)، طبعة بغداد.
(٤) الديوان، (٦٩٥/١)، طبعة بغداد.

يَا جَاهِلًا فِعْلَ الإِلَه أَلَمْ يَكُنْ   يَخْلُقْك مِنْ صِفْرٍ فَلَمْ تَتَكَبَّرِ(١)

وإذا كان وعد الله سبحانه وتعالى الذين يكنزون الذهب والفضة بالعذاب الأليم:"وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"(٢) نجد ابن المعتز يهجو إسماعيل بن بلبل وزير الخليفة المعتمد بالاستيلاء على أموال المسلمين وكنزها. يقول:

أين الجوائز غير جائزة   والجهل في الإمضاء والفسخ

وأخذت مال الله تكنزه   في الأرض كنز العظم للمخ(٣)

وإذا كان الإسلام قد نهى عن النفاق وجاء في القرآن الكريم:" إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ "(٤) نجد ابن المعتز يهجو جماعة بمعنى هذه الرذيلة. يقول:

بَلَوتُ أَخلّاءَ هَذا الزَمانِ   فَأَقلَلتُ بِالهَجرِ مِنهُم نَصيبي

وَكُلُّهُمُ إِن تَصَفَّحتَهُم   صَديقُ العَيانِ عَدُوُّ المَغيبِ(٥)

وإذا كان الإسلام نهانا عن قول الزور، نجد ابن المعتز يهجو بهذه الرذيلة أيضاء يقول فيمن زعم أن ابن المعتز هجا عليا بن أبي طالب رضي الله عنه:

قِيلَ إِنِّي لِعَلِّي مُبغِضٌ   مُصَّ مَنْ يَزْعُمُ هَذَا وَدَخَلَ

---

(١) نفسه، (٦٦١/١).

(٢) التوبة، الآية: ٣٤).

(٣) الديوان، (٦٣٩/١)، طبعة بغداد.

(٤) سورة النساء، (الآية: ١٤٥).

(٥) نفسه، (٧١٤/١)، طبعة بغداد.

لَعَنَـــةُ اللهِ عَلَـــى مُبْغِضِـــهِ كُلَّمَا صَـــلَّى مُصَـــلٍّ وَابْتَهَـــلْ
وَالَّـــذِي زَوَّرَ قَـــوْلاً كاذِبًـــا أَثْبَـــتَ اللهُ لَـــهُ قَـــرْنَ وَعَـــلْ
وَهْوَ عِندي فَرْخُ سَوْءٍ حَمَلَتْ أُمُّهُ لا شَكَّ مِنْ ذَاكَ الْعَمَـــلْ[1]

أما عن التطورات الجديدة في الهجاء فنجد "ميله إلى الشعبية في معانيه وأسلوبه.. وهذا الاقتراب من الشعبية كان يقترن بالميل إلى الهزل والمرح والترفيه لأن هذه العناصر جزء لا يتجزأ من الطبيعة الشعبية في كل زمان وفي كل بيئة".[2]

وابن المعتز يبين لنا هذا الاتجاه الشعبي في الشعر ولكنه لا يبلغ في ذلك شأو معاصره ابن الرومي مثلا، يقول في مقطوعة كتبها للنميري وقد دخلت إليه قينة قصيرة على بغلة:

قَد رَأَينا خَبَـــرَ المَجـــلِسِ وَاليَـــومِ العَجيـــبِ
وَرَأَينـــا نِصـــفَ بَغـــلٍ فَوقَـــهُ نِصـــفُ حَبيـــبِ
أَتُـــرى إِبلـــيسَ يَرضـــى بِبُنَيّـــاتِ الـــذُنوبِ[3]

ومن التطورات الجديدة في الهجاء أيضا هجاء المدن، وهذا ابن المعتز يهجو (سر من رأى) بعد أن خربت وذهب أهلها:

أَلَم تَرَني رُبِطـــتُ بِشَـــرِّ أَرضٍ فَهَل أَنا واجِدٌ مِنها انفِلاتـــا
وصارت سر من را ساء من را فلا سقيت ولا كسيت نباتـــا
إِذا ما المَرءُ أَصـــبَحَ ســـائِلوهُ وَقالوا كَيفَ بِتَّ وَكَيفَ باتا

---

(١) نفسه، (١/٧١٤)، طبعة بغداد.

(٢) اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، (ص: ٤٤٩).

(٣) الديوان، (١/١٤٦)، طبعة بغداد.

يُخَلّيـــهِ المُجـــاوِزُ وَهـــوَ دانٍ وَيَأتيه إذا مـــا اللـــصُّ فاتـــا
وَتُمطِرُنـــا لَياليهـــا بَعوضـــاً يَذُبُّ النَومَ عَنّـــا وَالسُّـــباتا
وَتَسلُكُ في شَوارِعَ خالِيـــاتٍ أَحَلَّ اللّـــهُ فـــيهِنَّ الشَـــتاتا
وَحيطانٍ كَشِطرَنجٍ صُـــفوفٍ فَما تَنفَكُّ تَضرِبُ شاةَ ماتا[1]

كما تطور فن الهجاء " باتجاهه ناحية شخصية في الغالب وتناوله للفرد بوصفه فردا في مجتمع لا شأن لقبيلته به على الإطلاق، مثلما كـــان الحال في شعر الهجاء القديم حتى في القرن الأول، حيث كـــان الشـــاعر ينظر إلى نسب المهجو ومخازي قبيلته أساسا لهجائه، ولا ريـــب أن هـــذا التغير كان نتيجة للتحضر الـــذي بلغـــه المجتمـــع واكتمـــال الشخصـــية الاجتماعية لأفراده واستقلالها إلى حد كبير عن القبيلة وعلائقها المختلفة"[2] هذا بالإضافة إلى أن الإسلام قضى على العصبية القبلية، كما منع الهجـــاء مطلقا، " فقد قال الرسول(ﷺ):"من قال في الإسلام هجاء مقزعًا فلسانه هدر"[3]

ولم يبلغ ابن المعتز درجة الفحش والإقذاع إلا في القليل النـــادر، فنراه يستخدم أسلوب تأنيث المذكر في هجاء النميري بعد أن انقطع عنـــه. يقول من قصيدة مطلعها:

قَد غَضِبَت بِنتُ النُمَيرِيَّةِ وَلي سِواها أَلفُ سُرِّيَّه[4]

---

(١) الديوان، (١٦٣/٢)، طبعة دار المعارف.

(٢) اتجاهات الشعر في القرن الثاني، (ص: ٤٥٠).

(٣) العمدة، (ص: ٣٨٠)

(٤) الديوان، (٣٧٨/١)

الشعر السياسي

اتضح عند الحديث عن حياة ابن المعتز أنه كان يدافع عــن ملــك بني العباس والخلافة العباسية دفاعا مستميتا.وعللنا ذلك بأنه كان لا يريــد أن تخرج الخلافة من البيت العباسي فعساها أن تعود إليه يوما ما، ولأكثر ما طال انتظاره لها، ولكنها قد جاءته أخيرا ولكن معها ملك الموت قابض الأرواح الذي قبض روح عبد الله بن المعتز بعد ليلة واحدة قضاها خليفة.

وعندما يتناول الباحث شعره السياسي في دفاعه عن الخلافه يجــد أنه يدور على أربعة نقاط:

الأولى: وقوفه في وجه العلويين الذين كانوا يرون أنهــم أحــق بالخلافة من العباسيين برغم ما نكل بهم.

الثانية: الأتراك الذين سيطروا على الخلافة وعاثوا في عاصــمة الخلافة الفساد وقتلوا الخلفاء والوزراء وخربوا البلاد.

الثالثة: المناوئين للخلافة والخارجين عليها من رافضة وقرامطــة وغيرهم، والذين أرهقوا الخلافة إرهاقا شديدا حتى قضى عليهم.

والرابعة: الشعوبيين الفرس، الذين كانوا يقللون من شأن العــرب ويتغنون بأمجادهم وحضارتهم الكسروية القديمة. وعند دراسة هذا الشــعر عند ابن المعتز نجد أنه يحتوي على الكثير من الأحداث الإسلامية الكبيرة والتي حدثت في عصره وقبل عصره.

فإذا تناولنا موقف ابن المعتز من العلويين سنجد أنه لم يكن هو الشاعر الأول الذي وقف يدافع ويزود عن ملك بني العباس بل سبقه غيره من الشعراء الآخرين مثل مروان بن أبى حفصة الذي جند نفسه للدفاع عن العباسين، بل استطاع أن يؤثر في ابن المعتز فيما بعد في استناده على الأسانيد والحجج الدينية والفقهية.

فقد قال مروان بن أبي حفصة يمدح المهدي موجها الكلام للعلويين:

هَل تَطمسونَ مِنَ السَماءِ نُجومَها ... بِأَكُفِّكُم أَم تَستُرونَ هِلالَها
أَم تَجحَدونَ مَقالَةً عَن رَبِّكُم ... جبريلُ بَلَّغَها النَبِيَّ فَقالَها
شَهِدَت مِنَ الأَنفالِ آخِرُ آيَةٍ ... بِتُراثِهِم فَأَرَدتُمُ إِبطالَها[١]

وهو يشير إلى الآية التي تقول:" وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ ".[٢]

ويقول أيضا مادحا المهدي:

يا ابنَ الَّذي وَرِثَ النَبِيَّ مُحَمَّداً ... دونَ الأَقارِبِ مِن ذَوي الأَرحامِ
أَلوَحيُ بينَ بَني البَناتِ وَبَينَكُم ... قَطَعَ الخِصامَ فَلاتَ حينَ خِصامِ
ما لِلنِّساءِ مَعَ الرِجالِ فَريضَةٌ ... نَزَلَت بِذلِكَ سورَةُ الأَنعامِ
أَنّى يَكونُ وَلَيسَ ذاكَ بِكائِنٍ ... لِبَني البَناتِ وِراثَةُ الأَعمامِ[٣]

---

(١) تاريخ بغداد، (١٣/ ١٤٢).
(٢) سورة الأنفال، (الآية: ٧٥).
(٣) الأغاني، (٢٠ /٧٥).

وهكذا انتهج ابن المعتز هذا النهج باستناده على الحجج الفقهية والأحداث التاريخية في موقفه من العلويين، يقول مخاطبا العلويين:

نَصَحتُ بَني رَحمي لَو وَعَوا ... نَصيحَةَ بَرٍّ بِأَنسابِها
وَقَد رَكِبوا بَغيَهُم وَارتَقَوا ... بِزَلّاءَ تُردي بِرُكّابِها
وَراموا فَرائِسَ أُسدِ الشَرى ... وَقَد نَشِبَت بَينَ أَنيابِها
دَعوا الأُسدَ تَفرِسُ ثُمَّ اشبَعوا ... بِما تَدَعُ الأُسدُ في غابِها
قَتَلنا أُمَيَّةَ في دارِها ... وَنَحنُ أَحَقُّ بِأَسلابِها
وَكَم عُصبَةٍ قَد سَقَت مِنكُمُ الـ ... خِلافَةَ صابًا بِأَكوابِها
إِذا ما دَنَوتُم تَلَقَّتكُمُ ... زَبوناً وَقَرَّت بِحَلّابِها
وَلَمّا أَبى اللَهُ أَن تَملِكوا ... نَهَضنا إِلَيكُم وَقُمنا بِها
وَما رَدَّ حُجّابُها وافِدًا ... لَنا إِذ وَقَفنا بِأَبوابِها
كَقُطبِ الرَحى وافَقَت أُختَها ... دَعونا بِها وَعَلَينا بِها
وَنَحنُ وَرِثنا ثِيابَ النَبِيِّ ... فَلِم تَجذِبونَ بِأَهدابِها
لَكُم رَحِمٌ يا بَني بِنتِهِ ... وَلَكِن أَرى العَمَّ أَولى بِها
بِهِ غَسَلَ اللَهُ مَحلَ الحِجازِ ... وَأَبرَأَها بَعدَ أَوصابِها
وَيَومَ حُنَينٍ بَدا عَمُّكُم ... وَقَد أَبدَتِ الحَربُ عَن نابِها
فَلَمّا عَلا الحَبرُ أَكفائَهُ ... هَوى مُلكٌ بَينَ أَبوابِها
فَمَهلاً بَني عَمِّنا إِنَّها ... عَطِيَّةُ رَبٍّ حَبانا بِها
وَكانَت تَزَلزَلُ في العالَمينَ ... فَشُدَّت إِلَينا بِأَطنابِها
وَأُقسِمُ أَنَّكُمُ تَعلَمونَ ... بِأَنّا لَها خَيرُ أَربابِها[1]

---

(١) الديوان، (٢١/١)، وما بعدها، بغداد.

ويقول أيضا:

أَبو الفَضلِ أَولى الناسِ بِالفَضلِ كُلِّهُم ... تَعالَوا نُحاكِمكُم إِلى البَيتِ وَالحَجرِ
وَيَومَ حُنينٍ حينَ صاحَ وَراءَكُم ... فَجِئتُم وَكانَ المَوتُ أَقرَبَ مِن شِبرِ
وَيا مَعشَرَ الأَنصارِ مَن كانَ عاقِدًا ... بِبَيعَتِكُم وَالدينُ في قَبضَةِ الكُفرِ
لَولاهُ ما قَرَّت بِطَيبَةَ هِجرَةٌ ... وَلَولاهُ لَم تَجرِ الجِيادُ عَلى بَدرِ
أَقامَ بِدارِ الكُفرِ عَيناً عَلى العِدى ... يُنَبِّي نَبِيَّ اللَهِ بِالكَيدِ وَالغَدرِ
وَلَولا بُلوغُ الشَمسِ مِنهُ وَكَفُّها ... سَراجِيَهُ لَمّا أَتى آخِرُ العُمرِ
لَأَعطى أَبا حَفصٍ يَدَيهِ عِنانَها ... وَما شَكَّ فيهِ وَالأُمورُ إِلى قَدرِ
أَلَم تَرَهُ مِن قَبلُ حينَ أَقامَهُ ... شَفيعًا لِأَصحابِ النَبِيِّ إِلى القَطرِ(١)

ويقول أيضا:

يا بَني عَمِّنا إِلى كَم وَحَتّى ... لَيسَ ما تَطلُبونَهُ يَستَقيمُ
أَبَداً فارِغينَ إِن تُطعَموا المُلـ ... ـكَ كَما ذيدَ عَن رَضاعٍ فَطيمُ
أَأَبو طالِب كَمِثلِ أَبي الفَضـ ... ـلِ أَما مِنكُمُ بِهَذا عَليمُ
سائِلوا مالِكًا وَرُضوانَ عَن ذا ... أَينَ هَذا، وَأَينَ هَذا مُقيمُ
وَعَلِيٌّ فَكابِنِهِ غَيرَ شَكٍّ ... واجِبٌ حَقُّهُ عَلَينا عَظيمُ
فَدَعوا المُلكَ نَحنُ بِالمُلكِ أَولى ... قَد أَقَرَّت لَنا بِذاكَ الخُصومُ(٢)

ومن استقراء المقطوعات السابقة نستطيع أن نصل إلى الحجج التي كان يستند عليها ابن المعتز في أحقية العباسيين للخلافة وتتلخص في الآتي:

---

(١) الديوان، (١ / ٩٦)، وما بعدها، بغداد.

(٢) نفسه، (١ / ١٧٣).

١- إن العباسيين هم الذين قضوا على الأمويين المغتصبين للخلافة؛ ولذلك كان من حقهم أن يرثوا الخلافة عنهم، كما أشار إلى عدم مقدرة العلويين الأخذ بثأر الحسين.

٢- تبعا لنظام الوراثة الإسلامي فالعم أولى من ابن العم في الميراث وكذلك من البنت، فكان العباس أولى بالخلافة من علي بن أبي طالب؛ ولذلك فالعباسيون أحق بالخلافة من العلويين.

٣- إن للعباس عم الرسول (ﷺ) من المآثر ما يؤهل أحفاده أن يرثوا الخلافة. منها:

أ- حضوره بيعة العقبة الأولى والذي فيها بايع الأنصار الرسول (ﷺ) والاستعداد لاستقباله في المدينة. وكان العباس يومها لم يسلم ولكنه كان يريد أن يطمئن على ابن أخيه.

ب- مكوثه في مكة مدة طويلة وهو يخفي إسلامه، وينقل أخبار الكفار إلى الرسول (ﷺ)، مما جعل المسلمين يستعدون للكفار في غزواتهم والانتصار عليهم في أكثر من موقعة.

ج- وقوفه بجانب الرسول (ﷺ) في غزوة حنين بعد أن ولي المسلمون، وكادت أن تكون الهزيمة محققة لولا أن الرسول الكريم (ﷺ) طلب من عمه العباس أن ينادى في المسلمين للجهاد من جديد وكان ذلك فاجتمع المسلمون وبذلك تحقق النصر لهم.

د- ما يرويه ابن عبد ربه بأن عمر بن الخطاب جمع المسلمين لصلاة الاستسقاء في عام الرمادة. وخرج معه العباس ماشيا فخطب عمر قائلا: اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك وبقية آبائه وكبار رجاله، فما

برحوا حتى علقوا الحذاء وقلصوا المآزر وطفق النـــاس بالعبـــاس يقولون: هنيئا لك يا ساقي الحرمين".[١]

هـ- إن العباس جد العباسيين كان مسلما حنيفا فهو في الجنة أمـــا أبـــو طالب جد العلويين مات على كفره فهو في النار. ويعلق الـــدكتور مصطفى الشكعة على ذلك فيقول:" ويستبد الحماس بـــابن المعتـــز لبني قومه فيخرجه حماسه عن الجادة حين يتورط تورطـــا غيـــر كريم في إجراء مقارنة بين أبي طالب والعباس عمـــي الرســـول، ويلمح إلى أن أبا طالب في النار والعباس في الجنة، وأعطى لنفسه ما ليس من حقه، فالله وحده يعلم أين الرجل العظـــيم الـــذي كفـــل محمدا اليتيم من بعد جده ورعاه شابا وحمى رسالته نبيا والمنسوب إليه قوله:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا

ولكنها السياسة وجاه الملك والحرص عليه تدفع بعض الناس إلـــى التهاون في حقوق العظماء والتعريض بهم من حيث يســـتحقون الإجـــلال والإعظام"[٢]

والباحث ليس مع ابن المعتز في ذلك، لأن أبا طالب إن كان مات على كفره فعلي بن أبي طالب هو من هو، فلا يصح أن يكون كفـــر أبـــي طالب معايرة للعلويين، أما تعاطف الدكتور مصطفى الشكعة الشـــديد مـــع أبي طالب، حتى قال فالله وحده يعلم أين الرجل العظيم؟ فيه شيء كبير من

---

(١) العقد الفريد، (٤ / ٦٤- ٦٥).

(٢) الشعر والشعراء في العصر العباسي، (ص: ٧٤٩).

التجاوز؛ لأن أبا طالب مات على كفره، رغم موقفه المشرف من الرسول ومصير الكافرين معروف، فالجنة محرمة عليهم، ولا يغفر الله لهم كما ورد في القرآن الكريم.

وموقف ابن المعتز من العلويين كان يتغير بمرور الزمن واتضاح الرؤية، بعد أن كان يقول يهجوهم:

وَغاظُهُمُ المَجدُ الَّذي لا يَنالُهُ ... لَئيمٌ وَلا وانٍ ضَعيفٌ عَنِ الوِترِ

فنراه يمدح عليًّا بن أبي طالب في قصيدة، طويلة يعدد فيها أمجاده ومآثره، فيقول منها:

رَأَيتُ الحَجيجَ فَقالَ العُداةُ ... سَبَّ عَليّاً وَبِنتَ النَّبي
عَليٌّ يَظُنّونَ بي بُغضَهُ ... فَهَلاّ سِوى الكُفرِ ظَنّوهُ بي
إِذاً لا سَقَتني غَداً كَفُّهُ ... مِنَ الحَوضِ وَالمَشرَبِ الأَعذَبِ
بَلى قَرمَطيّينَ مَتّوا إِلَيـ ... ـهِ بِالنَّسَبِ الأَفجَرِ الأَكذَبِ
سَبَبتُ فَمَن لامَني فيهِمُ ... فَلَستُ بِمُوصىً وَلا مُعتَبِ
مُجَلّي الكُروبِ وَلَيثُ الحُروبِ ... في الرَّهَجِ السّاطِعِ الأَشهَبِ
وَبَحرُ العُلومِ وَغَيظُ الخُصومِ ... مَتى يَصطَرِع وَهُمُ يَغلِبِ
يُقَلِّبُ في فَمِهِ مِقوَلاً ... كَشِقشِقَةِ الجَمَلِ المُصعَبِ
وَأَوَّلُ مَن ظَلَّ في مَوقِفٍ ... يُصَلّي مَعَ الطّاهِرِ الطَّيِّبِ
وَكانَ أَخاً لِنَبِيِّ الهُدى ... وَخُصَّ بِذاكَ فَلا يُكذَبِ
وَكُفؤاً لِخَيرِ نِساءِ العِبادِ ... ما بَينَ شَرقٍ إِلى مَغرِبِ
وَأَقضى القُضاةِ بِفَصلِ الخِطابِ ... وَالمَنطِقِ الأَعدَلِ الأَصوَبِ
وَفي لَيلَةِ الغارِ وَقّى النَّبِيَّ ... عِشاءً إِلى الفَلَقِ الأَشهَبِ
وَباتَ ضَجيعاً بِهِ في الفِراشِ ... مُوَطِّنَ نَفسٍ عَلى الأَصعَبِ

وله غير ذلك قصائد كثيرة يقول صاحب كتاب الأوراق:" وله بعد هذا اعتذار كثير في قصائده إلا أنه خلط الاعتذار ببعض الاحتجاج فلم أذكره، والذي ذكرته عنه هو آخر ما قاله وعليه فارق الدنيا".[١]، وقال أبياتا:

زَعَمْتَ بأنّي يا مُبَغَّضُ مُبْغِضٌ	عَليّاً فمَا فَخْري إذاً في الْمحَافِلِ
أآكُلُ مِنْ لَحْمِي وَأَشْرَبُ مِنْ دَمِي	كَذَبْتَ لَحَاكَ اللهُ يا شَرُّ واغِل
عَليٌّ وَعَبّاسٌ يَدانِ كِلاهُمَا	يَمينٌ سَواءٌ في الْعُلَى وَالْفَضائِلِ
فَهَذا أبُو هَذا وَهذا كَمُ ابْنُ ذَا	فَهلْ بَيْنَ هَذَيْنِ اتّسَاعٌ لِداخِلِ
سَتَسْمَعُ ما يُخْزِيكَ في كُلّ مَحْفِلٍ	وَتَمْسَحُ رَأْسَ الْعارِفِ الْمتغافِلِ[٢]

وبلغ من صفاء نفس ابن المعتز للعلويين في آخر حياته ما يرويه أبو بكر الصولي أيضًا بقوله:".. وكان عبد الله بن المعتز يحلف بالله لئن ملك من هذا الأمر شيئاً ليجعلن البطنين بطنا واحدة، وليزوجن هؤلاء من هؤلاء وهؤلاء من هؤلاء، وقال: لا أدع طالبيا يتزوج بغير عباسية، ولا عباسي بغير طالبية حتى يصيروا شيئًا واحدًا، وأجرى على كل رجل منهم عشرة دنانير في الشهر، وعلى كل امرأة خمسة دنانير واجعل لهم من الدنيا الحية تقى بذلك.."[٣]

أما موقف ابن المعتز من المناوئين للخلافة والثائرين عليها فكان يختلف عن موقفه من العلويين فشعره فيهم لم يكن يقوم على الحجج

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء، (ص:١١٢).

(٢) المرجع السابق، (ص: ١١٣)، الديوان، (١/١٦٦)، بغداد.

(٣) أشعار أولاد الخلفاء، (ص:١٠٩).

والأسانيد بل كان يقوم على إفتضاح أمرهم وكشف زندقتهم وكفرهم للناس، فنراه يفضح زعيم الروافض معدودا أفعاله فيقول:

وكم من صباح حين حانت صلاته	تغافلت عنها وتخاذلت من السكر
وَكَمْ قُرْبَةٍ قَدْ بِتَّ تَسْبَحُ فَوْقَهَا	كَأَنَّكَ مِنْها راكِبٌ لُجَّةَ الْبَحْرِ
وَساقٍ مَلِيحٍ مُكْرَهٍ قَدْ بَطَحْتَهُ	لِيُدْخِل لامَ الْبَطْنِ فِي مِيمَةِ الظَّهْرِ
وكم ناصح قد قال تب فعصيته	ولا قيته بالشتم منك وبالزجر
وإن كنت سليتا إذا ما تجادلوا	فلحظك شتام لأم أبي بكر
وَتَأخُذُ أمْوالَ الرَّوافِضِ زاعِمًا	بِأَنَّكَ بابٌ نافِذ النَّهْيِ وَالأَمْرِ
وإن منعوا أموالهم عام عسرة	قطعت الندامى بالتعتب والهجر
وَتُومِي إلَى عِلْمٍ خَفِيٍّ تُسِرُّهُ	مِنَ النّاسِ مَكْتُومٍ يُصانُ عَنِ الجَهْرِ
وَتَسْخَرُ مِمَّنْ قالَ إنّي عالِمٌ	لِمُنْتَحِلِ الأَخْبارِ وَالنَّحْوِ وَالشِّعْرِ
وَتَضْحَكُ مِنْهُ هازِئًا مُتَعَجِّبًا	كَأَنَّكَ لا تَدْرِي بِأَنَّك لا تَدْرِي[1]

وقال في الرافضة قصيدة أخرى يرد عليهم زعمهم بانتسابهم إلى علي بن أبي طالب ومبينًا زندقتهم، يقول:

لَقَد قالَ الرَّوافِضُ فِي عَلِيٍّ	مَقالاً جامِعًا كُفرًا وَموقا
زَنادِقَةٌ أرادَت كَسْبَ مالٍ	مِنَ الجُهّالِ فَاتَّخَذَتْهُ سوقا
وَأَشْهَدُ أَنَّهُ مِنهُم بَرِيٌّ	وَكانَ بِأَن يُقَتِّلَهُم خَليقا
كَما كَذَبوا عَلَيهِ وَهوَ حَيٌّ	فَأَطعَمَ نارَهُ مِنهُم فَريقا[2]

القرامطة

أما القرامطة فقد هجاهم هجاء عنيفًا وراح يندد بهم في كثير من المواقف، كما عبر عن فرحه الشديد عندما استطاعت جيوش المكتفي سنة

---

(١) الديوان، (١/٦٦٤ ـ ٦٦٥)، بغداد.

(٢) الديوان، (١/٦٩٢ ـ ٦٩٣)، بغداد.

٢٩١هـ أن تقضي على كبير قادة القرامطة وهو يحيى بن زكرويه ويأتي بأخيه الذي كان يطلق عليه صاحب الشامة أسيرًا إلى بغداد ويشهر على الفيل كما كانت العادة آنذاك فيمن يؤتى به من كبار العصاة الخارجين ويصور ابن المعتز ذلك فيقول:

أَقولُ لَمّا تَبَدّى راكِبُ الفيلِ	وَصَحَّ ما كانَ مِن قالٍ وَمِن قيلِ
يَزِفُّ فِي القَيدِ مَغلولاً إِلى سَقَرٍ	مُقَسَّماً بَينَ تَصبيحٍ وَتَبطيلِ
وَأَقبَلَ المُكتَفي بِاللَهِ يَتبَعُهُ	فَأَكثَرَ الناسُ مِن حَمدٍ وَتَهليلِ
انظُر إِلى حِكمَةِ الأَقدارِ فِي مَلِكٍ	كَالشَمسِ حُسنًا وَفِي قِردٍ عَلى فيلِ[1]

ثم يقام له احتفال كبير ويجري إحراقه أمام الناس فيقول ابن النعتز في ذلك:

لمن النار أوقدت بالمصلى	نار دنيا ممن قيل نار السعير
ذاك ما سنه علي عليه	رحمه الله في قديم الدهور
كم قتيل معفر من بني العبا	س بالشام ليس بالقبور
لا تلوموا مجازيا بابتداء	ليس بعض الذنوب بالمغفور[2]

كما أن لابن المعتز الكثير من الشعر في غيرهم من المتغلبين على السلطان في بغداد والأقاليم فآل الصغار لصوص محتالون، وآل طولون فراعنة مصر على عهد الشاعر وصاحب الزنج.. شيخ ضلال شر من فرعون وإسحاق البيطار.. أعلم خلق الله بالماخور. وسنجد أن مزدوجيته

---

(١) الديوان، (١/٤٩٤ ـ ٤٩٥)، بغداد.

(٢) الديوان، (١/ذ ٤٥٦-٤٥٧).

التاريخية التي نتناولها بعدد قليل بجميع الأحداث السياسية والاجتماعية التي حدثت في القرن الثالث الهجري وموقف الشعراء منها.

– أما موقف ابن المعتز من الأتراك، فهو موقف يصور لنا مدى طغيانهم وخرابهم وفسادهم في هذا العصر بحيث بلغوا من القوة والجبروت والبطش ما جعل الشاعر لم يستطع أن يصرح بأفعالهم وذكر أسمائهم مباشرة، رغم أنهم قتلة أبيه وجده وأعمامه. وأعتقد أن هذا يوضح مدى خوف الشاعر من أن يناله سيفهم القوي في هذا العصر. ولكن له بعض القصائد التي نستشف منها هذه الأفعال. ففي إحدى القصائد يحث بني العباس على اليقظة والتخلص من هذا الشر الجاثم فوق صدروهم. يقول:

مَن مُبلغٌ قَومي عَلى قُربِهِم ... وَبُعد أسماعٍ عَنِ الواعظين

هُبّوا فَقَد طالَت بِكُم رَقدَةٌ ... من بَعدها أَحسَبُ لا تَرقُدون

حُثّوا مَطايا الجِدِّ تُرقِل بِكُم ... ناجينَ بَينَ الناسِ أَو مُعذَرين

يا عَجَبًا مِن ناصِحٍ لَم يُطَع ... كَم حازِمٍ قَد ضاعَ في جاهِلين

رَأى مِنَ الشَرِّ الَّذي لَم يَرَوا ... وَكانَ يَهتَمُّ وَهُم يَفرَحون

إِنّي أَرى الأَعداءَ قَد رَسَّخوا ... دَواهِيًا أَنتُم لَها حافِرون

سَلوا قِبابَ المُلكِ عَن مَعشَرٍ ... كانوا لَها مِن قَبلِكُم مُبتَنين

تُخبِركُمُ عَن زَمَنٍ لَم يَزَل ... يَجِدُّ بِالقَومِ وَهُم يَلعَبون

كَذاكَ ما أَنتُم عَلَيهِ وَما ... أَشبَهُ ما كانَ لِشَيءٍ يَكون

عانَقتُمُ الأَحلامَ في مَضجَعٍ ... سَيُنبِتُ الشَوكَ لَكُم بَعدَ حين

فالشاعر في هذه الأبيات يشير بطرف خفي إلى الأتراك والجنود المرتزقة الذين استشرى شرهم. واشتد عبثهم حتى وصل الخلفاء.

ونراه في قصيدة أخرى يصور بغداد بعدما آلت إليه من خـراب أصابه على أيدي الأتراك وغيرهم مقارنا بين ماضيها وحاضرها يقول:

هاتيـكَ دارُ المُلـك مُقفـرةٌ ما إن بها من أهلهـا شَـخصُ
عَهدي بهـا وَالخَيـلُ جائلَـةٌ لا يَسـتَبينُ لشَمسـها قُـرصُ
وَإذا عَلَت صَـخرًا حَوافِرُهـا غادَرتـهُ وَكَأنّـهُ دعـصُ
وَالمُلكُ مَنشـورُ الجَنـاحِ وَلَـم يَهتك قَـوادِمَ ريشـه القَـصُّ
فَمَضى بِـذاكَ العَـيشِ آخـرُهُ وَالهَـمُّ ممّـا سَـرَّ مُقـتَصُّ
أفَما تَـرى بَلَـدًا أقَمـتُ بـه أعلى مَسـاكنَ أهلـه خُـصُّ
وَولاتُـهُ نَـبَطٌ زَنادقَـةٌ مَلأى البُطونِ وَأهلُها خُمـصُ
وَلَهُم مَسـالخُ يَسـلَخونَ بهـا لا يَتّقـي سَـطواتها اللـصُّ
أسـيافُها خُشُـبٌ مُعَلّقَـةٌ مَصـنوعَةٌ وَقِرابُهـا جَـصُّ
غَلَبَـت خيـانَتُهُم أمـانَتَهُم وَطَغى عَلى تَقـواهُمُ الحِـرصُ
فتيـانُهُم في كُـلِّ رابيَـةٍ وَلَهُم بِكُـلِّ قَـرارَةٍ شَـخصُ
وَأميرُهُـم مُتَقَـدِّمٌ بهـمُ نَحوَ الحَـرامِ وَسَـيرُهُ نَـصُّ
وَكَأنّ خَلَّ الخَمرِ يَعصَـرُ مِـن وَجَناتِـه أو يُجـتَنى العَفـصُ
وَيَرونَ رُخصَ السِعرِ أغبَطُ في ال بَلوى وَلَيسَ بِـدِرهَمٍ رُخـصُ

ويعلق الدكتور محمد عبد العزيزالكفراوى بقوله:"والقارئ لمثل هذه الأبيات لا يعجب بهذه الشجاعة الأدبية فقط، بل يعجب أيضا بهذا الإدراك المبكر لحقوق الشعوب عند حكامها وولاة. انظر إلى البيتـين الآخـرين وكيف ينعـي فيهما على الحكام انتفاخ وجناتهم على حساب المحرومين من أفراد الرعية. وكيف يتحدث بلغة العصر الحاضر حين يعلـن أن

هبوط الأسعار، وتكدس السلع في الأسواق ليسا دليلا على الرخاء مادام الناس لا يملكون تلك الدراهم المعدودة التي يحتاجون إليها في معاشهم".[1]

أما موقف ابن المعتز من الشعوبية فيتضح من موقفه من علي بن يحيى بن علي المنجم الذي حاول التعريض بالعرب وبقريش خاصة متذرعا بالحجة التي كثيرا ما تذرع بها من تصدي لمهاجمة العرب، وهي أن الفضل بالدين وليس بسواه، ومدعيا أن الفرس من نسل إسحاق في أبيات يقول فيها:

يا بَني هاجرٍ وَتَبٌّ لَكُم ... ما هَذهِ الكِبرِياءُ وَالعَظَمَه
نازَعتُمُ اللَهَ ثَوبَ عِزَّتِه ... فَأَنتُمُ بِاعتِدادِكُم أَثِمَه
أَلَم تَكُن في القَديمِ أُمَّكُمُ ... لِأُمِّنا سارَةَ الجَمالِ أَمَه
وَالمُلكُ فينا وَالأَنبِياءُ لَنا ... إِن تُنكِروا ذاكَ توجدوا ظَلَمَه
إِسحاقُ كانَ الذَبيحُ قَد أَجمَعَ النـ ... ـناسُ عَلَيهِ الإِدِّعاءُ لِمَه
وَالأَصرَحُ الأَصبَحُ الَّذي امتَحَنَ الـ ... ـلَهُ أَباهُ فيهِ وَصانَ دَمَه
حَتّى إِذا ما مُحَمَّدٌ أَظهَرَ الـ ... ـحَقَّ وَجَلّى بِنورِهِ ظُلَمَه
قُلتُم قُرَيشٌ وَالفَضلُ بِالدينِ لا الـ ... أَنسابِ إِن كُنتُم قُرَيشاً فَمَه
لَستُ أُبالي ما لَم أَقُل كَذِباً ... مَن جَهِلَ الحَقَّ بَعدُ أَو عَلِمَه
أَمّا بَنو يَعرُبٍ فَلَيسوا كَمَن ... أَسكَنَهُ اللَهُ آمِناً حَرَمَه
وَلا كَأَحرارِ فارِسَ إِذ هُمُ الـ ... أَرؤُسُ مِثلَ الأُسودِ في الأَجَمَه
أَيّامَ كِسرى يَحميهِمِ الجانِبُ الـ ... ـمَعمورَ إِلّا أَن يَأخُذوا ذِمَمَه

فأجابه عبد الله بن المعتز:

---

(١) عبد الله بن المعتز العباسي، (ص: ١١٦).

أسمــع قــولا ولا أرى أحـــــدا	من ذا الشقي الــذي أبــاح دمــه
قــولوا الكلب ثـوى ببطنتــه	قد فتح الليـث للفــراس فمـــه
إن بـــني هـــاجر الألي تركــوا	مــنكم أنوفــا بالجــدع مصــطلمة
وزلــوا أبيض المدائــــن فانــ	هــد وحلــت بأهلـــه النقمــــه
كنتم تيوســـا تــدمى مـــذابحها	وهم لعمري الأســـود في الأجمـــه
حاشا لإسحاق أن يكـــون أبـــا	وأن تكونوا كنـــتم بنيــه فمــــه
وهـــل بنـــوه إلا لنـــا خــــدم	كـــم رق عبـــد منهـــم لنا وأمـــه
خيـــر من إسحاق خاتم الرســـ	ل المجلـــي بنـــوره الظلمــــه
ما للخنازيــــر من قراها أتــــت	ذم نبي الهـــدى لتهتضمـــــــه
إياه تعنون لا قريـــش سقـــــى	الله ســـيوفا إلـــيكم قرمــــة
ما القريش ذنب ســـواه فــــلا	تجمجموا القول يا بـــــني الأثمـــة
هو النبي الـــذي بـــه كســـــر	اللـــه رؤوس الـــأكاسر الظلمـــة
يا أمـــة شـــر أمـــة أبدعـــــت	دنيا عليـــه من الغـــــلال سمـــة
أما بثوب الإســـلام مستـــــر	وفي حـــشاه مـــن بعـــده ضرمـــة
أو مفتـــد صاعــــر بجزيتـــــه	وفي قفـــاه الأكـــف محتكمـــــه
فلتحرق من غليظ ضمائركـــــم	أخزاكم ذو الجـــلال والعظمــه[1]

ولقد رد ابن المعتز على المنجم في قصيدة ومقطوعة غير القصيدة السابقة[2] فند فيها مزاعمه وأبطل دعواه، وحمل على الفرس حملة عنيفة لم كانوا يحملونه للعرب من حقد وحسد، رغم أن الكثيرين منهم كانوا يداهنون

---

(١) الديوان، (١/٧٢٣ – ٧٢٥).

(٢) انظر الديوان، الجزء الأول، (ص: ٦٤٥)، وما بعدها، ٧٠٩، ص٦٢٠ وما بعدها.

ويتظاهرون بالولاء، ولكنهم كانوا في قرارة نفوسـهم يتمزقـون غيظـا وضغينة.

وواضح مما تقدم أن ابن المعتز قد احتفل كثيرا بالأحداث السياسية الإسلامية قديمها وحديثها، فهو في شعره السياسي وقف كالمحامي في وجه كل من أراد بالخلافة العباسية سوءًا فيرده على عقبيه.

ولكن ابن المعتز قد رصد جميع الأحداث السياسية بدرجـة أكثـر وبشيء من التفضيل في مزدوجته التاريخية في مدح المعتضد ــ فلنتاولها بشيء من التفصيل.

****

(المزدوجة التاريخية)

وتدخل هذه المزدوجة التاريخية تحت فن الشعر التعليمى "والـذي يعد اتجاها جديدا من اتجاهات الشعر العربي في القرن الثـاني الهجـري، دعا إلى وجوده انتشار التعليم وامتزاج الثقافات ودخول علـوم ومعـارف أجنبية إلى الفكر العربي. وسواء أكانت نشأته عربية خالصـة أم بتـأثير هندي أو يمناني، فهو في نظرنا ليس فنا مؤثرا ولا شعرا خالدا وليس لـه من الشعر إلا اسمه".[1]

وابن المعتز في أرجوزته التاريخية "يركز على تجليةعهد المعتضد وتمجيده ووصف جلال الدولة على زمانه، والإخبار عن حالتها قبله حيث اضطراب الأمن وشيوع الفاحشة، وافتقاد العدالة والاعتداء علـى أمـلاك الناس ومصادرة أموالهم والزج بهم في السجون دون سبب، والحق أن هذه

---

(١) اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، (ص: ٣٩٣).

الأرجوزة تعتبر تاريخا دقيقا بجانبيه السياسي والاجتماعي لعهد المعتضد بصفة خاصة والعصر العباسي بصفة عامة".[١]

ورغم أن الدكتور محمد غنيمي هلال يقول:" إن الشعر التعليمي نظم لا شعر"[٢] إلا أن ابن المعتز ضمن هذه الأرجوزة صورًا عديدة وقصصًا متنوعة استطاع أن يقدمها في صدق برواية فنان، وأسلوب شاعر، وفكر عالم، وقريحة مؤلف، ومع طول الأرجوزة فإن روح الشعر وموسيقاه لم تتخليا عنها في بيت واحد واستعراض الأرجوزة لا يغني عن قراءتها إذا أريد الاستمتاع بها والانتفاع بأحداثها".[٣]

وفى هذا الأرجوزة يقف ابن المعتز من المتغلبين على السلطان في بغداد والأقاليم موقف الحاكم الشرعي من مختلسي ملكه وغاصبي سلطانه، فآل الصغار لصوص محتالون، وآل طولون فراعنة مصر على عهد الشاعر، وصاحب الزنج "شيخ ضلال شر من فرعون" وإسحق البيطار "أعلم خلق الله بالماخور" ورأيه في ملوك الطوائف جميعا وفي رجال الفتن والاضطرابات في كل مكان مدون بتفصيل ومهارة في كتابه "النفيس" أو أرجوزته المثيرة.

فلقد عرض ابن المعتز في هذا الأرجوزة لشؤون الدولة العباسية التي بلغت أقصى درجات الفوضى والانحلال في الفترة التي تقع بين مقتل المتوكل على الله عام (٢٤٧) للهجرة وتبؤ المعتضد دست الحكم عام

---

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي، د. الشكعة، (ص: ٧٨٨).

(٢) النقد الأدبي الحديث، (ص: ٣٨٢).

(٣) الشعر والشعراء في العصر العباسي، الشكعة، (ص: ٧٩٩).

(٢٧٩) للهجرة وإلى الإصلاحات التي قام بها هذا الخليفة فشرحها بإسهاب وعقب عليها بما يتفق ورأيه فى السياسة، إلا أن هذا لا يمنعنا من القول بأنه مخلص كل الإخلاص في تعقيبه على هذه الحوادث وأن الأعمال التي بسطها ونقدها وأنحى على القائمين بها باللوم الشديد والتقريع الممض لم تكن في الحقيقة سوى جرائم فظيعة ترتكب في سبيل تحقيق مطامع أثيمة وأغراض شخصية غير مشروعة.

ويبدأ ابن المعتز أرجوزته بمقدمة إسلامية بحتة تتضمن البسملة والثناء على الرسل وعلى خاتمهم محمد (ﷺ)، يقول:

بِاسمِ الإِلَـهِ المَلِكِ الرَحمَنِ	ذي العِزِّ وَالقُدرَةِ وَالسُلطانِ
الحَمدُ لِلَّهِ عَلى آلائِهِ	أَحمَدُهُ وَالحَمدُ مِن نَعمائِهِ
أَبدَعَ خَلقًا لَم يَكُن فَكانا	وَأَظهَرَ الحُجَّةَ وَالبَيانا
وأرسل الرسل بحق ساطع	قاهر كل باطل وقامع
وَجَعَلَ الخاتَمَ لِلنُبُوَّة	أَحمَدَ ذا الشَفاعَةِ المَرجُوَّه
الصادِقُ المُهَذَّبَ المُطَهَّرا	صَلّى عَلَيهِ رَبُّنا فَأَكثَرا[1]

ثم يشير إلى أن هذا الكتاب في سيرة الإمام أبي العباس وهي كنية المعتضد، الذي أقام الملك بعد أن ضاع وأصبح نهبا للطامعين مشاعًا:

هَذا كِتابُ سِيَرِ الإِمامِ	مُهَذَّباً مِن جَوهَرِ الكَلامِ
أَعني أَبا العَبّاسِ خَيرَ الخَلقِ	لِلمَلكِ قَولُ عالِمٍ بِالحَقِّ
قامَ بِأَمرِ المُلكِ لَمّا ضاعا	وَكانَ نَهباً في الوَرى مُشاعا[2]

---

(١) الديوان، (٢ / ٥)، دار المعارف.

(٢) الديوان، (٢/٦)، المعارف.

ويأخذ في سرد ما كانت عليه أمور الملك من اضطرابات وانحلال في العهد الذي سبقه وما كان يقوم به الجيش وقواده من تدخل في الأمور، وعصيان ومطالبة مستمرة بالأرزاق حتى أفقروا الخلافة وأشاعوا فيها الرهبة والخوف وجروا على البلاد الدمار والخراب:

وَكُلَّ يَومٍ مَلِكٌ مَقتولٌ ... أَو خائِفٌ مُرَوَّعٌ ذَليلُ
وَكَم أَميرٍ كانَ رَأسَ جَيشِ ... قَد نَغَّصوا عَلَيهِ كُلَّ عَيشِ
وَكُلَّ يَومٍ عَسكَرًا فَعَسكَرا ... بِالكَرخِ وَالدورِ مَواثِبًا أَحمَرا
وَيَطلُبونَ كُلَّ يَومٍ رِزقَا ... يَرَونَهُ دَيناً لَهُم وَحَقَّا
كَذاكَ حَتّى أَفقَروا الخِلافَه ... وَعَوَّدوها الرُعبَ وَالمَخافَه[١]

ويشير إلى العصاة والخارجين على الخلفاء من أمثال ابن طولون والعلوي صاحب صورة الزنج وغيرها:

فَمِنهُمُ فِرعَونُ مِصرَ الشاني ... عاصي الإِلَهِ طائِعُ الشَيطانِ
وَالعَلَوِيُّ قائِدُ الفُسّاقِ ... وَبائِعُ الأَحرارِ في الأَسواقِ
وَالدُلَفِيُّ العَودُ وَالسَفّارُ ... وَمِنهُمُ إِسحَقُ البَيطارُ[٢]

وبعد أن يوجز أعمال هؤلاء الخارجين يشير إلى إغاثة أبي العباس للناس:

وَلَم يَزَل ذَلِكَ دَأبَ الناسِ ... حَتّى أُغيثوا بِأَبي العَبّاسِ[٣]

---

(١) الديوان، (٢/٦ - ٧).
(٢) نفسه، (ص: ٧).
(٣) نفسه.

ويستطرد في الحديث عن قضائه على الخارجين والثائرين ويذكر العلوي صاحب الزنج ويفيض في وصف أعماله وتخريبه وقتله للشيوخ والأطفال وعبثه في البلاد فسادًا وقضائه على الكثيرين من كبار قادة الخلافة:

فَلَم يَزَل بالعَلَويِّ الخائِنِ   المُهلِكِ المُخَرِّبِ المَدائِنِ
وَقاتِلِ الشُيوخِ وَالأَطفالِ   وَناهِبِ الأَرواحِ وَالأَموالِ(١)

حتى إذا كثر فساده وظلمه وضج الناس من منكراته هيأ الله له بطلا مغوارا هو المعتضد:

أغرى بِهِ اللَهُ هِزَبرًا ضَيغَما   إِذا رَأى أَقرانَهُ تَقَدَّما

ثم يمضي في الإشادة ببطولاته وحروبه وشجاعته، وما أوقعه في أعدائه.

وتستقر الأحوال وترسل مصر إليه الأموال، ويأخذ بالتقاء الجنود ويؤم بهم المخالفين والعصاة فى عقر دارهم، فيخرج إلى الموصل ويضايق أحد العصاة وهو ابن عيسى بن شيخ.. وبعد هذه الحوادث المتتالية ينتقل ابن المعتز إلى الإشادة بعمل آخر من أعمال المعتضد المشهورة وهو تأخيره النيروز والخراج الذي خفف به الأعباء عن كواهل الشعب الذي كان يتعرض إلى صنوف المصادرات والتعذيب والإهانة من أجل تحصيل الأموال منه:

وَمِن أَيادِيهِ عَلى الكَبيرِ   مِنَ العِبادِ وَعَلى الصَغيرِ
تَأخيرُهُ النَيروزَ وَالخَراجا   وَلَو أَرادَ أَخذَهُ لَراجا

---

(١) الديوان، (٢/٨).

ولم يقتصر ابن المعتز في أرجوزته هذه على ذكر الحوادث السياسية والحربية التي جرت أيام المعتضد فحسب، بل إنه وصف آثار الأخرى ولاسيما "قصر الثريا" الذي كان يحتوي على عجائب وغرائب يدهش لها العقل:

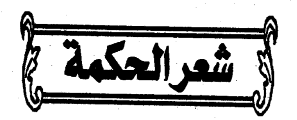
فَمَن رَأى مثلَ الثريا قَصرًا كَم حكمَة فيه تُخالُ سحرا
وَالنَهرَ وَالبُستانَ وَالبُحَيرَه قَد جَمَعَ الماءُ إِلَيها طَيرَه

وهكذا اشتملت هذه المزدوجة على وصف للنواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية في غضون القرن الثالث الهجري، وقد أبدع فيها الشاعر تصوير ما كان يتعرض له الناس من ضروب الإحن والشدائد، كما برع في وصف الفتن والوقائع براعة تشهد له بالتمكن والقدرة، واستطاع أن يلائم بين التاريخ ملائمة تشهد له بطول الباع في هذا الشأن".[١]

" إن هذه الأرجوزة تسجل لابن المعتز سبقًا آخر في ميدان موضوعات الشعر العربي وهو الشعر التعليمي، والحق أن هذا الحكم لا يصدر عن اجتهاد، فابن المعتز ليس شاعرًا فحسب، وإنما هو عالم ناقد بلاغي مؤرخ ذو تآليف عديدة تضعه في صف كبار العلماء تمامًا كما وضعه فنه الشعري في مكان الصدارة بين نوابغ الشعراء".[٢]

---

(١) من حديث الشعر والنثر، (ص: ١٦٢).
(٢) الشعر والشعراء، الشكعة، (ص: ٧٩٩).



شعر الحكمة

لعل شعر الحكمة والزهد هو أكثر أبواب ديوان ابن المعتز تـأثرًا بثقافته الإسلامية، فإذا ما أمعنا النظر في هذا الشعر وجدنا ابـن المعتـز المسلم التقي الورع، الذي يرى أن الشيب علامة من علامات قرب الأجل، وأن الموت حق ويجب العمل من أجل ما بعده، وأن النفس لأمارة بالسـوء يجب أن نكبح جماحها ونتحكم فى شهواتها وأهوائها، وأن الدنيا دار غرور وابتلاء، فيجب ألا نركن عندها، وأن نعـرف أنهـا دار عمـل إلـى دار الحساب، وأنها مهما تجملت وتزينت فهي فانية زائلة.

من هذا الباب الواسع في الشعر ينبغي أن ندخل على ابن المعتـز العباسي السني المسلم لنشاركه في تأملاته ونظراته والتي يلفها في أبيـات جميلة مؤثرة من الحكمة، حتى إن الدكتور مصطفى الشكعة يرى:" أن ابن المعتز تلميذ أمين في كل ما قال في هذا السبيل لأبي العتاهية فهـو يكـاد يكون صورة صادقة منه في زهدياته".[1]

فهل كان ابن المعتز زاهدًا أم حكيمًا ؟

فالدكتور محمد مصطفى هدارة يرى: أن هناك فرق بـين الزهـد والحكمة، يقول:" ويجب منذ البداية أن نوضح الفرق بين شـعر الحكمـة وشعر الزهد، فعلى الرغم من التقائهما في ناحية أو أكثر إلا أنهما يفترقان افتراقًا واضحًا، فالزهد مذهب في الحياة له قواعده ورسومه الخاصة، وله

---

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي، (ص: ٧٦٢).

ملابسه وفرائضه. ويفترض في متبعي هذا المذهب أن يتجردوا لله ويعكفوا على صلواتهم في خلوة من البشر متجردين من الترف وزخرف الدنيا، ولا يبتغون عرضًا من أعراضها، ولا مطلبًا من مطالب الحياة الفادية التي يقبل عليها الإنسان العادي.

أما الحكمة فهي- إن لم تكن تجربة ذاتية- مذهب في الشعر لا في الحياة ينظم فيه صاحبه بتأثير نظرة فلسفية للكون وحقائق الأشياء فيه بحكم ثقافته أو تكوينه الفكري، ولا يطلب منه شيء وراء ذلك فليس هناك قواعد ولا رسوم معينة للشعراء الحكماء وليست هناك فرائض عليهم أداؤها، ولا أي تقليد آخر مثلما يفترض في الزهد.

ولهذا لا نستغرب إن وجدنا من الشعراء الذين يمـلأون شـعرهم بالحكمة والأمثال والآداب والمواعظ زنديقًا و فاسقًا أو ما أشبه؛ لأن هذا لا ينافي ذاك.[1] ولكن هذا تفريق بين شاعر الزهد وشاعر الحكمة وليس بـين شعر الزهد وشعر الحكمة، لأننا لو طالعنا قطعة شعرية من هذا الباب هل يجب أن نبحث عن سلوك صاحبها أولا حتى نحدد تحت أي باب ندرجها، تحت شعر الحكمة أو الزهد ؟! قد نصدق هذا الأمر لو أننا وجدنا بيتين أو أبيات من الحكمة في قصيدة من قصائد الغزل أو الشراب أو في أغراض أخرى كأبيات الحكمة التي وردت في معلقة زهير مثلاً والتي منها نقول إن زهيرًا كان حكيمًا، أما أن نجد مقطوعات شعرية بأكملها في هذا الباب فهو ما يجب أن نتروى ونحن نخلع عليه التسمية، فلو قلنا على هذا الشعر زهد فقد خالطناه بشعراء زهاد غير مسلمين، وإن قلنا حكمة فما أكثر الحكمـاء

---

(١) اتجاهات الشعر في القرن الثاني، (ص: ٤٧٤).

على ظهر البسيطة!، ولكن ما أجدرنا أن نقول إنه شعر الروح الإسلامية، حتى إننا لو قلبنا في ديوان أبي العتاهية الذي يعد الزاهد الأول، في العصر العباسي لوجدنا أن معظم أشعاره متـأثرة أشد الأثر بـالقرآن الكـريم والأحاديث النبوية المطهرة[1] فينبغي أن ننظر إلى هذا الشعر علـى أنـه شعر لشعراء مسلمين، بحيث أن الشعراء غير المسلمين لن يستطيعوا قوله.

فإذا نظرنا إلى شعر ابن المعتز في هذا المجال بهذه الروح وجدنا تلك النظرة الإسلامية البحتة للكون والحياة.

فالشيب عند ابن المعتز إنذار لصاحبه بأن يعمل ويجد؛ لأنه سفير الموت وهو مرحلة ما قبل الموت، يقول ابن المعتز:

ظَلَمتَ إذا طالَبتَ شَيئًا وَقَد فاتـا ... تُقابِلُ شيبًا بِالخِضـابِ وَهَيهاتـا
وَقالوا امرُؤٌ قَد شابَ وَابيَضَّ رَأسُهُ ... وَلا بُدَّ يَوماً أَن يَقولوا امرُؤٌ ماتا[2]

فبدلاً من أن تخضب الشعر ونخدع أنفسنا نسأل أن يستره مـن النار؛ لأن الشيب لن يرحل إلا برحيل صاحبه، يقول:

يا خاضِبَ الشَّيبِ بِالحِنّاءِ يَستُرُهُ ... سَلِ الإِلَـهَ سِترًا مِـنَ النّـارِ
لَنْ يَرحلَ الشَّيبُ عن دارٍ يَحلُّ بِها ... حتَّى يُرحّلَ عنها صاحبُ الدّارِ[3]

وما دام الشيب نذيرًا للموت فينبغي أن نقف مـع نفوسـنا وقفـة نجبرها على ترك الذنوب والتوبة إلى الله، يقول ابن المعتز:

أَيا نَفسِ قَـد أَثقَلـتِني بِـذُنوبِ ... أَيا نَفسِ كُفّي عَن هَـواكِ وَتـوبي

---

(١) اتجاهات الشعر في القرن الثاني، (ص: ٤٧٤).

(٢) الديوان، (٢/٣٨٦)، دار المعارف.

(٣) الديوان، (٢/ ٤٠٢)، المعارف.

وَكَيفَ التصابي بَعدَما ذَهَبَ الصبا   وَقَد مَلَّ مِقراضي عِقابَ مَشيبي[(١)]

ثم يرفع صوته مخاطبا نفسه يؤدبها ويلومها ويدعوها إلى التوبـة يقول:

يا نفسي ما الدهر إلا ما علمت فكم   ألست حدثتني أن أتـوب فلـم
إياك إياك من سوف فكم خـدعت   وأهكلت أمما مـن قبلنـا وأمـم
إذا دعيت إلى التقوى صممت وإن   ناداك داعي الهوى وألغى قلت نعم
توبي يكن لك عند الله جـاه تقـى   وقدمي من فعال الصالحين قـدم
يا وافدا للبلى حث المشـيب بـه   الآن كن خائفًا لا تقعـدن فقـم
لا يعجبنـك سـلطان ومقـدرة   كم غبط العز والسلطان ثم رجم ؟
أين الملوك الأولي كانوا وما جمعـوا   فهؤلاء مثلهم فاصبر كأن بهـم[(٢)]

ثم يحث نفسه على الرضا وترك الأماني؛ لأن الموت يجرف جميع الأمانى أمامه، يقول:

ألا يا نَفـسِ إن تَرضَـي بِقـوتٍ   وَأنـتِ عَزيـزَةٌ أَبَـدًا غَنيَّـه
دَعي عَنـكِ المَطـامِعَ وَالأمـاني   فَكَـم أُمنِيَـةٍ جَلَبَـت مَنِـيَّة[(٣)]

ثم يشتد وعيده وإنذاره، فالموت قادم بين لحظة وأخرى وما نحن إلا غرباء فى هذه الدنيا، يقول:

أَفِقْ عَنْكَ حانَتْ كَبْـرَةٌ وَمَشـيبُ   أَما للتُّقَى وَالحَقِّ فيـكَ نَصـيبُ
أَيَا مَنْ لَهُ في باطن الأَرْض مَنْـزِلٌ   أَتأنَسُ فِي الدُّنْيا وَأَنْـتَ غَريـبُ

---

(١) نفسه، (٢/ ٣٨٠).
(٢) الديوان، (٤١٨/٢). المعارف.
(٣) الديوان، (٤٢٤/٢).

يرى المرء عيب الذنب حين يصيبه — وليست له من قبل ذاك عيـوب
وما الدَّهرُ إلاَّ مثـلُ يـومٍ وليلـةٍ — وما الموتُ إلاَّ نازلٌ وقَريـبُ[١]

ثم يتحسر ويتألم ويقر ويؤكد تلك النهاية بهذا السفر الذي لا يعـود بعده، وبهذه الوحدة التي لا جمع بعدها، وبهذه السـكرة التـي لا شـراب بعدها. يقول:

آه مِن سَفرَةٍ بغَـيرِ إيـابِ — آه مِن حَسرَةٍ عَلى الأحبـابِ
آه مِن مَضجَعي فَريداً وَحيدًا — فَوقَ فَرشٍ مِنَ الحَصى وَالتُرابِ
آه من سكرة بغير شـراب — آه من وثبة بغـير ركـاب[٢]

وما دام الأمر كذلك فينبغي ألا نقف عند الـدنيا مهمـا تجملـت وتزينت؛ لأن أصدقائها وطلابها تعدهم أهدافا للنائبات، يقول:

يا لهف نفسـي كثيـرة اللهـف — بقاؤهـا مشـرف علـى التلـف
حار بها عـن سـرورها زمـن — أصـبح همـا بكـل ذي شـرف
دنيا تبـدت في زى دائـم العهـد — ألـوف تصـيد ذا الكلـف
فقلت لهـا لمـا رأيـت بهجتـها — إليـك عـني فعنـك منصـرفي
ما أنـت مـن همـتي ولا أملـي — ففـارقيني إن شـئت أو فقفـي
لا أشـتهي خلـة مواصـلها — منها مقـيم علـى شـفا جـرف
أقرب مـا كـان مـن مهالكهـا — ليلة يمسـي منـها علـى شـغف
تقفـي ابنـها دائبـا يحـددها — وهو رهـين الأحـلاق والخـرف
إذا تفكـرت في تلونهـا — أيقنـت منـها بسـرعة الخلـف

---

(١) نفسه، (٢/٣٧٧).
(٢) نفسه، (٢/٣٨١).

تطلـــب ديـــن الفـــتى فيبذلـــه هـــا ولا ينطـــوي علـــى أســـف
أي صـــــديق لهـــــا وأي أخ لم يمـــس للنائبـــات كالهـــدف
صـــرفت عنـــها الهـــوى وشـــرته ولم يـــأو منـــها ودي إلى كـــف[1]

وبعد هذه الجولة الصغيرة بين الشيب والنفس والموت وبين الدنيا نلمح الكثير من الحكم في شعر ابن المعتز في "مظاهر الحضارة المعنوية في شعره" في الباب الأول حيث أن معظم هذه الحكم يعبر أشد التعبير عن تلك الروح الإسلامية. نراه مثلاً متأثرًا بالقرآن:" وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم"، يقول:

رُبَّ أمـــرٍ تتّقيـــه جرَّ أمـــراً ترتجيـــه
خَفِيَ المَحبوبُ منـــهُ وَبَدا المَكـــروهُ فيـــه
فَاترُكِ الدَهرَ وَسَلِّمـــ ـــهُ إلى عَدلٍ يَليه[2]

ويتحدث عن المحافظة على المال، يقول:

يا ربَّ جُودٍ جـــرَّ فَقْـــرَ امـــرئ فقـــام للنـــاس مقـــامَ الـــذليلْ
فاشـــدُد عُـــرا مَالِـــكَ واســـتَبْقِه فالبُخلُ خيرٌ من سؤال البخيـــلْ[3]

ويتحدث عن حاجة الحر، فيقول:

أشد من عاصـــف الريـــاح تـــدوم لـــيلاً إلى الصـــباح
ومـــن ســـياط لهـــا لهيـــب تسرع في القلـــب كالقـــداح
ومـــن نـــزال بمرهفـــات ومن جـــراح علـــى جـــراح

---

(١) الديوان، (٢/٤٠٦)، دار المعارف.
(٢) الديوان، (٢/٤٢٣)، ط دار المعارف.
(٣) نفسه، (٢/٤١٤).

حاجة حر بلي بضر وبذل وجه إلى وقاح [1]

ويقول في صيانة الوجه من الناس:

أشهى منَ القَهوَةِ وَالكاسِ عَلى نَسيمِ الوَردِ وَالآسِ
وَمن كَحيلِ العَينِ مَيّاسِ مَن جادَ بِالفَقرِ عَلى ياسِ
بِرُغمِ حُجّابِ وَحُرّاسِ صِيانَةَ الوَجهِ عَنِ الناسِ [2]

ويقول في طلب الحاجة:

فلا تسألن إمرءًا حاجة يحاول من ربها مثلها
فترك ما كنت حملته ويبدأ بحاجته قبلها [3]

لكن مهما أوردنا هنا من الحكم لن تغني عن تصفح هذا الباب من ديوانه والذي نجده متأثرًا فيه بثقافته الإسلامية الواسعة وتجاربه الذاتية.

---

(١) نفسه، (٢/٣٨١).
(٢) الديوان، (٢/٤٠٤)، طبعة دار المعارف.
(٣) نفسه، (٢/٤١).



الغزل

لعل الغزل من الفنون الشعرية التي ظهر عليها آثار التغير عما سبقه من عصور، وذلك نتيجة للأجناس المختلفة الذين قامت عليهم الحضارة، " فلم يعد شاعر العصر العباسي يتغزل في المرأة الحرة كما كان الشأن غالبا عند شعراء العصر الأموي، فقد خرجت تلك المرأة من سوق الغزل وحل محلها الجواري والإماء، وكان ذلك سببا في أن يخرج الشاعر عن دائرة العفة والطهر، أو قل عن دائرة الوقار والإجلال للمرأة إلى دائرة الإباحية المسرفة والصراحة المكشوفة التي لا تعرف حياء ولا ما يشبه الحياء".[1]

" حقيقة أن العرب عرفوا الأدب المكشوف في الجاهلية، وعرفوه في العصر الإسلامي، فقد كان للأعشى وسحيم وامرئ القيس وطرفة شعر في الخمر وفي الغزل الحسي، ثم كان الأخطل في العصر الأموي صاحب خمر وخمريات، وكان عمر بن أبي ربيعة يتغزل في العصر الأموي غزلا حسيا، وكان للوليد بن يزيد خمر وفحش.

لكن هؤلاء كانوا قلة ضئيلة، وكانوا في أكثر الأحوال يتحرزون في ألفاظهم وتعابيرهم وقلما اصطنعوا التصريح الذي تتقزز منه النفوس".[2] أما في العصر العباسي فقد كان عدد المجان كبيرًا؛ وكانوا

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف، (ص : ٦٤).

(٢) تيارات ثقافية بين العَرب والفرس، د. أحمد الحوفي، (ص : ٢٠٦).

يعمدون إلى اللفظ العاري، والتعبير المكشوف والوصف المفصل. فهل كان هذا نتيجة محتومة لتطور المجتمع في نظم حياته ووسائل ترفه وتراثه الواسع؟ أو كان نتيجة لاختلاط الفرس بالعرب وكثرة الموالي والإماء، وما نقله الفرس إلى العرب من دروب اللهو والترف ؟ الحق أنه كان نتيجة محتومة للأمرين معًا.[١]

هذا بالإضافة إلى أن المرأة التي هي مدار شعر التغزل قد تغيرت كل التغير فهي في الغالب أمة فارسية أو رومية أو روسية أو هندية أو غير ذلك من أجناس أولئك الإماء المنتشرات في أرجاء العالم الإسلامي وهي مكشوفة الوجه تخالط الرجال وتجلس إليهم وتغدو وتروح في غير تحرج، هذا إن لم تكن مبتذلة تعيش في بيت من بيوت القيان".[٢]؛ ولذلك اكتشف فجأة معنى المجانية في العاطفة العشقية".[٣]

أما المرأة قبل هذا القرن فكانت في الغالب عربية حرة مستترة في بيتها لا يفارق الحجاب وجهها، ممنعة بين أهلها، لا تكاد تخالط أحد أو تجد الحرية في تصرفاتها.. وهذا الخلاف في الواقع له تأثير كبير على تطور التغزل؛ لأنه غيَّر مقاييس الجمال عند الشعراء تغييرًا واضحًا، وكيف لا يحدث هذا التغير وهناك فرق كبير بين العربية والرومية والفارسية أو الهندية في الملامح واللون والقد وفي كل ما يميز المرأة ويحدد جمالها

---

(١) نفسه، (ص: ٢٠٧).

(٢) اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، (ص:٥٣٠).

(٣) الغزل عند العرب، القسم الأول: جـ، ك، فاديه ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، (ص٣٣٧).

كذلك كان له تأثير آخر أخطر من ذلك - كما قلنا- ظهور الغزل الفاحش المتهتك الذي لا يرعى حرمة المرأة أو يصونها ".[١]

أما الغزل عند عبد الله بن المعتز فكما يقول النميري:" كان عبد الله ابن المعتز يعيب العشق كثيرًا إلى أن صار يقول:" هو طرف من أطراف الحمق وإذا رأى منا مطرقًا أو مفكرًا، اتهمه بهذا المعنى، ويقول: وقعت يا فلان، وقل عقلك وسخفت".[٢]

ولكن يبدو أن ابن المعتز قل عقله وسخف أيضًا، فنجد له بعض المقطوعات الغزلية والتي يركز فيها عواطفه ويبث شكواه وينشد أمانيه[٣] ولكن ليس فيها من مكابدة ولوعة وصبابة، ولذلك فإننا لا نقتنع بصدق ابن المعتز فيها وبالتالي فنحن لا نستطيع أن ننظمه في سلك العاشقين، ولكنه غزل المترفين الذين يتنقلون بين قلوب الغانيات يصورون مشاعر طارئة أو مغامرات متكررة[٤] فكل ما عند ابن المعتز في الغزل هو رقص على إيقاع الزمان الذي يعيش فيه.

فنراه يشارك في الغزل بكل ما فيه، فنجد في شعره بعضًا من الغزل الفاحش وهو رغم قلته موجود فكأنه قد أصيب بداء العصر، يقول:

كَم لَيلَة شَغَلَ الرُقادُ عَذولَها ... عَن عاشِقَينِ تَواعَدا لِلقاءِ
عَقَدا عِناقًا طولَ لَيلِهِما مَعًا ... قَد أَلصَقا الأَحشاءَ بِالأَحشاءِ[٥]

---

(١) اتجاهات الشعر، (ص:٥٣٢).

(٢) الديارات، لأبى الحسن الشابشتي، (ص: ٧٧).

(٣) شعر ابن المعتز، القسم الثاني، يونس السامرائى، (ص: ١٩٧).

(٤) الشعر والشعراء في العصر العباسي، (ص: ٧٦١).

(٥) الديوان، (٣١١/١)، طبعة دار المعارف.

أو يقول:

قَدْ وَلِيَتْ ديوانَنا جارِيَةٌ　　تُدْخِلُ مِيلَيْنِ مَعًا في مُكْحُلَةْ
عَفِيفَةُ الْكَفِّ وَلكِنْ دُبْرُها　　يَسْرِقُ مِنّا كُلَّ يَوْمٍ فَيْشَلَةْ[1]

وإذا كانت المرأة العربية الحرة قد تراجعت في الغزل وحلت محلها القيان والجواري كما قلنا، نجد أن ابن المعتز يعبر لنا عن حبه لقينة ولكنه غير خائف من مقابلتها، هذا بخلاف العربية الحرة والتي كانت على الدوام (حولها الأسياف في أيدي الحرس) يقول:

لَقَد عَرَضَتني بِالمُحَوَّلِ قَينَةٌ　　أَبى اللَهُ إِلّا أَن أَكونَ بِها صَبّا
فَقُم يا رَسولي فَالقَها غَيرَ خائِفٍ　　فَإِنّي قَد اِستَمكَنتُ مِن لَحظِها حُبّا[2]

حتى عندما أحب مظهرا الإخلاص في حبه لم يحب - وهو ابن الخليفة - إلا جارية تسمى " شر " والتي فيما يبدو إحدى جواري المغنية المعروفة " شارية " فقد جاء في أخبار شارية هذه قول أبي الفرج:" وكان المعتمد قد تعشق " شرا " جاريتها، وكانت أكمل الناس ملاحة وخفة روح، وعجز عن شرائها فسأل أم المعتز أن تشتريها له، فاشترتها من " شارية " بعشرة آلاف دينار وأهدتها إليه، ثم تزوجت بعد وفاة المعتمد بابن البقال وكان يتعشقها".[3]

وقد قال ابن المعتز فيها أشعارًا كثيرة، وأشار إلى زواجها من ابن البقال متمنيًا طلاقها منه:

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء، (ص : ١٤١).
(٢) الديوان، (٣١٧/١)، طبعة دار المعارف.
(٣) الأغاني، (١٢/١٦)، دار الكتب.

أقولُ وَقَد ضاقَت بأحزانِها نَفسي ألا رُبَّ تَطليــقٍ قَريــبٍ مِــنَ العُــرسِ
لَئِن صِرتِ للبَقالِ يا شرُّ زَوجَــةٍ فَلا عَجَبٌ قَد يَربُضُ الكَلبُ في الشَمسِ[1]

هؤلاء القيان كن على الأكثر مغنيات يمتعن حاسة السمع والبصر بحلاوة أصواتهن وجمالهن ورقتهن ولذلك نظم الشعراء شعر الغزل تلبيــة لحاجات الناس الوجدانية وحاجات المغنين والمغنيات من المقطوعات التي كانت توقع على الآلات والمعازف الموسيقية، ولذلك تطلبهــا دائمًــا دور القيان والطرب، وكان الشعراء يختلفون إلى هذه الدور لسماع الغناء فــي أشعارهم ولمغازلة الجواري والإماء.

ونجد ابن المعتز يلبي احتياجات هؤلاء القيان من المقطوعات الغزلية وذلك فيما يرويه صاحب الأغاني عن زرياب المغنية قالت:" زرت عبد الله بــن المعتز في يوم السّعانين، فسرَّ بورودي وصنع من وقته لحنًا في شعر عبد الله بن العباس الربيعي الذي له فيه هَزَجٌ وهو:

أنا في قلبي من الظبي كلومُ فدع اللوم فإن اللوم لــومُ
حبذا يومُ السّــعانين ومــا نلتُ فيه من سرور لو يدومُ

قالت: فصنع عبد الله ابن المعتز في البيت الثــاني، وبعــده بيــت أضافه إليه هزجًا وهو:

زارني مولاي فيه ساعةً ليته والله ما عشتُ يُقيمُ[2]

---

(١) الديوان، (٢/٤٥٠)، طبعة دار المعارف.

(٢) الأغاني، (١٠ / ٢٧٨ -٢٧٩)، طبعة دار الكتب.

هؤلاء القيان أيضًا " كان منهن من يتقن نظم الشعر، ومنهن من كن يطارحن الشعراء في أغاني الحب وأناشيده، ولعبن دورًا واسعًا في دفع المجتمع العباسي نحو الصبابة والعشق".(١)

ومن ذلك ما يرويه صاحب الأغاني عن ابن المعتز قال:" كانت خزامى جارية الضبط المغنى تنادمني، وأنا حدثٌ ثم تركت النبيذ. وكانت مغنية محسنةً شاعرةً ظريفةً. فراسلتها مرارًا فتأخرت عني، فكتبت إليها:

رأيتك قد أظهرت زهدًا وتوبةً ... فقد سمجت من بعد توبتك الخمر

فأهديت وردًا كي يذكر عيشةً ... لمن لم يمتعنا ببهجتها الدهر

فأجابت:

أتاني قريضٌ يا أميري محبرٌ ... حكى لي نظم الدر فصل بالشذر

أأنكرت يابن الأكرمين إنابتي ... وقد أفصحت لي ألسن الدهر بالزجر

وآذنني شرخ الشباب ببينه ... فيا ليت شعري بعد ذلك ما عذري(٢)

ومن أثر الحضارة على الغزل – بالإضافة إلى ما سبق– يسر المقابلة بين المحبين. يقول ابن المعتز:

يا هلالاً يَدورُ في فَلَكِ الما ... وَرِدِ رِفقًا بِأعيُنِ النظّارَه

قف لَنا في الطَريقِ إن لَم تَزُرنا ... وَقفَةٌ في الطَريقِ نصفُ الزيارَه(٣)

ومن يسر المقابلة إلى التراسل بينهم بالوسائل المختلفة فأحيانًا تكون المراسلة صحيفة مكتوبة. يقول ابن المعتز:

---

(١) العصر العباسي الثاني، (ص: ٢٢٢).

(٢) الأغاني، (١٠ / ٢٨٤ – ٢٨٥)، الشذر، خرز تفصل به الجواهر في النظم.

(٣) الديوان، (٢ / ٣٦١)، طبعة دار المعارف.

أهدَت إِلَيَّ صَـحيفَةً مَكتوبَـةً ... أرضَت بِها سُخطَ الضَميرِ العاتِبِ

يا لَيتَني ضُمِّنتُ طَـيَّ جَوابِهـا ... حَتّى أُقَبِّلَ كَفَّ ذاكَ الكاتِـبِ[١]

وأحيانًا تعطر الرسائل بالمسك:

وَآثارِ وَصـلٍ في هَـواكِ حَفِظتُها ... تَحِيّـاتِ رَيحـانٍ وَعَضّـاتِ تُفّـاحِ

وَكُتبٍ لِطافٍ تُربُها المِسكُ أُدرِجَت ... عَلى وَصفِ أحزانٍ وَتَعذيبِ أرواحِ[٢]

وأحيانا يكون التراسل بالتفاح المعضوض:

تُفّاحَـةٌ مَعضوضَـةٌ ... كانَت رَسـولَ القُبَـلِ

لَو كانَ فيهـا وَجنَـةٌ ... تَنَقَّبَـت بِالخَجَـلِ

تَناوَلَت كَفّـي بِهـا ... ناحِيَـةً مِـن أمَلـي

لَستُ أُرَجّي غَـيرَ ذا ... يا لَيتَ هَـذا دامَ لي[٣]

ومن التراسل إلى الإهداء بالورد. يقول:

أهدتْ إليَّ يدٌ نفسي الفداءُ لهـا ... الوردَ نوعين مجمـوعين في طبـق

كـأنَّ أبيضـه وسـط أحمـرهِ ... كواكبٌ أشرقتْ في حمرةِ الشفق[٤]

وكانوا يتشاءمون من الإهداء بالأترج "الليمون"، يقول:

أُترُجَّـةٌ قَـد أَتَتـكَ بِـرًّا ... لا تَقبَلَنْـها إِذا بَرَرتـا

لا تَقـبَلَن بِرَّهـا فَـإِنّي ... وَجَدتُ مَقلوبَها هَجَرتـا[٥]

---

(١) الديوان، (١/ ٣٢٠)، طبعة بغداد.

(٢) الديوان، (١/ ٣٢٠)، طبعة بغداد.

(٣) نفسه، (١/ ٤٠٤).

(٤) الديوان، (٢/ ١٩٣)، طبعة دار المعارف.

(٥) الديوان، (١/ ٣٢٧)، طبعة بغداد.

وأحيانا ما يخـون الرسول بين المحبين مما يـؤدي إلـى سـوء المعاملة بينهم. يقول ابن المعتز:

عَناءُ المُحِـبِّ طَويـلٌ طَويـلُ   وَصَـبرُ المُحِـبِّ قَليـلٌ قَليـلُ
وَزَلّاتُ رُسلِ الهَـوى لا تُقـا   لُ وَكَم مِن مُحِبٍّ نَفاهُ الرَسولُ
أَسَأتَ بِيَ الظَنَّ يـا سَـيِّدي   وَما سوءُ ظَنٍّ بِمِثلـي جَميـلُ
إِذا أَنا خُنتُ فَمَـن ذا يَفـي   أَتَدري فَدَيتُكَ مـاذا تَقـولُ[١]

وأحيانا يمتنـع الحبيب عن كتابة الرسائل لحبيبه. يقـول:

لِمَتى يا مُسيءُ وَالذَنبُ ذَنبُـك   وَيحَ نَفسي حَسيبُكَ اللَـهُ رَبُّـك
لا تُحاوِل بِحَبسِ كُتبِكَ قَتلـي   قَد تَوَلّى الفِراقُ قَتلي فَحَسبُك[٢]

وأحيانا تكون النظرات هي وسيلة الاتصال بين المحبين، يقول ابن المعتز:

وقامت تناجيـني خلال عيونهم   بعيني ودود القلب أومتـودد[٣]

وقد استمر الغزل بالمذكر وحب الغلمان في هذا العصـر امتـدادا للعصر الذي سبقه فقد "أدى وفرة الجواري وشيوع التهتك والخلاعة بينهن وتيسر الحصول عليهن بأهون سبيل، كل ذلك دفع بعض الرجال إلى الزهد في المرأة ومحاولة اقتناص اللذة من سبيل آخر يرضـي شـهواتهم التـي تؤججها مظاهر الترف والفراغ ووفرة الثراء في مجتمعهم، يضـاف إلـى ذلك مجالس الشراب التي شاعت في مختلف الطبقات وكان سـقاتها مـن

---

(١) الديوان، (١ /٣٢٧)، طبعة بغداد.
(٢) نفسه، (٢ /٣١٨)، طبعة دار المعارف.
(٣) الديوان، (١ /٤٥)، طبعة بغداد.

فتيان الفرس والروم الذين دربوا على هذا العمل خير تدريب، وكانوا على جانب كبيرمن الجمال والخلاعة في الوقت ذاته، وحينما كانت الخمر تسور في رؤوس الشاربين كانوا يتغزلون في أولئك السقاة، ويخمشونهم ويحاولون مواصلتهم بأى سبيل، ولهذا نجد كثيرا من شعراء الغزل بالمذكر يدور حول هؤلاء السقاة "[١] " ومن الإنصاف أن نقول: إلى الغزل بالمذكر بدعة ظهرت في العصر العباسي نتيجة لعوامل متعددة من زندقة وإباحة وانحلال خلقي، وكثرة الغلمان والمخنثين، وولع أبناء الفرس بهم، وإسفافهم في التغير عن عواطفهم المريضة بشعر عربى، ولا ننكر أن بعض العرب حاكوهم في كلفهم بالغلمان والتغزل بهم كما يتغزلون بالإناث"[٢] فحب الغلمان والتغزل بهم واللواط معهم أثر من آثار الفرس في العصر العباسي ولولا الفرس لما سرى هذا الداء إلى العرب؛ لأن العرب قوم بدويون، وهذا الشذوذ لا يمكن أن ينتج من البادية الخشنة الفطرية إنما نشأهذا الخنث بين أحضان النعيم والترف.

إن نظرة تاريخية لهذا الأمر تنبئنا أنه كان شائعًا في المدنيات القديمة، وقد ظهر على أرجح الأقوال في أواسط آسيا وانتقل إلى جزيرة كريت، والميثولوجيا اليونانية تعطينا أمثلة من هذا الاتصال الجنسي بين الآلهة. وفي أسبانيا كان هذا الاتصال محرمًا على العبيد وكانوا يعاقبونهم عليه؛ لأنه كان معتبرًا نوعًا عاليًا من أنواع اللذة لا يجوز للعبيد أن يستمتعوا بها.

---

(١) اتجاهات الشعر، (ص: ٥٤٦).

(٢) تيارات ثقافية بين العرب والفرس، (ص: ٢١٢).

وفي كريت كان يجوز للرجل أن يتزوج غلام في حفل رسمي حاشد، وكان ينظر إلى الشباب الذي تعدى سن المراهقة، ولم يرتبط بغلام كما ينظر إلى العانس التي تعدت السن الصالح للزواج".[١]

المهم أن هذا المرض الاجتماعي وفد مع وفود الأجناس الأجنبية على العرب وفي غياب عن الرقابة الدينية.

ويأبى ابن المعتز إلا أن يشارك في كل غرض شعري حتى في هذا المرض المخزي والمزري بكرامة الرجل، فنراه يتغزل في العديد من الغلمان، يقول في أحدهم:

مَضَيتَ فَكَم دَمعَةٍ لي عَلَيـــ ... ـكَ تَجري وَكَم نَفَسٍ يَصعَدُ

وَجِئتَ فَحُبِّيَ ذاكَ الَّذي ... عَهِدتَه كَما هُوَ لا يَنفَدُ

فَهَل لَكَ في أن تُعيدَ الوِصا ... لَ فَالعَودُ أَحمَدُ يا أَحمَدُ

ويقول فيه أيضًا :

يا عاذِلي في لَيلِهِ وَنَهارِهِ ... خَلِّ الهَوى يَكوي المُحبَّ بِنارِهِ

وَيحَ المُتَيَّمِ وَيحَهُ ماذا عَلى ... عُذّالِه مِن ذَنبِه أو عارِهِ

يا حُسنَ أَحمَدَ إذ غَدا مُتَشَمِّرًا ... في قُرطَقٍ يَمشي بِكَأسِ عُقارِهِ

وَالغُصنُ في أثوابِه وَالدُّرُّ في ... فَمِهِ وَجيدُ الظَّبيِ في أزرارِهِ

لَكِنَّهُ قاسٍ كَذوبٌ وَعدُهُ ... نائي المَزارِ عَلى دُنوِّ جِوارِهِ

ما كانَ أَحذَقَني بِهُجرَةِ مِثلِهِ ... لَولا مَلاحَةُ خَدِّهِ وَعِذارِهِ[٢]

ويقول في آخر:

---

(١) مقارنة بين الشعر الأموي والعباسي، (ص: ٢٩٢ – ٢٩٣).

(٢) الديوان، (١ / ٣٦٢)، طبعة بغداد.

وَيحَ نَفسي مِن حَبيبٍ ناقِضِ العَهدِ مَلولِ
ظَبيُ إِنسٍ فاتِرِ الأَلـ حاظِ ذي جَفنٍ كَحيلِ
عَيَّروا عارِضَهُ بـالـ مِسكِ في خَدٍّ أَسيلِ
تَحتَ صُدغَينِ يُشيرا نِ إِلى وَجهٍ جَميلِ
عِندِيَ الشَوقُ إِلَيهِ وَالتَناسي عِندَهُ لي[1]

وكثيرا ما كان يعجبه في هؤلاء الغلمان انكسار جفونهم وكأنهم نساء بارعات في الحب والغزل. يقول ابن المعتز واصفًا أجفانهم:

لا تلوموني على رشأ ليس لي من حبه عوض
إن في أجفانه مقلته مرضًا يشفى به المرض[2]

ويقول في انكسار العين وكأنها مريضة :

خطوات الهوى أصابت فؤادي فرماني بلحظه تعريض
ومريض الجفون من غير سقم لهف نفسي على الصحيح المريض[3]

وابن المعتز إن كان شارك في هذا الغرض الشعري القبيح إلا أنه لم تأخذه ثوره الجنس إلى ارتكاب المعاصي والفاحشة مثل بشار ووالبة وأبي نواس ففي حين يقول والبة بكلام مكشوف الألفاظ:

قلتُ لساقينا على خَلوةٍ ادن كذا رأسَك من راسيا
ونَم على جنبك لي ساعةً إني امرؤٌ أنكحُ جُلاسيا[4]

---

(١) الديوان، (٢ / ٢٩٥)، طبعة دار المعارف.
(٢) الديوان، (١ /٣٧٨)، طبعة بغداد.
(٣) الديوان، (١ /٣٧٩).
(٤) الأغاني، (١٩ /٦٤)، طبعة دار الشعب.

أو يقول أبو نواس في تفضيل البنين على البنات:

أأختارُ البحارَ على البَراري ... وأحيانًا على ظَبيِ الفَلاةِ
دَعيني لا تَلوميني فإنّي ... على ما تكرَهينَ إلى المَماتِ
بذا أوصى كتابُ اللهِ فينا ... بتفضيلِ البَنينَ على البَناتِ[1]

نجد ابن المعتز لم يرتكب فاحشة قط كما يقول:

وَلَم آتِ ما قَد حَرَّمَ اللهُ في الهَوى ... وَلَم أترُك مِمّا عَفا اللهُ باقِيا[2]

وغاية ما كان يصل إليه الريق. يقول:

نامَ رَقيبي سَكرًا ... يَحرُسُني في حُلمِه
وَباتَ مَن أهوى مَعي ... يُذيقُني ريقَ فَمِه [3]

" وكذلك يبدو من شعره أن ضميره كان يخزه وخزات قوية كلما استعرض عواطفه نحو الغلمان، فطبيعته كانت أنقى من تستسلم استسلامًا تامًّا لهذا النوع من الشذوذ. ولعل القبل والنظرات كانت آخر ما يفكر فيه صاحبنا. وأنه أولع بها؛ لأنها كل ما يحل لنفسه من تلك الفاكهة المحرمة. ويؤكد ما ذهب إليه من أن الرجل كان يستحي حتى فيما بينه وبين نفسه من عواطفه ونزعاته، هذا ما نراه من أبيات يشفق فيها على دينه أن يتبخر على حرارة تلك العواطف:

- أفسَدَ ديني بَدرُ ... في الطَّرفِ مِنهُ سِحرُ

-أنتَ أفسَدتَ الحَياةَ بِهَجرٍ ... وَمَماتي بِحِسابٍ طَويلِ

---

(١) ديوان أبي نواس، تحقيق عبد المجيد الغزالي.

(٢) الديوان، (٢ / ٤٠٢)، طبعة بغداد.

(٣) الديوان، (٢ /٤٢٣).

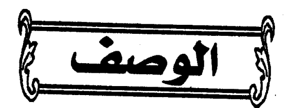
ولم يرد في ديوانه ما يوهم أنه وقع مع الغلمان فـي فاحشـة إلا أبيات قلائل تنقصنها الصراحة فهو على كل حال يخاف الله. يقول:

وَإني وَإن كانَ التَصابي يَحُـثُني ... لِأَبلُغُ حاجاتي وَأَجـري عَلـى قَـدري

كَريمُ ذُنوبٍ إِن يُصِب بَعضَ لَذَّةٍ ... يَدَع بَعضَها خَوفَ الأَحاديثِ وَالوِزرِ[1]

---

(١) عبد الله بن المعتز العباسي: محمد عبد العزيز الكفراوي، (ص: ٤٥).



الوصف

ربما لم يذع صيت ابن المعتز العباسي في الشعر إلا لتقدمه فــي الوصف والتشبيه " فابن المعتز لم يغادر صغيرة أو كبيرة تستحق التدوين في سجل الأدب الخالد إلا أحصاها. فنحن نستطيع بفضل هذا الجزء مــن شعره أن نتبين حياة المرح والترف التي كان يحياها متنقلاً من قصر إلــى قصر ومن ضيعة إلى ضيعة، ومن مجلس طرب حافل بالمسرات إلى آخر أحفل منه. ونستطيع أيضا بواسطة هذا الوصف أن نعرف شيء غير قليل عن الطبيعة التي كان يغازلها ويناجيها ونستطيع كذلك أن نظفر في هــذا الوصف بمعلومات اجتماعية وتاريخية تجمع بين الفائدة والطرافة إلى حد بعيد". [١]

ولسوف يتناول الحديث عــن الوصــف الحــديث عــن الخمــر، والطبيعة، والطرديات، وذلك مــن خــلال أثــر الحضــارة علــى هــذه الموضوعات.

---

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي.

١- (الخمر)

لم يكن الحديث عن الخمر جديدًا بالنسبة للشعر في العصر العباسي " فكان العرب يعرفون الخمر في جاهليتهم، وكانت ترد إلى بلادهم من جهات شتى وكثيرًا ما وصفها بعض شعرائهم، ووصفوا مجالسها وسقاتها وتحدثوا عن الندامى وعن القيان اللائي كن يغنين لهم في مجالس الشراب".[١]

ولكن الخمر في الشعر الجاهلي لم تزد على عدة أبيات قليلة تحتويها القصائد الطوال ولذلك " ينبغي أن نقرر أننا لا نجد في هذه الأوصاف الجاهلية الخمر إلا تشبيه المحسوس بالمحسوس، وقل أن نراهم يتعرضون لإيضاح صورة معقولة بأخرى محسوسة، كما أن أغلب هذه الأوصاف تعد ساذجة أولية بالنسبة لما بلغه فن الخمريات في القرن الثاني. فأثر الخمر في النفوس عندهم لا يعدو أنها تدفع للكرم[٢] كما اتخذوا الخمر كأداة للهو والمرح.. ورمزوا للإلحاد بالقيم الاجتماعية والأخلاقية.

وكذلك اتخذت كمظهر للترف والكلام؛ إذا كانت الخمر نادرة، تجلب من الشام أو العراق أو فارس، فقد كانت باهظة الثمن لا قبل بها إلا للكريم الثري ويفخر باقتنائها وشربها وتقديمها لمن ينتجع داره "[٣]

فلما جاء الإسلام حرم الخمر تحريمًا قطعيًّا، ووصفها بأنها رجس من عمل الشيطان، فكف الشعراء عن وصفها، فقال الله في كتابه العزيز:

---

(١) تيارات ثقافية بين العرب والفرس، (ص:٢١٣).

(٢) اتجاهات الشعر، (ص:٥٠١).

(٣) فن الشعر الخمري وتطوره عند العرب، إيليا الحاوي، (ص: ٧٣ – ٧٤).

"إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ"[١]، بالإضافة إلى بعض أحاديث الرسول (ﷺ):" كل مسكر خمر وكل خمر حرام ولا يشرب شارب الخمر حين يشرب وهو مؤمن".

ثم عاد بعض الشعراء إلى التغني بها في العصر الأموي وكان زعيمهم في المجاهرة بشربها والإكثار من ذكرها الأخطل الشاعر التغلبي النصراني.[٢]

فقد نالت الخمر شيء على عهد يزيد بن معاوية، وأشياء على عهد الوليد بن يزيد ولكن ذلك لم يصل بها إلى أن تكون فناً مستقلاً من الفنون.[٣]

" ولم يكد يستهل العصر العباسي بما صاحبه من حضارة وترف وثراء وإطلاق للحرية الفردية ومخالطة عميقة للفرس وغيرهم وما نشأ عن ذلك من زندقة ومجون حتى كثرت أنواع الشراب، وتعددت مجالسه وأقبل ناس عليه في غير تأثيم، فلهج كثير من الشعراء بالخمريات".[٤]

فالشراب والعكوف عليه عادة نقلت إلى المجتمع الإسلامي بتأثير الفرس فقد كانوا يعرفون بالإفراط في حب النبيذ وكانت الديانة الزرادشتية تبيح شربه بل تجعله من شعائرها فلما قوي نفوذهم في الدولة العباسية

---

(١) سورة المائدة، (الآية: ٩٠).

(٢) تيارات ثقافية، (ص: ٢١٣).

(٣) ابن المعتز صورة لعصره، (ص: ٢٠٣).

(٤) تيارات ثقافية، (ص:٢١٣).

نشروا حياة الأكاسرة وما كان فيها من حضارات ولهو ونقلوا ما كان لهم من نبيذ وغناء وغزل بالمذكر وما إلى ذلك.[١]

" كما كان للشعوبية تأثيرها في إذكاء أدب الخمر والإقبال على الخمر ذاتها كمظهر من مظاهر الحضارة وترفها، مقابلين بين مجلسها المنعم وحياة العرب الشظفة البائسة، فالخمر ربيبة الحضارة بل هي رمزها فيما كان الطلل رمزًا لحياة العرب الضاربين في متاهة صحرائهم القاحلة.[٢]

المهم فقد لهج كثير من الشعراء بالخمريات، وتزعمهم أبو نواس، ففي ديوانه آلاف الأبيات في الخمر، أتى فيها بكل جديد من الفكر وطريف من الخيال.

وهو الذي ابتدع افتتاح القصائد بالخمر، إذ كانت مطالع كثير من قصائده إشادة بالخمر ودعاء إلى شربتها، وتهكما بالذين يبدأون قصائدهم بالغزل وبكاء على الأطلال، كقوله:

صِفَةُ الطُّلولِ بَلاغَةُ القِدمِ ... فَاجعَل صِفاتَكَ لِابنَةِ الكَرمِ[٣]

فإذا أردنا بعد ذلك أن نتبين أثر الحضارة على الخمر في شعر ابن المعتز. نجد أن ابن المعتز نهج طريقة أبي نواس في الخمر بداية بالثورة على الأطلال، فيقول:

خَلِيلَيَّ باللهِ اقْعُدَا نَصْطَبِحْ بِلاَ ... قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

---

(١) ضحى الإسلام، (١ / ١١١ – ١١٢).

(٢) فن الشعر الخمري، (ص: ١٧٨).

(٣) تيارات ثقافية، (ص: ٢١٣)، ديوان أبي نواس، (ص: ٢٣٤).

وَلا تُقرِ مِقْرَاة امْرِئِ الْقَيْسِ قَطْرَةً ... مِنَ الْغَيْثِ وَارْجُمْ سَاكِنِيها بِجَنْدَلِ
وَلَكِنْ دِيارَ اللَّهوِ يا رَبِّ فَاسْقِها ... وَدُلَّ عَلَى خُضْرانِها كُلَّ جَدْوَلِ[١]

ولقد أشرنا في الحديث عن حياة ابن المعتز إلى أنه لجأ إلى الشراب لينسيه همومه، فليس عنده علاج للرزايا إلا المدام ويا حبذا لو كانت وصديق وقينة، يقول:

والرزايا ليستْ تُداوَى بشيء ... كمدام وقينةٍ وصديقِ[٢]

فإذا ما دخل إلى الخمر من بابها الواسع راح يقنن لها، فهي عنده جامعة لكل الفضائل، يقول:

ما وجدنا من الفضائل طرا ... خلة لا تعاب في الخندريس[٣]

ولذلك ينبغي ألا تنقطع عنها ولا تسمع لقول العذول:

سَل بالصَبوحِ غَبوقا ... وَلا تَكُن مُستَفيقا
وَاعصِ العَذولَ وَدَعهُ ... يَنفُخ بِعَذلِكَ بوقا
دَعِ المُسَيكينَ حَتّى ... يُقيمَ بِالنُسك سوقا
لا تَسلُكَنَّ إِلى غَيـ ... ـرِ ما تُحِبُّ طَريقا
فَإِنَّ في ذاكَ عِندي ... رَأيا مُضيئًا وَثيقا
وَخُذ وَهاتِ سُلافًا ... مِنَ الشَرابِ رَحيقا
لا تَشرَبَنَّ سِواها ... أَو مِن حَبيبِكَ ريقا[٤]

(١) الديوان، (٢/ ٢٩٠)، طبعة دار المعارف.
(٢) نفسه، (٢/٢٨٧).
(٣) الديوان، (٢/٢٧٧)، طبعة دار المعارف.
(٤) نفسه، (٢/٢٨٦).

ثم يتحدث عن أثر الخمر في شاربيها:

وَقَدْ شَرِبوا حتَّى كأنَّ رؤوسَهُمْ   من اللِّينِ لم تُخلق لَهُنَّ عِظامُ

ثم يصل أثر الخمر عنده إلى حد تقديسها والصلاة لها:

مَوْلاَي أجْوَرُ مَنْ حَكَـمْ   صَبْرًا عَلَيْـهِ وَإنْ ظَلَـمْ
لَعِـبَ الْقِلَـى بعُهُـودِهِ   فَكَأنَّما كانَـتْ حُلُـمْ
وَمُصَرعِينَ مِـنَ الْخمـا   رِ علَى السَّواعِدِ وَاللِّمَمْ
قَتَلَـتْهُمْ خَمَّـارَةٌ   عَمْدًا وَلَمْ تُؤْخَذْ بِـدَمْ
وَسَـقَتْهُمْ مَشْـمُولَةً   ظَلَّتْ تُحَدِّثُ عَـنْ إرَمْ
لَمَّـا أرَتْهُـمْ كَأسَـها   شَرِبُوا وَما قَالُوا بِكَـمْ
وكذاك لو قالـت لهـم   صلوا لها قالوا نعـم[1]

وما دامت الخمر وصلت عنده إلى هذه المرحلة فليس من شك أن يعرف عندها كل كل شيء. حتى أنه لم يترك كبيرة ولا صغيرة في الخمر إلا وقال فيها.

ولننظر إلى هذا الاستقصاء في وصفة الخمر فهو يتتبع الخمر منذ كانت عناقيد في شجر العنب يسقيها الفرات بمائه.

ينظم المتعهد بها جداولها بالمساحي حتى يصل الماء إلى كل جزء فيها، ثم يجنيها عندما يستوى ثمارها، ويعطيها للعصار الذي يضعها فـي بطن مختومة بالطين في وهج الشمس حتى إذا ما جاء الخريف صب عليها الماء وقدمها للشاربين، حيث يقدمها ساقي خنـث الألحـاظ علـى أرض مفروشة بالورود ويقول:

---

(١) الديوان، (٢/ ٣٠١).

وكـأس حبريـة شـكت بمزلهـا أحشاء مشـعرة بالقـار جوفـاء
جادت بهـا حفـل الأثمـار يانعـة بطيزنا باذ أو كـوثى وسـوراء
ترفو الظـلال بأغصـان مقرطـة سود العناقيد في خضـراء لفـاء
أجرى الفرات إليها مـن سلاسـله نهرًا تمشي على جراعـاء ميثـاء
وطاف يكلؤها مـن كـل قاطفـة راع بعين وقلـب غـير نسـاء
موكـل للمسـاحي في جـداولها حتى يـدل عليهـا حيـة المـاء
وآب في آب يجنيهـا لعاصـرها كأن كفيـه قـد علـت بحنـاء
وظل يرقص فيهـا كـل ذي أشـر قاس على كبد العنقـود وطـاء
ثم استقرت ونار الشمس تلفحهـا في بطن مختومـة بـالطين كلفـاء
حتى إذا بـرد الليـل البـهم لهـا وبلـها سـحر منـه بأنـداء
صب الخريف عليهـا مـاء غاديـة أقامها فوق طـين بعـد رمضـاء
تلك التي إن تصادف قلب ذي حزن تجزل عطيته مـن كـل سـراء
يسقيكها خنث الألفـاظ ذو هيـف كأن ألحاظـه أفـرقن مـن داء
على فراش من الورد الجـني ومـا بدلت من نفحات الـورد بـاللأ

ثم يستقى الكثير من أسمائها وأنواعها. فهي عقار:

قم فاسقيني من عقار حمراء كالجلنـار[1]

وهي راح وخندريس:

اسقِنِي الراحَ في شَبابِ النَهارِ وَانفِ هَمّي بِالخَندَريسِ العُقارِ[2]

وهي سـلافـة:

---

(١) الديوان، (٢ / ٢٥٩)، طبعة دار المعارف.

(٢) نفسه، (٢٥٩).

وليلٍ بتُّ أسقاها سُلافاً مُعتّقةً كلونِ الجُلّنارِ[١]

وهي غُيّمة:

وَغُيّمَةٍ مثلِ ذوْبِ العَقيـــ قِ لَمْ تَشُقْ بالنّارِ وَالمَعْصَرهْ[٢]

وهي صفراء كرخية:

غَدا بها صَفراءَ كَرخيَّةً كأنَّها في كأسِها تَتَّقِدْ[٣]

وهي مشمولـــة:

وَمَشمولَةٍ قَد طالَ بِالقَفصِ حَبسُها حَكَت نارَ إِبراهيمَ في اللَّونِ وَالبَردِ[٤]

وهي عـــروس:

وعروسٍ زُفّتْ على بطنِ كفٍّ في قميصٍ مُنقّشٍ من زُجاجِ[٥]

وهي الصبوح إذا شربت في الصباح وهي الغبوق إذا شربت فـــي المساء، يقول في تفضيله الغبوق على الصبوح:

لا تَـــدْعني لَصـــبُوحٍ إنَّ الغبــــوقَ حبـــيبي

فالليلُ لـــوْنَ شـــبابي والصبحُ لوْنَ مشـــيبي[٦]

ثم يتحدث عن كؤوسها وأباريقها ودنانها والشراب على أصـــوات الموسيقى. يقول:

رب كأسٍ شربتها من يديه وصباحٍ بوجهه كـــان ســـعدا

---

(١) نفسه، (٢٥٨).

(٢) نفسه، (٢٥٤).

(٣) الديون، (٢٤٥).

(٤) نفسه، (٢٣٩).

(٥) نفسه، (٢٢١).

(٦) نفسه، (٢٢٢).

بين كأسٍ ومزهر وصفَ الصوت بأوتاره فأدا
ودنانٍ كمثل صفِّ رجالٍ قد أقيموا ليلعبوا دستبندا
وأباريق قد صفون إلى الميزان والعلج يفصد الدن فصدًا
إذ جعلنا الورد الجنّي علينا مطرًا، والغمام عودًا وندا

وأحيانًا يشرب في الزجاجة:

أشرب الراح في الزجاجة إن في الراح راحة للنفوس[1]

وكثيرًا ما يتحدث عن تعتيق الخمر فهي باتت تحدث عن إرم أو أنها من عهد كسرى أو مكثت عشرين حولا أو أنها نسى التاريخ ميلادها. يقول:

فَبِتُّ أُسْقَى مِنْ يَدَيْ بَدْرِها شَمْسًا كَساها المَاءُ إزْبادَها
أُمُّ سنينٍ مزمنٌ عهدها قد نسي التاريخ ميلادها[2]

ثم يتحدث عن الساقي والساقية يكونان على الأكثر من اليهود أو النصارى، يقول:

وخمّارة من بنت اليهود ترى الزق في بيتها شائلاً[3]

وأحيانًا يكون الساقي من النصارى معلقًا الصليب في لبته:

مِن كَفِّ ظَبيٍ مُقَرطَقٍ غَنِجٍ يَعشَقُهُ مَن عَلَيهِ يَعذُلُني
تَلوحُ صُلبانُهُ بِلَبَّتِهِ كَنورِ زَهرِيَّةٍ بِلا غُصُنِ[4]

---

(١) نفسه، (٢ / ٢٧٧).
(٢) الديوان، (٢/٣٤١)، طبعة دار المعارف.
(٣) نفسه، (٢/ ٢٩٢).
(٤) الديوان، (٢/ ٣١١).

ورغم ارتباط الغناء والشراب في مجالس الخمر منذ العصر الجاهلي، فكما يقول الدكتور ناصر الدين الأسد: " وأول ما يبدو لنا من هذه المجالس اجتماع الغناء والشراب، وكأنما الخمر أمر لابد منه لأطراح الهموم ومشاغل النفوس، وجلاء الأرواح وصقلها، وبذلك يعد للدخول في الجو الفني الغناء عند من يطلبون الغناء متعته الروحية الفنية، أو كأنما كانت الخمر أمر لابد منه لتحريك الشهوة، وانطلاق سعار الجسد من الوقار والتحفظ، فتتعاون مع الغناء على التمتع بأجساد هؤلاء القيان فى الحانات، [1]ولكن هذه الأمور توسعت في هذا العصر وأصبحت وجهة حضارية يعرف بها وتميز.

يقول ابن المعتز عن الموسيقى والغناء والشراب:

أَمكَنتُ عاذِلَتي من صَمت أَبّاءِ ... ما زادَهُ النَهيُ شَيئًا غَيرَ إِغراءِ

أَينَ التَوَرُّعُ مِن قَلبٍ يَهيمُ إِلى ... حانات لَهوٍ غَدا بِالعودِ وَالناءِ

وَصَوتِ قَتانَةِ التَغريدِ ناظِرَةٍ ... بِعَينِ ظَبيٍ تُريدُ النَومَ حَوراءِ[2]

وكان ابن المعتز حاذقًا في معرفة مزايا المغنين ومحاسنهم وعيوبهم، فلنستمع إليه يضع المواصفات الدقيقة للغناء في نطاق الوصف الذي كان له قصب السبق فيه. يقول:

أشتهي في الغناء بَحَّةَ حَلْقٍ ... ناعمِ الصوتِ مُتْعَبٍ مَكْدودِ

كأنينِ المُحبِّ الحلَه الشو ... قُ فضَاهَى بـه أنينَ العُـودِ

لا أُحِبُّ الأَوْتارَ تَعْلُو كما لا ... أشتهي الضَّرْبَ لازمًا للعُـودِ

---

(١) القيان والغناء في العصر الجاهلي، د/ ناصر الدين الأسد، (ص: ١١٠).

(٢) الديوان، (٢ / ٢٠٨)، طبعة دار المعارف.

وأحبُّ المُجتَبَات كَحُبِّي للمَبَادي مَوْصُولَةً بالتَّشْيِيد
كهُبوبِ الصَّبَا تَوَسَّطُ حالاً بَيْنَ حَالَيْنِ شِدَّةً ورُكُودِ[1]

ولا يكتفي ابن المعتز بهذه الأبيات في وصف الغناء المتقن، وإنما يأتي بأبيات أخرى في نفس المعني حسنت صياغة وقلت تفصيلاً. يقول:

آه مِنْ بُحَّةٍ بِغَيْرِ انْقِطَاعِ لِفَتَاةٍ مَوْصُولَةِ الإِيقَاعِ
أَتْعَبَتْ صَوْتَهَا وَقَدْ يُجتَنَى مِنْ تَعَبِ الصوتِ رَاحَةُ الأَسْمَاعِ
فَغَدَتْ تُكْثِرُ البُحَاحَ وَحَطَّتْ طَبَقَاتِ الأَوْتَارِ بَعْدَ ارْتِفَاعِ
كَأَنِينِ المُحِبِّ خَفَّضَ مِنْهُ صَوْتَ شَكْوَاهُ شِدَّةُ الأَوْجَاعِ[2]

وكثيرا ما يكون الشراب في الرياض والبساتين. يقول:

اشرب على الورد في البساتين وخضرة الآس في الميادين
من قهوة في الدنان مسكتها يا صاح رطلا ملا وسقين[3]

وعن الرياض والغناء والشراب يقول:

قمر طالع وروض أنيقٌ وغناءٌ حلوٌ وزمرٌ رقيقُ
وكئوسٌ كأنهنَّ قشور اللؤ لؤ الرطب حشوُهُنَّ بروق
وحنين الأوتار حين هذا اللـ يل وطابت لسامعيها الحلوق[4] دور الأديرة

كما لعبت الأديرة دورًا هامًا في خلق جو بهيج للخمر وشاربيها "فقد دأب الرهبان على اختيار الأديرة في أجمل المواقع، وقد ابتنوها منذ

---

(١) زهر الآداب، للحصري، (٢/ ٦١٢).

(٢) نفسه، (٢/٦١٣).

(٣) الديوان، (٢/ ٣١٧)، طبعة دار المعارف.

(٤) نفسه، (٢/ ٢٨٧)، طبعة دار المعارف.

القرون المسيحية الأولى. ولعل البلاد العربية كانت تحفل بهذه الأديرة التي حولها الرهبان إلى شبه جنائن كثيرة الخضار، رائعة المنظر، حتى جعل يقصدها طلاب النزهة للمتعة والتنزه. ولقد جعل هؤلاء يحرثون أرضيهم ويزرعون فيها الكرمة، ومن ثم يتفننون في عصر الخمر وتعتيقها حتى اشتهرت الأديرة بذلك وأصبح طلاب اللهو والخمور الجيدة يقصدونها لينعموا بخمرها. هذه العادة كانت شائعة في العصر العباسي، حيث كنا نرى الخلفاء بالإضافة إلى الأمراء يؤمون الأديرة للتنزه، وطلبًا للتلذذ بخمورها العتيقة الجيدة. يقول ابن المعتز في دير العذارى:

خليلي قم حتى نموت من السكر ... بحانة خمار مماتًا بلا قبر
ونشرب من كرخية ذهبية ... ونصفح عن ذنب الحوادث والدهر
الا رب أيام مضين حميدة ... بدير العذارى والصوامع والقصر
وكم من ليال مسعدات لذي الهوى ... حسرت على اللذات فيهن بالحسر[١]

ومن أثر مظاهر الحضارة على الخمر في هذا العصر استعمالهم السفن في الركوب للوصول إلى أماكن الشراب. يقول ابن المعتز:

بِالْكَرْخِ وَالَمْيدانِ لِي مَنْزِلٌ ... وَلَدْنِي الْقَفصُ وَقَطْرَ بُّلُ
وَخَيْلُ مـاءٍ لِـيَ طَيَّارَةٌ ... تُدْبِرُ بِي فِي السَّيْرِ أَوْ تُقْبِلُ
تُلاطِمُ الْمَاءَ مَجادِيفَها ... حامِلَةٌ لَكِنَّها تُحْمَلُ
غايَتُها قَصْرُ حُمَيْدٍ وَفِي ... بُسْتانِ بِشْرٍ دَهْرُها الأَطْوَلُ

---

(١) الديارات: للشابشتي، (ص: ١٠٩)، وهو دير على شاطئ دجلة وهو دير حسن عامر، حوله البساتين والكروم وسمي كذلك لأنه في جوار متبتلات عذارى، هن سكانه وقطانه، فمسي الدير بهن (الديارات، ص ٧٨).

وَإِنْ تَجِدْ مِنْ ماصِـرٍ غَفْلَـةً   تَطِرْ إِلَى القفص لا تَعْدِلُ[١]

ومن أثر الحضارة أيضًا تأثر شعر الخمر بالفلسفة " فالعصر العباسي كان عصر علوم وفلسفة، خاصة بعد أن تمت الترجمات اليونانية، وقام الجدل الدينى (بتأثر) الفلسفة والواقع أن المسلمين قد ءامنوا بالإسلام إيمانًا غير مصحوب بأي تساؤل إلا أنهم عندما اطلعوا على الفلسفة اليونانية تأثروا بالتيار المنطقي وحاولوا أن يدرسوا الدين وفقًا للأساليب المنطقية، فنشأ لديهم الجدل والفقه، وتمرسوا بالمنطق تمرسًا صارمًا، حتى أنه غدا أهم ميزة من مميزات التجديد في العصر العباسي".[٢]

ومن أثر الفلسفة في خمريات ابن المعتز:

استخدامه الشك والصدق والكذب في أثر البلى على الخمر. يقول:

فأمطرَ الكأسُ مـاءً مـن أبارقـه   فأنبتَ الدُّرَّ في أرضٍ من الـذهبِ

وسبَّحَ القومُ لمـا أنْ رأوا عَجَبًـا   نُورًا من الماءِ في نارٍ مـن العنـبِ

لَم يُبقِ فيها البِلى شيئًا سوى شَبَحٍ   يُقيمُهُ الظَنُّ بَينَ الصُدقِ وَالكَذِبِ[٣]

ويقول أيضًا:

صَفَت وَصَفَت زُجاجَتُها عَلَيها   كَمَعنىً دَقَّ في ذِهنٍ لَطيفِ[٤]

وقوله:

أبقى البلى روحها بلا جسد   فخلت موجود كونها عدمًا

---

(١) الديوان، (٢/ ٢٩٢ - ٢٩٣)، طبعة دار المعارف.

(٢) فن الشعر الخمري، (ص: ١٥١).

(٣) الديوان، (٢/ ٢١٩).

(٤) نفسه، (٢/ ٢٨٢).

أما عن أثر الإسلام في خمريات ابن المعتز فنحن نعلم أن الـــدين الإسلامي حرم شرب الخمر تحريمًا قطعيًا في الدنيا ولكنه عاد وجعلها من لذة أهل الجنة فوصف القرآن آثارها وأباريقها وشرابها؛ ولهذا كما يقــول الدكتور زغلول سلام:" لعل الناس في الحياة الدنيا يشتقونها وقد مثلها لهــم القرآن بكؤوسها وسقاتها ومجالسها وأراد سراة الناس أن يحققوا صورة من الجنة التي يوعدون في حياتهم الدنيا" وهذا القول قد يكون صـــحيحًا، لأن الشر خلق لقصد مثلما خلق الخير تمامًا، وخلق ليسلكه بشر مثلمـــا يســـلك الخير آخرون فقد يكون ذكر الخمر في القـــرآن بجانـــب كونهـــا حـــافزًا للمسلمين المتقين في الدنيا دافعًا لأن يشربها ضعاف النفـــوس فيحاســـبوا عليها وربما يدخلوا النار وإلا فلماذا خلقت النار؟ بالطبع لكي يدخلها الذين يرتكبون الخطأ، إذن فالخطأ مقصود والدوافع إليه مقصودة أيضا.

ومن الأثر الإسلامي أيضًا تلك الإشارات العديدة في شـــعر ابـــن المعتز والتي نفهم منها أن ابن المعتز كان يعرف أن الخمر محرمـــة فـــي الإسلام ولذلك نراه في مواضع عدة يبين لنا أنها منافية للتقوى أو أنها ذنب يجب أن يتوب عنه، أو أن إبليس السبب في شربها لكثرة إغوائه، المهم أننا نفهم من شعره حرمانية الخمر. فنراه يوضح لنا أن إبليس راضـــى نفســـه حتى صبت ومنعها من سلوك التقوى. يقول:

رَاضَ نَفْسِي حَتَّى صَبَتْ إِبْلِيسُ ... وَقَدِيماً قَدْ طَاوَعَتْـــهُ النُّفُـــوس

كَمْ أَرَدْتُ التُّقَى فَما تَرَكَتْنِـــي ... خَنْدَرِيسٌ يُدِيرُها طَـــاوُوسُ[1]

ويعترف أن السكر آفة وذنب:

---

(١) الديوان، (٢/ ٢٧٢)، طبعة دار المعارف.

أقررت بالذنب على السكر　　　السكر عندي آفة السر[1]

ونراه يمتنع عن الشراب في شهر رمضان. يقول:

صرف شرابك قد هجرت كؤوسه　　　شهر الصيام واعفنا من مائه[2]

---

(١) نفسه، (٢/٢٦٥).

(٢) نفسه، (٢/ ٢١٢).

٢- (وصف الطبيعة)

لقد أجمع المؤرخون أن الحضارة العباسية، حضارة زخرف وترصيع كثرت فيها النقوش والستائر المزركشة المنمقة، والمناضد الثمينة والزهريات الخزفية، فضلا عن الجواهر والحلي. أما الطعام فقد غدا كثير التعقيد، بعد أن تفننوا بإدخال التوابل عليه. وكذلك اللباس، فقد غلب عليه التعريش والتطريز والتنميق. فالعصر العباسي، كان عصر تعقيد وتوليد، يتولى العنصر المنفرد الأصيل ويمزجه بعنصر آخر، ليتولد منهما عنصر جديد.

ولقد كان الشعراء ينصرفون إلى القصور، منادمين الخلفاء حينا، ومادحين مستجدين حينا آخر فيؤخذ الشاعر بتلك الزخارف والترصيعات، ويعجب من الفسيفاء المدهشة الألوان التي تطالعه في السقوف وعلى الجدران، فيتأثر بذلك واعيا وغير واع. ولقد طالما شاهد أيضا الجواري والغنيات يرتدين الملابس المصبغة الموشاة، وغدا يعجب بالتعقيد والتأليف، حتى انقاد إليه وتطبع به في قصائده. وقد بدا ذلك كله في موضوع الوصف".[1] هذا بالإضافة إلى جمال الطقس ووفرة المياه مما استغله العباسيون في إنشاء الرياض والبرك.

وابن المعتز العباسي كان يعيش كل هذه المظاهر ولم يسع إليها ولذلك " لم يترك شيئا وقع عليه إحدى حواسه إلا رصده حتي وكأنه كانت

(١) فن الوصف وتطوره في الشعر العربي: إيليا حاوي، (ص: ١٣٩، ١٤٠).

له مخيلة تشبه آله تصويرية دقيقة، فهي تصور وتلتقط الدقائق. وكأنها لا تريد أن تترك شيئا ".[١]

ويكفينا من وصفه الذي اشتهر به وصفه لمظاهر الحضارة الجديدة من قصور ورياض وغناء وغير ذلك.

فنجد ابن المعتز الذي عاش في القصور وتنقل بينها ينقل لنا صورا منها فيصف لنا قصر (الثريا) الذي بناه الخليفة المعتز، يصفه بأشجاره وأنهاره وما فيه من شرفات وميادين للسباق، يقول:

حَلَلْت الثُّرَيَّا خَيْرَ قَصْرٍ ومَنْزِلِ   فلا زَالَ مَعْمُورًا وبُورِكَ مِن قَصْرِ

فَلَيسَ لَهُ فيما بَنى النَاسُ مُشْبَهٌ   وَلا ما بَناهُ الجِنُّ في سالِفِ الدَهرِ

وَما زالَ يَرعاهُ الإِمامُ بِرَأيِهِ   وَبِالعُزِّ وَالتَقديمِ وَالنَهيِ وَالأَمرِ

فَتَمَّ فَما في الحُسنِ شَيءٌ يُريدُهُ   لِسانٌ وَلا قَلبٌ بِقَولٍ وَلا فِكرِ

جِنَانٌ وأَشجارٌ تَلاقَت غُصُونُهَا   وحُلّين بالأَثمار والوَرَقِ الخُضْرِ

تَرَى الطَّيْرَ في أَغْصَانِهِنّ هَوَاتِفًا   تَنقَّلُ مِن وَكْرٍ لهنّ إلى وَكْرِ

وَبُنيانُ قَصرٍ قَد عَلَت شَرَفاتُهُ   كَصَفٍّ نِساءٍ قَد تَرَبَّعنَ في الأُزرِ

وأَنْهَارُ مَاءٍ كالسَّلاسِلِ فُجِّرَت   لِتُرضِعَ أَوْلادَ الرَّيَاحِينِ والزَّهرِ

ومَيْدانُ وَحْشٍ تَرْكُضُ الخَيْلُ وَسْطَهُ   فَيُؤْخَذُ منها ما يُشَاءُ على قَدْرِ

إِذَا ما رَأَتْ ماءَ الثُّرَيَّا ونَبْتَهَا   نَسِينَ وُثُوبَ الكَلْبِ فيهنّ والصَّقرِ[٢]

---

(١) العصر العباسي الثاني (ص: ٢٣٢).

(٢) الديوان:(١/ ٤٣٥، ٤٣٦)، طبعة بغداد.

ومن جمال القصور إلى جمال الرياض ينقلنا ابن المعتز لنتمتع بروض ألبسه الربيع ثيابا موشاة جميلة تروق حواس البصر والشم والأذن والتذوق، يقول:

جد ريح الربيع وازدوج الطيـــ ... ر ولاحت بـوراق الأنـواء

وترى الروض لابسا ثوب وشي ... نسجته للهو أيدي السماء

لم يزل لابسا ثياب بياض ... فكساه الربيع ثوب جلاء

فتجلي مصفرة باخضرار ... واحمرار لكثيرة الأنداء

فاسقنا يا غلام إذا عنت الطيـــ ... ر وجاء الربيع راحا بماء[1]

ويلتقط لنا منظر الزهر ويعتليه الندى، تدفعهما الرياح بين مد وجزر. كل ذلك في هدوء وسكون فالوقت وقت سحر:

فُرْسانُ قَطْرٍ عَلَى خَيْلٍ مِنَ الزَّهَـر ... تَحُثُّهُنَّ سِياطُ الرِّيحِ فِي السَّحَرِ

ما شِئْتَ مِنْ حَرَكاتٍ وَهيَ واقِفَةٌ ... تَخالُها سائِراتٍ وَهْيَ لَمْ تَسِرِ[2]

ثم يستأذن ليستقبل بحفاوة بالغة ضيف عزيزًا عليه ولما لا يكون عزيزا وهو يأتي من العام إلى العام. محملا بعطره لابسا ثيابه الحمراء الجميلة:

أَهلاً بِزائِرِ عامٍ مَرَّةً أَبَدًا ... لَو كانَ مِن بَشَرٍ قَد كانَ عَطّارا

كَأَنَّما صَبَغَتهُ وَجنَتا خَجِلٍ ... قَد حَلَّ عَقدَ سَراويلٍ وَأَزرارا

فَلَو رَآهُ حَبيسٌ فَوقَ صَومَعَةٍ ... لَقالَ في مِثلِ هَذا فَادخُلوا النارا[3]

---

(١) الديوان: (٢ / ١٥١)، طبعة دار المعارف.

(٢) نفسه: (٢/ ١٧٨).

(٣) الديوان: (٢/ ١٧٩)، طبعة دار المعارف.

ومن بهجة النظر إلى بهجة السماع يأخذنا ابن المعتز لنطرب بين مزمار وعود وناي بين مغ ومغنية فيصف لنا مغنية تنفخ في نـاي أسـود تعامله في رقة ودلال:

وَذات نـأيٍ مُشْـرِقٍ وَجْهُهـا ... مَعْشُوقَةُ الأَلْحـاظِ وَالغُـنْجِ

كَأَنَّمـا تَلْـثِمُ طِفْـلاً لَهـا ... زَنَتْ بِه مِنْ وَلَـدِ الـزِّنْجِ[1]

ثم يصف هذا الناي يكشف السر وعدم صيانته فالزامرة تستودعه سرها ولكن ميزته هو فضح هذا السر، يقول:

وَأَسـوَدَ في كَـفٍّ مَجدولَـةٍ ... لَطيـفٍ لَـهُ خِلقَـةٌ مُنكَـرَه

إِذا اسـتَودَعَت سِـرَّها عِنـدَه ... فَأَحسَنُ ما فيهِ أَن يُظهِـرَه[2]

ولا بأس أن نسمع هذا المغني أيضا وهو دقيق الصوت واللحن:

ومغـن إذا تغـني دعـا ... كل طروب من الندامى برطله

خاط أوتـاره بنغمـات صـوت ... مثل ما خيط كل جسم بظلـه

وبعد جولة بين القصور والرياض وسماع الغناء يكفينا ابن المعتز عناء المشي على الأقدام أو الركوب على وسائل المواصلات القديمة مـن ناقة وبغل وحمار..، بل يركبنا خير ما جادت به هذه الحضـارة. سـفينة ويصفها لنا قبل ركوبنا:

وزنْجيَّةٍ كُرْدِيَّـةِ الحَلْـيِ فَوْقَهـا ... جَنَاحٌ لها فَرْدٌ علـى المـاءِ يَخْفُـقُ

يُؤَدِّبُهـا أولادُهَـا بعصِـيِّهِمْ ... فَتَحْبَسُ قَسْرًا كيف شاءُوا وتُطْلَقُ[3]

---

(١) نفسه: (٢ / ١٦٩).

(٢) نفسه: (٢ / ١٨٥).

(٣) نفسه: (٢/ ١٩٢).

٢- (شعر الطرد)

والطرد من الموضوعات التي أولع بها ابن المعتز مثلما أولع بها غيره من الشعراء مثل أبي نواس وابن الرومي. إلا أن ابن المعتز قد ألف فيه كتابا لم يصلنا هو كتاب " الصيد والجارح".(١)

" والطرد أو الشعر الذي يقال في الصيد عرف منذ الجاهلية حين كان الشاعر الجاهلي يصف مطاردته بجواده لحمار الوحش أو تتبعه لظبي أو طائر، وحين يصف صراع ظبي مع حمار وحشي، أو ما أشبه من أنواع الصراع التي تنشب بين الحيوان في الصحراء القاحلة الجرداء التي كانت تحيط به.

وكان هذا الوصف بطبيعة الحال جزءًا من القصيدة التي يكتبها الشاعر الجاهلي في أغراض كثيرة من مدح إلى نسيب إلى هجاء إلى فخر إلى غير ذلك من الموضوعات التي يخوض فيها ". (٢)

كما كان للصيد دوافعه الخاصة أيضا " فالبيئة العربية حيث تضن الطبيعة على الإنسان بقوته، فتدفعه إلى أن يلتمس عيشه في الصيد، فنراه كما وصفه امرؤ القيس، رجلا امتد به العمر ليس له وسيلة يكسب بها قوته سوي امتهانه الصيد فهو يعتمد عليه كل الاعتماد في تدبير شئون حياته:

مُطعِمٌ للصَيدِ لَيسَ لَهُ غَيرُها كَسبٌ عَلى كِبَرِه

أو هو فقير قليل المال لا يملك سوى سهامه وقوسه قال ذو الرمة:

قَليلِ نِصابِ المالِ إِلّا سِهامُهُ وإِلّا زَجومًا سَهوَةً في الأَصابِعِ

---

(١) الفهرست لابن النديم،(ص: ١٧٦).

(٢) اتجاهات الشعر، (ص: ٤٩٣).

أو هو كما حدثنا عنه ذو الرمة أيضا، قد ورث مهنة الصيد عن أبيه الصياد فهو حاذق لحرفته، سريع الأخذ لطريدته. خفيف الشعر ذو أطمار غبراء بالية، كل ما عنده من مال كلاب معلمة على الصيد، فهو مرزوق منه، وهو طعمته وحرفته:

وَمُطعَمُ الصَّيدِ هَبّالٌ لِبُغيَتِهِ ... ألفى أباهُ بِذاكَ الكَسبِ يَكتَسِبُ
مُقَزَّعٌ أطلَسُ الأطمارِ لَيسَ لَهُ ... إلاّ الضِّراءَ وإلاّ صَيدَها نَشَبُ[1]

أما في العصر الإسلامي فقد انشغل الشعراء في عهد الرسول(ﷺ) والخلفاء بالإسلام مما جعلهم يهتمون كثيرا بالموضوعات التي كان يخوض فيها الشاعر الجاهلي ومن بينها الطرد.

وفي العصر الأموي انشغل الشعراء بالصراع السياسي بين الأحزاب.

أما في العصر العباسي فقد جدَّت العديد من العوامل التي أحيت فن الطرد بل وجعلته فنا مستقلا. لا يندرج في ثنايا القصيدة كما كان في الجاهلي. كما اختلفت أيضا طرق الصيد وأدواته وأنواع الحيوانات المصيدة تبعا لتغير البيئة الطبيعية وما جدَّ فيها من حيوانات. ومن هذه العوامل " التأثر بالكتب التي نقلت عن الفرس والروم والترك. وقد عرف بالفعل عن هذه الأمم استخدامها للجوارح من الطير في الصيد مثل البارز والشاهين والعقاب والصقر، يدربونها على تتبع الحيوان والطير، بالإضافة

---

(١) الصيد والطرد في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري، د. عباس مصطفي الصالح، ص٣١.

إلى تدريب القلاب السلوقية وغيرها للاستعانة بها أيضا في صـيد أنـواع الطير والحيوان "[١]

كما أن الصيد أصبح يمارس لهوا وتسلية، يستهويهم فيه رياضـة وتدريب وتنشيط للبدن وتعويد للمرء على الصبر وتسل للخاطر المهموم"[٢]

كما أن أماكن الصيد لم تقتصر على الصحراء فقط بل انتقلت إلى ضـفاف الأنهار وعلى مياه الخلجان، يقول بن المعتز:

غدوت للصيد بغتيـان نجـب ... وسبب للرزق من غـير سـبب

غدا يلاقي الطير حتف من كثب ... وهي على ماء الخليج تصطحب[٣]

فإذا تتعبنا فن الطرد عند ابن المعتز العباسي نجده يتحدث أولا عن أوقات الصيد ومعظم هذه الأوقات في الصباح الباكر في وقـت اخـتلاط ظلام الليل بضياء الصبح، يقول:

لَمَّـا تَعَـرَّى أُفُـقُ الضِّـياءِ ... مثـلَ ابتسـام الشَّـفَةِ اللَّمْيـاءِ

وَشَمِطَـتْ ذَوائِـبُ الظَّلمـاءِ ... قُدْنا لعينِ الـوَحْشِ والظِّبـاءِ[٤]

أو قوله:

قَد أَغتَـدي وَاللَيـلُ في مَآبِـهِ ... كَالحَبَشِـيُّ فَـرَّ مِـن أَصـحابِهِ

وَالصُبحُ قَد كَشَّفَ عَن أَنيابِـهِ ... كَأَنَّهُ يَضـحَكُ مِـن ذَهابِـهِ[٥]

---

(١) اتجاهات الشعر، (ص: ٤٩٤).

(٢) الصيد والطرد، (ص: ٤٠).

(٣) الديوان: (٢ / ١١٤)، طبعة دار المعارف.

(٤) الديوان، (٢/ ٤٠٦). بغداد.

(٥) نفسه، (ص: ٤٠٩).

ثم يتحدث بعد ذلك عن أدوات الصيد مثل الشبك، قصب الدبق والفخ المنصوب، يقول:

ما صائداتٌ لَسْنَ بارحاتِ ... وَراكباتٌ غيرُ سائراتِ
وَقدْ عَلَونَ غَيرَ مُكْرَماتِ ... مَنابرًا وَلَسْنَ خاطباتِ
وَما طَعامٌ ظَلَّ بالفَلاةِ ... يُقرِّبُ المَوْتَ مِنَ الحَياةِ
وَبَيتُ أُنسٍ صَخِبُ الأصواتِ ... مُختَلِفُ الأجناسِ وَاللُّغاتِ
تَظَلُّ أَسراهُ مُكَتَّفاتِ ... وَما رِماحٌ غَيرُ جارياتِ
ولَسْنَ للطِّرادِ والغاراتِ ... وَلَسْنَ للطِّرادِ وَالْغاراتِ
يخضِبْنَ لا مِنْ عَلَقِ الْكُماةِ ... بِرِفْقِ حَرْبٍ مُنْجِزِ الْعِداتِ
مُستَمْكِنٍ لَيسَ بِذِي إفْلاتِ ... يَنْشِبُ في الصُّدُورِ واللَّبّاتِ
قفل إسار علق الشباة ... على عَوَاليها مُرَكَّباتِ
أسِنَّةٌ غَيرُ مُوَقَّعاتِ ... مِنْ قُصُبِ الرِّيشِ مُجَرَّداتِ
يُحْسَبْنَ في الْقُنِيِّ شائلاتِ ... أذنابَ جُرْذانٍ مُنَكَّساتِ[1]

وله قصيدة أخرى في القوس والبندق والتي يقول في أولها:

لاَ صَيْدَ إلاَّ بِوَتَرْ ... أَصْفَرَ مَجْدُولٍ مُمَرّْ
إنْ مَسَّهُ الرَّامي نَخَرْ ... ذي مُقْلَةٍ تَقْذِي مَدَرْ
صَنعَةُ بارٍ مُقتَدِرِ ... دامَ عَليها فَمَهَرْ[2]

---

(١) نفسه، (ص: ٤٢٣، ٤٢٤).

(٢) نفسه، (ص: ٤٤٥)، وما بعدها.

أما عن الجوارح المدربة والتي تستخدم في الصيد، فإن بن المعتز قد قام بوصفها وصفا تفصيليا، فوصف الباشق والكلاب، والبازي، والفرس والفهود والأوز والشاهين، والغراب، والزرق. فيصف الكلاب فيقول:

قَد أَغتَدي وَاللَيـــلُ كَـــالغُرابِ ... راخي القِناعِ حالِكُ الإِهـــابِ
مُلقى السُدولِ مُغلَقُ الأَبـــوابِ ... حَتّى بَدا الصُبحُ مِنَ الحِجـــابِ
كَغُرَّةٍ جَلَـــت عَـــنِ الشَـــبابِ ... بِكَلبَـــةٍ سَـــريعَةِ الوِثـــابِ
تَنسابُ مِثلَ الأَرقَمِ المُنســـابِ ... كَأَنَّما تَنظُـــرُ عَـــن شِـــهابِ
قَد قَصَّـــمَتهُ بِشَـــبا الأَنيـــابِ ... وَمَنَعَتـــهُ جَولَـــةَ الـــذَهابِ[1]

وكذلك يصف البازي يصورها بأبصارها الثاقبة ومناشرها الحادة المرهفة كالأسنة المشرعة، يقول:

قدْ أغتدي في نفـــسِ الصـــباحِ ... بقـــرمٍ للصـــيدِ ذي ارتيـــاحِ
معلـــقِ الأحـــاظِ بالأشـــباحِ ... يـــركضُ في الهـــواءِ بالجنـــاحِ
كركض طرف السبق في البراح ... قُمَّصٍ وشـــياً حســـن الوشـــاح
عليه منـــه كحبـــاب الـــراحِ ... ذو جلجلٍ كالصرصرِ الصـــياحِ
حتفٍ لطير اللّجّـــة السَّـــبَّاح ... ذي الطوق منهن وذي الوشـــاح

يستجن في الغدران والضحضاح[2]

" وكثيرا ما نجد رحلة الطرد عند شاعرنا موصولة بالصـــيد ثـــم الذبح وإطعام الصحب من لحمه شواء غضا ثم يشرب عليه العقار، وقـــد

(١) الديوان:(٢/ ٤١٩)، بغداد.
(٢) نفسه:(٢ / ٤٢٩).

يحمل بقية الصيد إلى سامراء أو إلى بغـداد لتفـرق علـى الأصـحاب والأحباب ".[1]

---

(١) ابن المعتز صورة لعصره، (ص: ٢٢٨).

شعر الألغاز

وهو فن جديد قد ظهر في هذا العصر وقد ساهم فيه ابن المعتـــز بأبيات قليلة لم يشر إليها أحد الدارسين الذين تناولوا شعره فهو يقول مثلاً عن إبرة الحياكة:

مــا هنـــةٌ يـــا فـــتى حقـــيرةٌ ... وليس مـــن فضـــة ولا ذهـــب
تكـــاد لا تـــرى لقلّيهـــا ... أمـــي بهـــا قـــد تســـترت وأبي
نفـــتح بابًـــا برأســـها ... فإذا تخرج منه تشـــد بالـــذنب[1]

---

(١) الديوان، (٢/ ١٥٧)، طبعة دار المعارف.



الفصل الثاني

أثر الحضارة في البناء الفني للقصيدة

تدين الحضارة العربية بكل ما ارتبط بها من فكـر وفـن وشـعر للعباسيين سواء بمقوماتها أو بطوابعها التي ركبت في بنيتها وائتلفت فـي نسيجها، بحيث إذا نطقنا باسم العباسيين، ارتسمت في أذهاننـا تـوًا تلـك الحضارة بمشخصاتها وقسماتها المميزة. وهي حضارة نشأت من المزاوجة الرائعة بين التراث العربي والتراث الحضاري الإنساني، إذ قامـت علـى سنن رشيدة من الإبقاء على الكيان العربي والروح العربية وإساغة كل ما لدى الأمم المستعربة من حضارات وثقافات متباينة، بحيث أصبح العـرب ورثة الهند والفرس واليونان والأمم السامية والأمـة المصـرية القديمـة، وبحيث كونوا من هذا الإرث حضارتهم.. التي سيطرت حقبًا طويلة علـى كل ما عداها من حضارات وسبقتها في مختلف فروع الفكـر والمعرفـة والثقافة.[1]

ولذلك لا نعجب إذا وجدنا " أن الجاهلية قد مضت، وتغيـر نمـط الحياة العربية بالإسلام، فانتشرت الحضارة، واسـتقر الشـعراء وسـكنوا القصور، وبقي منهجهم القديم في الشعر، ولم يلحق نظـامهم فـي بنـاء القصيدة تغيير ذو شأن.[2] فالشاعر العباسي احتفظ لأمته بمقوماتها اللغوية والفنية الموروثة، ولم يعرض هذه المقومات للفناء، بل أتاح لها كـل مـا يمكن من أسباب الحياة والازدهار.. فوضع نصب عينيه نمـاذج الشـعر القديم مكثرًا من درسها واستظهارها وتردادها على سمعه وعلـى بصـره

---

(١) فصول في الشعر ونقده: د. شوقي ضيف، (ص: ٥٤).

(٢) في النقد الأدبي عند العرب: د. محمد الطاهر درويش، (ص: ٢٧٩).

وعلى ذهنه حتى يفقه رسومها ومعانيها وخواصها فقها تاما دقيقا. وأعانه على ذلك علماء اللغة أكبر عون إذ استشكفوا له هذا الشعر الموروث وحققوه وفسروه ويسروه للدرس والفهم، باسطين ما يسوده من قوانين نحوية وصرفية واشتقاقية وعروضية، ناثرين ملاحظات مختلفة على فصاحته وبلاغته: بحيث ذللوه للشاعر العباسي من جميع أنحائه وسخروه له تسخيرا، وهو تسخير وتذليل لم يتح للشاعر القديم في الجاهلية والإسلام، إذ لم يكن هناك من يعرض له من العلماء ولا من يتكلف الإحاطة به لغرض درسه والتعرف على حقائقه، ومن أجل ذلك لا نغلو إذا قلنا إن معرفة الشاعر العباسي بالشعر العربي القديم كانت أدق وأعمق وأخصب من معرفة الشاعر الجاهلي والإسلامي به".(١)

ولا نغلو أيضا إذا قلنا إن المحافظة على القديم لا يخرج عن كونه مظهرا من مظاهر الحضارة الإسلامية في العصر العباسي. فلقد تحول الشعر القديم بالقياس إلى العباسيين إلى ما يشبه الأم الغاذية، فكل شاعر يتغذى منه غذاء يختلف سعة وعمقا. ولم يكتف كثيرون من الشعراء النابهين بما قدمه لهم اللغويون من هذا الغذاء المتنوع الألوان، فمضوا يرحلون إلى بوادي نجد حتى ينهلوا من ينابيع اللغة مباشرة دون واسطة أو حجاب، وحتى تجري في نفوسهم سليقاتها وكل أسرارها".(٢)

" وعلى هذا يصبح من البدهي الذي لا يحتاج إلى جدل طويل أن التراث ضرورة كبرى بارزة من ضرورات فن الشاعر في العصور

---

(١) فصول في الشعر ونقده، (ص: ٥٦ – ٥٧).

(٢) نفسه، (ص: ٥٧).

الأدبية المختلفة. وبخاصة في العصور التي تلت العصر الجاهلي، والتي يكشف التحليل الفني لقصائد شعرائها كيف عرضت عليهم بل كيف عرضوا على أنفسهم نصوص التراث الشعري مدونة ومشروحة، مما فتح أمامهم باب الاختيار لما يتأثرون به، مما أسهم في تقدمهم بالفن الشعري في شكله ومحتواه استنادا إلى هذا التراث بالدرجة الأولى[١]

ولا شك أن الذوق النقدي المحافظ في العصر العباسي بصفة خاصة قد شجع التراث كما شجع العودة إليه، ورأى أهمية التزام الشعراء به، فنجد ناقدا كابن قتيبة يقول:" ليس لمتأخر من الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فيقف على منزل عامر، ويبكي عند مشيد البنيان؛ لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل، فيصفهما؛ لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياة العذبة الجواري؛ لأن المتقدمين وردوا الأواجز الطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والورد والآس؛ لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرار"[٢]، ولكن ليس معنى هذا أن يقف الشاعر العباسي أسيرا للشعر القديم كما نفهم من قول ابن قتيبة، بل عليه أن يتخذ منه ركيزة فقط ينطلق منها إلى حياته الحضارية الجديدة ولهذا نجد في هذا العصر من يقابل تشدد ابن قتيبة بتشدد آخر مثله، فيقول:

دَعِ الأطلالَ تَسفيها الجَنوبُ   وَتُبلي عَهدَ جِدَّتِها الخُطوبُ
وَخَلِّ لِراكِبِ الوَجناءِ أرضًا   تَخُبُّ بِها النَجيبَةُ وَالنَجيبُ

---

(١) القصيدة العباسية: قضايا واتجاهات، د عبد الله التطاوي، (ص: ٢٨).

(٢) الشعر والشعراء: لا بن قتيبة، (١/٧٤)، وما بعدها.

بلادٌ نَبتُها عُشَرٌ وَطَلحٌ ... وَأَكثَرُ صَيدِها ضَبعٌ وَذيبُ
وَلا تَأخُذ عَنِ الأَعرابِ لَهوًا ... وَلا عَيشاً فَعَيشُهُم جَديبُ
دَعِ الأَلبانَ يَشرَبُها رِجالٌ ... رَقيقُ العَيشِ بَينَهُمُ غَريبُ[1]

فالشاعر العباسي في حياته ما يشغله عن الحبيب الراحل والطلل البالي ففي بغداد لهو وقصف، وفي بغداد قينة وغلام، وغناء ومرح.[2]

وفي بغداد قصور ومروج، وفي بغداد روافد ثقافية جديدة، وأجناس مختلفة. كل ذلك يجب أن يراعى بحيث " كان على الشاعر أن يقوم بعملية مواءمة دقيقة بين ما يرضي أذواق المستمعين أو المعجبين أو النقاد أو الممدوحين وبين ما يرضي طموحه هو ورغبته في أن يأتي بشيء جديد استجابة لملكة التجديد الكامنة في نفسه، وتحررا مما يظنه أحيانا رباطا يشدة إلى الماضي وهو يريد الانفلات منه والانفكاك عنه، إما لعقيدة ذاتية، وإما تقليدا لغيره الذي يشاركه الحياة في مجتمعه"[3] وانتهى الأمر إلى " أن الفحول في احتذائهم الشعر الجاهلي لم يكونوا مجرد نقلة. أي لم يكونوا نساخين لآثار القدماء، وإنما كانوا يدورون في فلكهم، يأخذون بتخطيطهم العام فقط مادام نقاد العصر قد أجمعوا على ضرورة التمسك بالأسلوب القديم"[4] "دون أن يصادر هذا الأمر قدراتهم الابتكارية الخاصة التي ظهرت – أكثر ما ظهرت– في التصوير، بل امتدت النزعة الابتكارية

---

(١) ديوان أبي نواس، (ص: ١٥)، تحقيق: أحمد عبد المجيد الغزالي.
(٢) مقارنة بين الشعر في العصر الأموي والعصر العباسي: د. عزيز فهمي، (ص:٣٢٨).
(٣) الشعر والشعراء في العصر العباسي: د. مصطفى الشكعة، (ص:٤٠٣).
(٤) الحياة الأدبية في البصرة: د. أحمد كمال زكي، (ص: ٣٤٢).

لتجدد في شكل القصيدة، إذا وجدت من دوافع التجديد ما يساعدها على ذلك، وقبل هذا كله لا يخفى ما أضافوه إلى مضمونها مواكبة منهم الروح العصر واستجابة لواقعه".[١]

فإذا أردنا بعد ذلك أن نتحدث عن أثر الحضارة الجديدة على البناء الفني للقصيدة في شعر ابن المعتز نجد " ابن المعتز معتدلا في فنه وسطا في أسلوبه، موازنا بين القديم والجديد"[٢] " فلم يتوان في صياغة كثير من قصائده ملتزما الشكل النمطي للقصيدة العربية الجاهلية من صياغة المقدمات بمستوياتها المختلفة إلى تصوير الرحلة في جوف الصحراء بأجوائها المتميزة، إلى محاولة إثبات البراعة الفنية في الانتقال أو التخلص إلى الاستعانة بكثير من الصيغ والأساليب والصور في المعالجة الموضوعية بعد التخلص إلى اللجؤ إلى الخواتيم التقليدية للقصيدة ".[٣]

فإذا أنشد لحاضره تبدت حلي التصور وتمتمات الزخارف في الألفاظ والعبارات والصور من غير إضعاف للمعنى أو إجهاد للفكر فاجتمع في شعره مجالسه المؤنسة وأغراضه اللاهية".[٤]

وكل ما نستشف منه روح العصر وحضارته. والذي سيتضح من خلال تناول البناء الفني للقصيدة من مقدمات وتخلص وخواتيم، وموسيقى وأسلوب.. وغيره.

---

(١) القصيدة العباسية: د. عبد الله التطاوى، (ص: ٣٠).
(٢) ابن المعتز صورة لعصره، (ص: ٢٦٨).
(٣) القصيدة العباسية، (ص: ١٢١).
(٤) ابن المعتز صورة لعصره، (ص: ٣٦٨).

مقدمة القصيدة

" المقدمة ظاهرة من الظواهر الفنية التي صاحبت القصيدة العربية على اختلاف الأعصار التي مرت عليها والأمصار التي انتقلت إليها. وهي ظاهرة لم تتخذ شكلا واحدا، بل تعددت أشكالها وتنوعت صورها، لا في العصور التي تلت العصر الجاهلي، بل في أول عهدها يوم أن أصل شعراء الطليعة المبدعة في الجاهلية لقصائدهم مجموعة من التقاليد الفنية التي كان من أشهرها حرصهم على افتتاح مطولاتهم بألوان مختلفة من المقدمات. فقد كانوا يستهلون قصائدهم إما بالمقدمة الطللية، أو المقدمة الغزلية، أو مقدمة وصف الظعن أو مقدمة الشباب والشيب أو مقدمة وصف الطيف، أو مقدمة الفروسية" [1] والسمة العامة الشائعة هي وصف الأطلال مختلطا بالنسيب وأن القلة النادرة هي نعت الخمر أما وصف الطبيعة فيعد على نحو من الأنحاء شائعا في العصر الجاهلي إذا اعتبرنا استعانتهم بمشاهدها على التعبير عما يجول في نفوسهم داخلا في هذا الوصف أو معدودا منه".[2]

" واحتذى الشعراء الأمويون والعباسيون بهم وأخذوا يحرصون على افتتاح مطولاتهم بتلك المقدمات، وكل ما تبدى لنا من الفروق في أثناء دراستنا لهذه الظاهرة عندهم أن الشعراء الأمويين كثرت الألوان التقليدية

---

(١) مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول: د. حسين عطوان، (ص: ٢٥٦).

(٢) مقدمة القصيدة عند أبي تمام والمتنبي: د. سعد شلبي، (ص: ٣٦).

من الفواتح في صور قصائدهم، كما قلت الألوان المبتدعة منها عندهم. أما الشعراء العباسيون فحافظوا بدورهم على بعض المقدمات الموروثة غير أنهم حوروا فيما استبقوه منها بحذفهم الكثير من عناصرها البدوية، وكما استحدثوا أنواعا جديدة من الفواتح استمدوها من بيئتهم المتحضرة وحياتهم المترفة ".[1] " فقد أعرض عنها كثير من شعراء العصر بالدخول مباشرة إلى موضوعاتهم أو البدء بالغزل والوصف ووصف الطبيعة خاصة أو ذكر مجالس الخمر والغناء، أو ضمهما معا، وربما مزج الشاعر العناصر الثلاثة: الطبيعة، ووصف مجالس الخمر والغناء، والغزل".[2]

أما أثر الحضارة على مقدمات ابن المعتز فنجده تحرر من المقدمة في قصائد كثيرة في ديوانه حتى في القصائد التي تحتاج إلى مقدمات مثل قصائد المديح وغالبا ما يحدث هذا مع بعض الأفذاذ من الممدوحين الذين يستأثرون كلية بإعجاب الشاعر، إزاء بعض الموقف والأحداث الجسيمة التي تستحوذ على مشاعره ووجدانه فلا يستطيع التحكم في انفعاله أو ضبطه ومن ثم، يدخل في الموضوع مباشرة، دون مقدمات غزلية أو طللية".[3]

فنراه يمدح الموفق ويدخل في المدح بدون مقدمات، فيقول:

---

(١) مقدمة القصيدة العربية، (ص: ٢٥٧).

(٢) دراسات في الأدب العربي، العصر العباسي: د. محمد زغلول سلام، (ص: ٢٠٥).

(٣) الخصومة بين القدماء والمحدثين: د. عثمان موافي، (ص: ٢٣٦).

يا ناصرَ الدينِ إذ هُدَّتْ قواعدُهُ   وأَصْدَقَ الناسِ في بُؤْسٍ وإنعـــام
وقائدَ الخيلِ مذ شُدَّتْ مــآزرُهُ   مــذلَّلاتٍ بإسْــرَاجٍ وإلجـــام(١)

ويقول في مطلع قصيدة يمدح فيها عبيد الله بن سليمان:

أقدم على طــير السـلامة وأقــدم   أبدا وعش في خير حال وانعـم
يا صاحب الفكر العميق ومضى الـ   رأي الوثيق المســتمر المحكـم(٢)

ولعلنا نلاحظ في هذه الابتداءات مناسبة المديح للممدوح فـالموفق أبو الخليفة المعتضد كان فارسا مغوارا وعبيد الله بن سليمان كان وزيـرا معروفا بحصافة الرأي وعمق الفكر.

وأول ما نقف عنده من المقدمات المقدمة الطللية التي أصابها ما لم يصب غيرها من التجديد سواء من الناحية الموضوعية أو مـن الناحيـة الفنية، فهي من الناحية الموضوعية لم تعد أوعية تسكب فيها الدموع حسرة على المنازل الداثرة وعهود الحب الضائعة فحسب بل تحولت أيضا عنـد بعضهم إلى منابر يعلنون من فوقها آراءهم في الحياة.(٣)

ونجد ابن المعتز لا يستوقفنا على طلل بال قديم، إنمـا الحضـارة والمكان تحاصرانه من كل جانب فنجده يستوقفنا على سدرة الوادى التـي يرويها المشرب العذب، لأنها السدرة التي كان يجتمع تحت ظلالها عنـى ضفاف تلك العين الجارية إلى صاحبته مبينا رأيه في الحب والهوى وهـو أن الإنسان يكون كاذبا في حبه إن لم يشتك آلام فراق الحبيب. يقول:

---

(١) الديوان، (١ / ٥٠٩)، طبعة دار المعارف.
(٢) نفسه، (١ / ٥١٢).
(٣) د. حسين عطوان، (ص: ٢٢).

أيا سَدرَةَ الواديْ عَلى المَشرَعِ العَــذبِ سَقاكِ حَياً حَيُّ الثَرى مَيِّتُ الجَدبِ
كَذَبتُ الهَوى إن لَم أقِف أشتَكي الهَوى إلَيكِ وَإن طالَ الطَريقُ عَلى صَحبي
وَقَفتُ بِها وَالصُبحُ يَنتَهِــبُ الــدُجى بِأَضوائِهِ وَالنَجمُ يَركُضُ في الغَربِ
أُصــانِعُ أطــرافَ الــدُموعِ فَمُقلَــتي مُوَقَّرَةٌ بِالدَمعِ غَرباً عَلــى غَــربِ
وَهَل هِيَ إلّــا حاجَــةٌ قُضِــيَت لَنــا . وَلَومٌ تَحَمَّلناهُ في طاعَــةِ الحُــبِّ(١)

ونلاحظ أيضا في الأبيات السابقة أن ابن المعتز يشــتكي الحــب لصاحبه طوال الطريق حتى وإن مل صاحبه ذلك. وأظن أنه كان أهــون على صاحبه أن يوقفه ويستبكيه مثلما كان يفعل امرؤ القيس بدلا مــن أن يقطع نياط قلبه طوال صحبته، يشتكي ألم الحب ويغالب دموعه.. ولكنهــا الحضارة بظرفها ورقتها.

وكان من المعروف أن الشعراء الجاهليين والأمويين كان يــدعون بالسقيا لمنازل صواحبهم، وأن منهم من وصف خضرتها ومــا نمــا فــي أنحائها من أعشاب ونباتات أما الشعراء العباسيون فيشركونهم فــي ذلــك ويتوسعون فيه إلى حد كبير، حتى ليصبح وصف الأمطار التــي نزلــت بالديار، وما أعقبها من خضرة وورود وأذهار ظاهرة عامة بينهم لا يتميز بها شاعر منهم.(٢) وفي هذا يقول ابن المعتز مازجا بين المطر والطبيعــة ومجالس الغناء. وكلها أشياء حضارية جديدة:

وقال:

يا أَرْضَ غُمَى سَقَتْكِ أَمْطــارُ فيكِ لِقَلْبي ما عِشْــتُ أَوْطــارُ

---

(١) الديوان، (١/٣١٥)، المعارف.

(٢) مقدمة القصيدة العربية، (ص: ٢٤).

يا طيبَ ريّاكِ حين يبتسمُ ال ... فجرُ وفيها للروضِ أخبارُ
كأنما شابَها القرنفلُ أو ... ذرَّ عليها الكافورَ عطّارُ
ومجلسٍ جلَّ أن نُشبِّههُ ... حيثُ بهِ مزهرٌ ومزمارُ(١)

فهو في هذه المقدمة يخاطب فينا حاسة البصر وحاشة الشم وحاسة السمع. وديار ابن المعتز ليست كالديار القديمة، خيمة في وسط صحراء بل دار مقامة على نهر كما أنها في " أذهان أبناء العلية من أغنياء بغداد صورة بناء فاره ذى جدر وحجرات ومقاصير من آجر وغيره".(٢) يقول:

لِمَن دارٌ وَربعٌ قد تعفّى ... بنهرِ الكَرخِ مهجورُ النواحِ
إذا ما القطرُ حَلّاهُ تلاقت ... على أطلالهِ هوجُ الرياحِ
محاهُ كلُّ هطّالٍ مُلِحٍّ ... بوبلٍ مثلِ أفواهِ اللقاحِ
فباتَ بليلٍ باكيةٍ ثكولٍ ... ضريرَ النجمِ مُتّهمَ الصباحِ(٣)

ومن مظاهر الحضارة الجديدة في المقدمة استنطاق الطلل ومحاورته فإذا كان الحوار القصصي في الشعر قديما فأظن الحوار مع الطلل في مقدمة غزلية يكون جديدا. يقول ابن المعتز مستخدما أسلوب الحجة الذي كان سائدا في هذا العصر:

تعاهَدتكَ العهادُ يا طَلَلُ ... حدِّث عنِ الظاعنينَ ما فعلوا
فقالَ لم أدرِ غيرَ أنّهُمُ ... صاحَ غُرابٌ بالبَينِ فاحتملوا
لا طالَ ليلي ولا نهاري مَن ... يسكُنني أو يَرُدَّهُم قَفَلُ

---

(١) الديوان، (٢/٢٥٥ م).
(٢) مواقف في الأدب والنقد: د. عبد الجبار المطلبي، (ص: ٣٢).
(٣) الديوان، (١/٢٤٣)، المعارف.

وَلا تَحَلَّيتُ بالرياضِ وَلا الـ ـنـورِ وَمَغنـايَ منـهُمُ عَطَـلُ

عَلَيَّ هَذا فَمـا عَلَيـكَ لَهُـم قُلتُ حَـنينٌ وَدَمعَـةٌ تَشِـلُ

وَإِنَّني مُقفَـلُ الضَـمائِرِ مِـن حُبِّ سِواهُم ما حَنَّتِ الإِبِـلُ

فَقـالَ مَهـلاً تَبعـتُهُم أَبَـدًا إِن نَزِلـوا مَـنزِلاً وَإِن رَحَلـوا

هَيهاتَ إِنَّ المُحبَّ لَـيسَ لَـهُ هَمٌّ بِغَـيرِ الهَـوى وَلا شَـغَلُ

تَرَكتَ أَيدي النَوى تَعـودُهُمُ وَجِئتَني عَـن حَـديثِهِم تَسَـلُ

فَقُلتُ لِلرُكبِ لا قَـرارَ لَنـا مِن دونِ سَلمى وَإِن أَبى العَـذَلُ

وَلَم نَزَل نَخبِطُ البِلادَ بِأَخـ ـفافِ المَطايا وَالظِـلُّ مُعتَـدِلُ[1]

وأظن أن الأبيات في المقدمة السابقة تذكرنا بمقدمة وصف الظعن، والتى لا تندر في مقدمة قصائد الشعر العباسي فحسب " بل تأخذ مع ندرتها شكلا جديدا لا توصف فيه الهوادج والثياب التى تكللها، ولا الحادي الـذي يرشد القافلة، ويقودها، ولا الرمال التي تسير فيها وما يكابده المرتحلـون من مشقة وعنت. بل توصف فيه آثار الرحيل في نفوس المحبين.. فهم إنما يعنون بالمعاني التي يثيرها الفراق والوداع في نفوسهم ويهملـون رسـم مشاهد التحمل والارتحال. وسبب ذلك أنهم فارقوا الحياة الراحلة الـدائرة واستقروا في حياتهم وتحضروا.[2] ومن ذلك يقول ابن المعتز:

لَمّا ظَنَنتُ فِـراقَهُم لَـم أَرقُـدِ وَهَلَكتُ إِن صَحَّ التَظَنُّنُ أَو قَدِ

ما زِلتُ أَرعى كُلَّ نَجـمٍ غـابِرٍ وَكَأَنَّ جَنبي فَوقَ جَمرٍ موقَـدِ

وَرَنا إِلَيَّ الفَرقَدانِ كَمـا رَنَـت زَرقاءُ تَنظُرُ مِن نِقـابٍ أَسـوَدِ

---

(١) الديوان، (١/٢٣٥- ٢٧٦)، دار المعارف.

(٢) مقدمة القصيدة العربية، (ص: ٣٣).

وَالنَّسرُ قَد بَسَطَ الجَناحَ مُحَوِّمًا ... حَتّى القِيامَةِ طالِبًا لَم يَصطَدِ
وَتَرى الثُرَيّا في السَماءِ كَأَنَّها ... بَيضٌ بِأُدحيٍّ يَلوحُ بِفَدفَدِ
سَلَقَتهُمُ زَفَراتُ قَلبٍ مُحرَقٍ ... وَسِجالُ دَمعٍ بِالدِماءِ مُوَرَّدِ
ما أَسرَعَ التَفريقَ إِن عَزَموا غَدًا ... لا شَكَّ أَنَّ غَداً قَريبَ المَوعِدِ[1]

ونختم حديثنا عن المقدمة الطللية بثورة ابن المعتز على الأطلال سالكا مسلك أبي نواس في هذا المضمار فنجده يتمرد على الأطلال في ستة مواضع من خمرياته. يقول:

أُفٍّ مِن وَصفِ مَنزِلِ ... بِعُكاظٍ فَحومَلِ
غَيَّرَ الريحُ رَسمَهُ ... بِجَنوبٍ وَشَمأَلِ
وَسَقى اللَهُ نَهرَ عَمرٍ ... شى قِبابَ المُحَوَّلِ
حَيثُ لا لَومَ في المُجو ... نِ فَما شِئتَ فَاِجهَلِ[2]

ويقول أيضا:

أَكثَرتَ يا عاذِلي مِنَ العَذَلِ ... إِنّي عَنِ العاذِلينَ في شُغُلِ
أَحسَنُ مِن وَقفَةٍ عَلى طَلَلِ ... وَمِن بُكاءٍ في إِثرِ مُحتَمِلِ
كَأسُ مُدامٍ أَعطَتكَ فَضلَتَها ... كَفُّ حَبيبٍ وَالفِعلُ مِن قِبَلي[3]

ولعل يكون ذلك من تقليدات ابن المعتز فهو لم يترك جديدا في هذا العصر إلا وقلده ونسج على منواله.

---

(١) الديوان، (٢٥١/١)، دار المعارف.
(٢) الديوان، (٢٩١/٢)، المعارف.
(٣) نفسه، (٣٠٠/٢).

أما عن المقدمة الغزلية فنجد الشاعر يمزج بين الغزل والطبيعة وعواطفه مزجا تاما كما نرى في قوله:

أبى اللَّـهُ مـا للعاشـقينَ عَـزاءُ ... وَما للمِلاحِ الغانيـاتِ وَفـاءُ

تَرَكنَ نُفوساً نَحـوَهُنَّ صَـوادِياً ... مُصِرّاتِ داءٍ ما لَهُـنَّ شِـفاءُ

يَرِدنَ حِياضَ المـاءِ لا يَسـتَطِعنَها ... وَهُنَّ إِلى بَردِ الشَرابِ ظِمـاءُ

وَجُنَّت بِأَطلالِ الـدُجَيلِ وَمائِـهِ ... وَكَم طَلَلٍ مِن خَلفِهِـنَّ وَمـاءُ

إِذا ما دَنَت مِن مَشرَعٍ قَعقَعَت لَها ... عِصِـيٌّ وَقامَـت زَأرَةٌ وَزُقـاءُ

خَليلَيَّ بِاللَّـهِ الَّـذي أَنتُمـا لَـهُ ... فَما الحُبُّ إِلّـا أَنَّـةٌ وَبُكـاءُ

كَما قَد أَرى قالا كَـذاكَ وَرُبَّمـا ... يَكونُ سُرورٌ في الهَوى وَشَقاءُ[1]

ومن المفارقات العجيبة لهذه الحضارة أن يبدأ الشاعر قصيدة في مدح خليفة بمقدمة غزلية في المذكر يقول ابن المعتز وهو يمدح المعتضد:

عُذرُ الهَوى عندَ العَـذولِ رَشـا ... فاليَومَ حُبِّيَ فيـهِ حـينَ نَشـا

شَقَّ الظَّـلامَ البَـدرُ حـينَ بَـدا ... وَاهتَزَّ غُصنُ البانِ حينَ مَشـى

يَسـقيكَ مِـن خَمـرٍ بِمُقلَتِـهِ ... كَأسًا يَزيـدُكَ شُـربُهُ عَطَشـا

عَجِلَ الرَقيـبُ بِلَحـظِ عاشِـقِهِ ... أَو دامَ في وَجَناتِـهِ خَدَشـا

أَدرَجـتَ في الأَحشـاءِ فِتنَتَـهُ ... فَسَعى البُكاءُ بِسِـرِّها وَوَشـى

يا ناصِـرَ الإِسـلامِ إِذ خُـذِلَت ... دَعَواتُـهُ فَابتَـلَّ وَانتَعَشـا[2]

عجبا أي نصر للإسلام بعد هذا. إنها الخمر والغناء والقيان فقد أخذت بعقول العقلاء.

---

(١) الديوان، (١/٣٠٧)، المعارف.

(٢) نفسه، (١/٤٩٠).

ومن عجيب المقدمات أيضا أن يستخدم مقدمة غزلية في رثاء الخليفة المعتضد. خالطا فيها الغزل بالطبيعة بشكوى الزمان. يقول:

صدت وأغرت طيفها بمتيم ... إن الفراق لمغروم بالمغرم

وبدت فحسبك من وشاح ناطق ... كثرت وساوسه وحجل مفحم

وكأن فاها بعد آخر رقدة ... متسحر بعقار دن معلم

بعج الفرات لها فسلسل جدولا ... متسربا في كرمها كالأرقم

قالت شُرَيْرَةُ ما لجفنك ساهرًا ... قَلِقًا، وقد هدأتْ عيونُ النُّومِ

ما قد رَأَيْتِ مِنَ الزَّمَانِ أَحَلَّ بي ... هذا، وتحت الصَدْرِ ما لم تَعْلَمي

يا نفسُ، صبرًا للزمانِ وريبه ... فهو المليء بما كرهتِ فسلِّمي

إنَّ الذي حَازَ الفَضَائِلَ كُلَّها ... هو ذاك في قَعْرِ الضريحِ المُظْلِمِ[1]

فهو في هذه المقدمة أراد أن يختلق لنفسه مدخلا لهذا الرثاء فأتى بشريرة حبيبته والتي سألته عن سر سهره وبكائه فأشار إليها بما قال في البيت الأخير.

والشعراء في العصر العباسي " يكثرون من الإلمام بوصف شيبهم في مقدمات قصائدهم، وهو وصف لا يتفجعون فيه على شبابهم وما كان لهم فيه من صولات وجولات، ولا يجزعون من مشيبهم فحسب، بل يضمنونه نظراتهم العميقة إلى الدهر، مرددين أن أعمارهم لم تطل بهم حتى تشتعل رؤوسهم شيبا، وإنما مصائب الدهر هي التي أشابتهم وهم في ريعان شبابهم".[2]

---

(١) الديوان، (٣٦٢/٢)، المعارف.

(٢) مقدمة القصيدة العربية، (ص: ٢٩).

ويقول ابن المعتز في ذلك رابطا بين الشيب وقرب الموت ووجوب الزهد في الدنيا:

قَالتْ أرَى عَجَبًا أنْ نَـوَّرَ الشَّـعَرُ ... مَهْلاً سُلَيْمَى فَهَذَا الشَّيْبُ والْكِبَرُ
تَقَسَّـمَتني هُمُـومٌ بِـشَنَ وَالجَـةَ ... طَارَتْ عَلَى القَلْبِ مِنْ نيرَانِهَا شُرُرُ
وَخِفْتُ ألَّا أرَى شَـيْئًا أُسَـرُّ بِـه ... وَقَدْ تَقَرَّبَ حَتْفِي وَانْتَهَى العُمُـرُ
وَخَفَّ مِنِّي طَرِيقُ اللَّهْوِ وَاعْتَـذَرَتْ ... إِلَى السُّقَاةِ يَدِي وَالكَأسِ تَبْتَـدِرُ
وقد تَمَاسَكْتُ عَنْ جَهْلِي وَأحْكَمَنِي ... أَطْوَارُ دَهْرٍ لَهَا فِي مَفْرَقِي أثَـرُ[1]

ولم يقتصر تجديد العباسيين على التحوير في أطر المقدمات التقليدية ولا على التغيير في مضامينها، ولا على إهمالهم لسائرها، فقد عمدوا إلى ابتداع مقدمات جديدة كان من أهمها المقدمة الخمرية التي تطور الأخطل بها وحقق الكمال والاستقلال لها، والتي دعا أبو نواس دعوة قوية إلى الإكثار منها واستهلال القصائد بها، كما أصلها هو في أوائل قصائده. وإذا غير شاعر ممن كانوا يعاصرونه يشاركونه في دعوته ويستجيبون له ويقتدون به. وإذا بعض الشعراء في العصر العباسي الثاني يستهويهم هذا التقليد الجديد الذي دعا إليه ورسخه هو وأمثاله من الشعراء المجان"[2]

وإذا ابن المعتز يقلد أبا نواس ويفتتح قصائده بها كما قلنا في نهاية المقدمة الطللية. ومن قوله في ذلك أيضا:

خَلِيلَيَّ باللهِ اقْعُدَا نَصْـطَبِحْ بِـلاَ ... قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى خَلِيلٍ وَمَنْـزِلِ
وَيَا رَبِّ لاَ تُنْبِتْ وَلاَ تُسْقِطِ الحَيَا ... بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

(١) الديوان، (٢/٣٩٥)، المعارف.
(٢) مقدمة القصيدة العربية، (ص: ٢٦٢).

وَلا تُقْرِ مِقْرَاةَ امْرِئِ الْقَيْسِ قَطْرَةً ... مِنَ الْغَيْثِ وَارْجُمْ سَاكِنِيهَا بِجَنْدَلِ
وَلَكِنْ دِيارَ اللَّهوِ يا رَبِّ فَاسْقِهَا ... وَدُلَّ عَلَى خُضْرانِهَا كُلَّ جَـدْوَلِ[1]

وكان من تأثير الحضارة أيضا الربط بين الخمر وأماكن شـربها وما يصحب الشراب من غناء وطرب. يقول ابن المعتز:

أمكَنتُ عاذِلَتي مِـن صَـمت أَبّـاءِ ... ما زادَهُ النَهيُ شَيئاً غَـيرَ إِغـراءِ
أَينَ التَـوَرُّعُ مِـن قَلـبٍ يَهـيمُ إِلى ... حاناتِ لَهوٍ غَدا بِـالعودِ وَالنـاءِ
وَصَـوتِ قَيْنَـةِ التَغريـدِ نـاظِرَةٍ ... بِعَينِ ظَبيٍ تُريـدُ النَـومَ حَـوراءِ
جَرَّت ذُيولَ الثِيابِ البيضِ حينَ مَشَت ... كَالشَمسِ مُسبِلَةً أَذيـالَ لَـأْلاءِ
وَقَرعِ ناقوسِ دَيـرِيٍّ عَلـى شَـرَفٍ ... مُسَبِّحٍ في سَوادِ اللَيلِ دَعّـاءِ[2]

وأحيانا يبدأ بأثر الخمر على العقل حتى تجعله كالأموات. يقول:

خَليلَيَّ قُمْ حَتّى نَمُوتَ مِنَ السُّكْرِ ... بِحَانَـةِ خَمَّـارٍ مَمَاتـاً بِـلا قَبْـرِ
وَنَشْـرَبُ مِـنْ كَرْخِيَّـةٍ ذَهَبِيَّـةٍ ... وَنَصْفَحُ عَنْ ذَنْبِ الحَوَادِثِ والدَّهْرِ[3]

وأحيانا يبدأ بالدعاء بالسقيا لأماكن الشراب، يقول:

سَقَى الجَزِيرَةَ ذَاتَ الظِّلِّ وَالشَجَرِ ... وَدَيْرَ عَبْدُونَ هَطَّالٌ مِنَ الْمَطَرِ[4]

ونراه يقسم بالخمر في بعض المقدمات وبمن عصرها وبمن قدمها يقول:

لا وَالْمُدَامَةِ، وبكَ، لا وحَيَاتِهَا ... وَذِمَامِ عَاصِرِهَا وحَقِّ سُـقَاتِهَا

---

(١) الديوان، (٢/٢٩٠)، دار المعارف.
(٢) نفسه، (٢/ ٢٠٨).
(٣) نفسه، (٢/٢٤٩).
(٤) الديوان، (٢/٢٥٠)، المعارف.

مَا هَمَّ قَلْبِي أنْ يَهِيمَ بِغَيْرِهَا فَلِذَاكَ قَلْبِي مُغْرَمٌ بِصِفَاتِهَا[١]

وكان من أثر الحضارة الاستمتاع بمظاهر الطبيعة مما أوجد لونا آخر من المقدمات هي مقدمة وصف مظاهر الطبيعة من سحب وبروق وربيع يقول ابن المعتز في ذلك:

وَسَارِيَةٍ لا تَمَلُّ البُكَا جَرَى دَمعُهَا في خُدودِ الثَرى
سَرَت تَقدَحُ الصُبحَ في لَيلِها بِبَرقٍ كَهِندِيَّةٍ تُنتَضى
فَلَمّا دَنَت جَلجَلَت في السَما ءِ رَعداً أَجَشَّ كَجَرِّ الرَحى
ضَمانٌ عَلَيها ارتِداعُ اليَفا عِ بِأَنوارِها وَاعتِجارُ الرُبى
فَما زالَ مَدمَعُها باكِياً عَلى التُربِ حَتّى اكتَسى ما اكتَسى
فَأَضحَت سَواءً وُجوهُ البِلادِ وَجُنَّ النَباتُ بِها وَالتَقى[٢]

ويقول أيضا في ذلك:

وروضة باتَ طَلُّ الغيثِ ينسجُها حتى إذا نَجَمَتْ أضحى يُدبِّجُها
تبكي عليه بكاءَ الصبِّ فارقَهُ إلفٌ فيُضحكُها طَورًا ويُبهجُها
إذا تنفسَ فيها الوردُ نرجسَها ناغى ذكيٌّ خُزاماها بنفسجُها[٣]

وأحيانا يبدأ قصائده بوصف القصور، فيقول:

سَلامٌ عَلى غَيرِ الديارِ البَسابِسِ وَدِمنَةِ رَبعٍ قَد تَغَيَّرَ دارِسِ
وَهَبتُ سَلامي ما حَيِيتُ لِمَجلِسٍ عَلى قَصرِ بِسطامٍ أَميرِ المَجالِسِ
مُطِلٍّ عَلى رَوضٍ أَنيقٍ كَأَنَّهُ مَقادِمُ خُضرٌ فَوقَ فُرشِ عَرائِسِ

---

(١) نفسه، (٢/٢٢٣).
(٢) الديوان، (١/٢١٧)، المعارف.
(٣) الديوان، (٢/٢٣١).

وَكَم فيهِ مِن قُمريٍّ عودٍ مُغَــرِّدٍ   وَمِن كارِعٍ في كَأسِهِ غَيرَ حابِسِ[١]

والآن بعد أن استعرضنا أثر الحضارة على المقدمات فليس " معنى ذلك، أن البداية، هي العنصر الوحيد العام في البناء الفني، فنهاية القصيدة لا تقل أهمية عن بدايتها؛ ذلك لأنها ختام القصيدة، وآخر ما يعلــق بــأذن السامع منها".[٢]

والحقيقة أنه كان من أثر الحضارة على ختام القصيدة هو التناسب الدقيق بين الغرض من القصيدة والخاتمة، فإذا كانت القصيدة فــي الفخــر كانت الخاتمة مؤجزا لها وهكذا إذا كانت في المدح أو في الرثاء.

فنجد ابن المعتز فى قصيدة يفتخر فيها بنفسه يختمها بقوله:

أنا ابنُ الَّذي سادَهُمْ في الحَياةِ   وَسادَهُمُ بِيَ تَحْــتَ الثَّــرَى
وَما لِــيَ في أَحَــدٍ مَرغَــبٌ   بَلى فِيَّ يَرغَبُ كُــلُّ الــوَرى
وَأَسْهَرُ للْمَجْدِ والْمُكْرُمــاتِ   إذا اكْتَحَلَتْ أَعْيُنٌ بِــالْكَرَى[٣]

وفي قصيدة يمدح فيها المعتضد يختمها بقوله:

إن أغِبْ عَنكَ فَما غابَ شُكرٌ   دَعــوَةٌ جاهِــدَةٌ وَامتِــداحا
يا أَمينَ اللَــهِ أَيِّــدتَ مُلكَــا   كانَ مِن قَبلِــكَ نَهبًــا مُباحــا[٤]

ويختم قصيدة يرثي فيها أباه بقوله:

يا مكلّ العــيش في ديمومــة   يتبع الآمال كالبــاغي المضــلّ

---

(١) الديوان، (٢/٢٧٥). المعارف.

(٢) الخصومة بين القد ماء والمحدثين: د. عثمان موافي، (ص: ٢٤٥).

(٣) الديون، (١/٢١٩)، المعارف.

(٤) الديوان، (١/٤٦٩)، المعارف.

إن مفتـــاحَ الـــذي تطلبـــه بيدِ الرزّاقِ فاصـــبر واتكِـــلْ
فرغ الله من الـــرزق ومـــن مدة العمر ومن وقت الأجل(١)

وكما كان للحضارة أثر على بداية القصيدة ونهايتها كان لها أثر كذ لك على وسطها " الذي يعد همزة وصل بين المقدمة والغرض الرئيس، الذى يفضى إلي النهاية، واصطلحوا على تسمية هذا الجزء باسم الخـــروج أو التخلص".(٢)

ومن حسن تخلص ابن المعتز في قصيدة يمـــدح فيهـــا المعتضـــد يبدؤها بقوله:

وَحُلوُ الدّلالِ مَليحُ الغَضَب يَشوبُ مَواعيدَهُ بِالكَذِب

وبعد أن يتحدث عن رحلة صيد مع أصحابه وذهابهم للشراب في جو جميل بهيج، يقول:

وَطافَت سُقاتُهُمُ يَمزِجـــونَ بماءِ الغَديرِ بَنـــاتِ العنَـــب
وَحَثّوا النَدامى بِمَشـــمولَةٍ إِذا شارِبٌ عَبَّ فيها قَطَـــب
فَراحوا نَشاوى بِأَيدي المُدامِ وَقَد نَشَطوا عَن عِقالِ التَعَب
إِلى مَجلِسٍ أَرضُهُ نَـــرجِسٌ وَأَوتارُ عيدانِـــهِ تَصـــطَخِب
وَحيطانُهُ خَـــرطُ كـــافورَةٍ وَأَعلاهُ مِن ذَهَـــبٍ يَلتَهِـــب

ثم نراه ينتقل بعد ذلك إلى المديح وكأن الخليفة مصدر جو نفـــس بهيج مثل هذا المجلس الذي وصفه. فنراه انتقل إلى المديح وكأنه مـــازال يصف المجلس يقول:

---

(١) الديوان، (٢/ ٣٦٠ - ٣٦١).
(٣) الخصومة بين القدماء والمحدثين، (ص: ٢٤٥).

فَيا حُسْنَهُ بإمامِ الهُدَى وَخَيْرِ الخَلائِفِ نَفْساً وَأَبْ
إذا ما تَرَبَّعَ فَوقَ السَّريرِ وَبالتاجِ مَفرِقُهُ مُعتَصِبُ[1]

أما عن الوحدة العضوية في القصيدة والتي يقول عنها ابن طباطبا العلوي: وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله، فإن قدم بيتا على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نفض تأليفها، فإن الشعر إذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بأنفسها، وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها، والأمثال السائرة المرسومة باختصارها لم يحسن نظمه بل يجب أن تكون القصيدة كلها تكملة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجا وحسنا وفصاحة، وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجا لطيفا".[2]

فإذا بحثنا عن أثر الحضارة على هذا الوحدة. وجدنا أن الحضارة قد ارتقت بالمشاعر والنفوس. ووجدنا معظم القصائد يسيطر عليها جو نفسي واحد البيت يسلم للبيت بعد أن كان كل بيت يعتبر بناء قائما بذاته. ولننظر في تلك القصيدة الرائعة والتي في ذكرها الغناء عن شرحها لنرى ما فيها من قوة تماسك. يقول:

قد شبت بعدك والمشيب مصيبة وخضبت بعدك والخضاب عناء
ورأيت صرف الدهر يخلق جدتي لا رعية منه ولا إبقاء
في كل يوم حادث تبكى له عيني وتألفها به الأقذاء

---

(١) الديوان، (١/٤٠٦ – ٤٠٧)، طبعة بغداد.

(٢) عيار الشعر: لابن طباطبا العلوي: تحقيق/ د. محمد زغلول سلام، (ص: ١٤٨).

فإذا مضى يـــوم عـــددت مضـــيه غنمـــا وذلـــك للحيـــاة فنـــاء
أتألف الـــدنيا وأبســـط عـــذرها جهدي كما تتـــألف الأعـــداء
وأقول إن أنكرت ضـــيقة معســـر فلمعســـر ســـعة بهـــا ورخـــاء
ولكـــل قـــوم دولـــة تـــأتيهم ولكـــل آت مـــدة وثـــواء
ولكل ليل كاشـــف مـــن صـــبحه ولكل صـــبح مقبـــل إمســـاء
كالبـــدر تمحقـــه الليـــالي بعـــدما ملأ العيون لـــه ســـنى وضـــياء
حتى يعـــود كمـــا بـــدا متحيفـــا يمضي وتخلف بعـــده الظلمـــاء
وتطـــرقتني الحادثـــات فهـــل لمـــا كلفـــت بـــه وتطرقتـــه بقـــاء
وتنكرت حـــال الصـــديق فبعـــده عندي ومحضـــره علـــي ســـواء
وجرت علي من الأعـــادي غـــرة ومن الصديق فضاضة وجفـــاء
وألفت ضنك العيش بعدك فاستوت عندى بـــه الســـراء والضـــراء
وعلى الليـــالي أن تلـــم صـــروفها وعلى الكريم تجلـــد وعـــزاء[1]

وبعد أن انتهينا من أثر الحضارة على المقدمة والخاتمة ننتقل إلى أثرها على الموسيقى ثم الأسلوب.

---

(١) الديوان، (٣٩٨/٢)، دار المعارف.



" علاقة الموسيقى بالشعر علاقة قديمة قديم الفنيين، مستمرة لا تنقطع، ذلك أن بين الفنيين من الوشائج والروابط ما يمنع أحدهما من أن يستغني عن الآخر. فإذا كانت الموسيقى تحيل اللفظ نغما يغذي الحس والروح فالشعر خفقة مطربة تعتمد الصوت واللحن في تغذية المشاعر والنفس"[١] وكل موسيقى شعرية لا تفجر في الكلمات أقصى طاقتها الدلالية والإيحائية ولا ترتبط ارتباطا وثيقا بالطاقة الانفعالية التي تثيرها القصيدة، هي موسيقى خارجية مفتعلة، قد تكون جميلة في ذاتها، ولكنها بأي حال لن تكون عنصرا من عناصر البناء الشعري".[٢]

فالكلام الموزون ذو النغم والموسيقى يثير فينا انتباها عجيبا، وذلك لما فيه من توقع لمقاطع خاصة تنسجم مع ما نسمع لتتكون منها جميعا تلك السلسلة المتصلة الحلقات التي لا تنبو إحدى حلقاتها عن مقاييس أخرى والتي تنتهي بعد عدد معين من المقاطع بأصوات بعينها نسميها القافية".[٣]

والوزن والقافية هما عمودا الموسيقى الشعرية، " فالشعر جاءنا منذ القدم موزونا مقفى، والشعر لا يزال في جل الأمم موزونا مقفى، نرى

---

(١) عضوية الموسيقى في النص الشعري: د. عبد الفتاح صالح نافع، (ص: ٥).

(٢) الصورة والبناء، د. محمد حسن عبد الله، (ص: ٨٧).

(٣) موسيقى الشعر: د. إبراهيم أنيس، (ص: ١٨).

موسيقاه في أشعار البدائيين وأهل الحضارة ويستمتع بها هؤلاء وهؤلاء، ويحافظ عليها هؤلاء وهؤلاء".[١]

ومما لا شك فيه أن التطور الزمني والحضاري لابد أن يترك أثرا ولو ضئيلا في أوزان الشعر وقوافيه، أو في شكله الموسيقي بصفة عامة، فهل خضع الشعراء العرب لهذا التطور أو غلب عليهم التقليد والاحتذاء، أو سمحت لهم وفرة الأوزان واتساعها وتنوعها بالتصرف في حدودها ؟

الحقيقة أن الأوزان العربية القديمة قد استمرت في العصر العباسي وبعده حتى يومنا هذا " ولم يكن هذا مجرد مسألة تقليدية أو قصورا من الشعراء عن الابتكار والتجديد، ولكن هذه الأوزان الستة عشر – التي اكتشفها الخليل – تمثل في الواقع تنوعا موسيقيا واسع المدى يتيح للشعراء أن ينظموا في دائرته كل عواطفهم وخواطرهم وأفكارهم، دون أن يجدوا تضييقا أو حرجا يضطرون معه إلى محاولة الخروج على هذه الأوزان ليلائموا بين مادة شعرهم الجديدة وما تقتضيه من موسيقى وإيقاع خاصين"[٢] بالإضافة إلى أن " التجديد في الأوزان نادر وأن تطورها بطيء جدا، تمر عليها القرون والأجيال دون أن يصيبها ما يسترعي الانتباه أو يلفت الأنظار. وذلك لأن ألفة الوزن وشيوعه في البيئة اللغوية تطلب زمنا طويلا وانتاجا شعريا كثيرا حتى يعتاده جمهور كبير من السامعين، ويستسيغوا ما فيه من نغم وموسيقى. ومثل الأوزان في هذا كمثل قواعد اللغة وتركيب جملها، فتطورها بطيء جدا إذا قيس بتطور أصواتها أو

---

(١) نفسه، (ص: ٢٢).

(٢) اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، (ص: ٥٦٦).

تطور نسج الكلمة فيها... وهذا التطور البطيء في الأوزان أمر طبيعي لأن الشعوب تتطلب الزمن الطويل، وتكرار الوزن الواحد على الأسماع أجيالا وقرونا وعلى يدي شعراء متعددين، قبل أن تألف الآذان ذلك الوزن وتكتل من مقاطعه مجاميع منسجمة فيها النغم وفيها الموسيقى".[1]

ومهما يكن فإن الغناء نوع أوزان الشعر في العصر العباسي تنويعا واسعا فبينما كان يقضي على بعض الأوزان الطويلة المعقدة أو يكاد، كان يشيع الأوزان الأخرى التي تتلاءم معه من مثل: المتقارب والرمل والهزج والخفيف، فإن ألم بالأوزان الطويلة أخذ ينوع فيها بما يحدثه من مشطوراتها ومجزوئاتها أو من اختلاف في ضروبها وأعاريضها. وقد فتح الخليل أبواب الزحافات في العروض ليعدل الشعراء في إيقاعات الأوزان القديمة ونغماتها، وكأن هذه الزحافات خروق في الرقع الموسيقية وضعها الخليل لينفذ منها الشعراء إلى التعديل في الأوزان التي كان يتطلبها الغناء العباسي".[2]

" هذه البحور القصيرة والمجزوءة لم تكن مألوفة في الشعر القديم ولاسيما الجاهلي وشعر صدر الإسلام. ثم بدأ الشعراء يعنون بها أو ببعضها بعد ذلك، ونظموا منها أشعارا كثيرة وقصائد متعددة حين بدأ الناس يتغنون بالأشعار وكثر تلحينها في عصور الغناء والطرب أيام العباسيين، فكان الشاعر في غالب الأحيان ينظم المقطوعة ثم يدفع بها لمغن أو جارية تصنع لها الأنغام وترددها في مجالس الخلفاء أو الوزراء.

---

(١) موسيقى الشعر: د. إبراهيم أنيس، (ص :٢٣).

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي: د. شوقي ضيف، (ص: ٧٤).

ورأى الشعراء أن البحور القصيرة أطوع في الغناء والتلحين فأكثروا من نظمها ووجدت ارتياحا إليها من عامة الناس وخاصتهم، على أن شعراء العصر العباسي كانوا أحيانا أخرى يقفون بين يدي الخليفة أو الوزير ينشدون الشعر إنشادا ويلقونه إلقاء، ولا سيما في قصائد المدح والرثاء.

فقد جمع إذن الشعر العباسي بين شعر يتغنى به، وشعر ينشد في المجالس والمحافل".[1]

وابن المعتز العباسي أكثر من استخدام الأوزان القصيرة والمجزوءة التي كانت تتلاءم وطريقة حياته ومجالس شرابه "حين شاعت مجالس الطرب وألوان الغناء واللهو والمجون. وكل هذا مما تنفعل له نفوس الشعراء انفعالا شديدا فينظمون في لهفة وشوق حين تعرض أمامهم مباهج النساء وتلعب الخمر بعقولهم وأفئدتهم ويتملكهم طرب الغناء ونشوته".[2]

فنجده استخدم بحرا، كمجزوء الكامل، والوافر، والرمل، والخفيف، ومشطور المديد ومخلع البسيط، والهزج، والمجتث، ومنهوك المنسرح وغيرها...

فمن قوله من مجزوء الكامل:

نبهت ندماي فهبا   طربا إلى كأس ولبى[3]

ومن مجزوء الرمل:

---

(١) موسيقى الشعر: د. إبراهيم أنيس، (ص: ١١٩).

(٢) نفسه، (ص: ١٩).

(٣) الديوان، (٢٩/٢)، طبعة بغداد.

أدرِ الكأسَ علينا أيُّها الساقي لنطرَبْ[١]

ومن مجزوء المتقارب:

دَعَوا مُغرَمًا بالطَّرَب كَما زالَ شَيءٌ عَجَب[٢]

ومن المجتث:

لا تَدْعني لَصبُوحٍ إنَّ الغبوقَ حبيبي[٣]

ومن مخلع البسيط:

قد طال شوقي إلى عقار صفراء من كف ذي احورار[٤]

ومن مجزوء الوافر:

بَخيلٌ قَد شَقيتُ بِهِ يَكُدُّ الوَعدَ باللَّجَجِ[٥]

ومن مشطور المديد:

أسَألتَ طَلَلا بالبُرَقِ قَد خَلا[٦]

ومن مجزوء الرجز:

راحَ فِراقٌ أَوْ غَدَا لَيْسَ بِباقٍ أَبَدًا[٧]

ومن مجزوء المنسرح:

---

(١) نفسه، (٢/٣٧).

(٢) نفسه، (٢/٣٣).

(٣) نفسه، (٢/٤٢).

(٤) نفسه، (٢/١٤٤).

(٥) نفسه، (١/٢٣٦).

(٦) نفسه، (١/١٤٥).

(٧) نفسه، (١/٨٤).

كَم لِيَ مِن عَذولٍ بِتُّ لَهُ عَذولا[١]

ومن الهزج:

أيا مَن ماتَ مِن شَوقٍ إلى لِحيَتِهِ الحَلَقُ[٢]

هذه الأوزان القصيرة قد أضفت على الشعر ألوانا من الإيقاع السريع، وإن كانت موسيقية الشعر فيها رخوة في الغالب، وذلك لاستخدامها في مجال الغزل والنسيب اللذين تأثرا كثيرا برهافة الحس في ذلك العصر".[٣].ومع ذلك استخدمت هذه الأوزان في مجالات أخرى والتي يستخدم فيها الأوزان الطويلة عادة. فنرى ابن المعتز يستخدم بحر الهزج في مدحه للمعتضد يقول:

أقر الملك في المنصب وقد وجد فلا تلعب
وقد أنذرك الدهر فخل الذنب يا مذنب
فإن الله قد سل حساما راسب المضرب
إذا أعطشه الثأر فمن حوض دم يشرب[٤]

كما أننا ينبغي ألا نعجب أيضا إذا نحن وجدنا الشعراء يستخدمون الأوزان الطويلة أحيانا في مجالات بعيدة عن الخطابية كالنسيب والخمريات والزهديات وما أشبه لنستمع – على سبيل المثال – إلى هذا الصوت من ابن المعتز (من البسيط):

---

(١) نفسه، (١/٣٣٥).

(٢) نفسه، (١/٦٨٧).

(٣) في الشعر العباسي، الرؤية والفن: د. عز الدين إسماعيل، (ص: ٤٤٣).

(٤) الديوان، (١/ ٤٥١)، طبعة دار المعارف.

طالَ النهارُ فأينَ الليلُ والسَّهَرُ ... إنّي لَبدري وبَدرِ اللَيلِ مُنتظِرُ
يا طولَ شوقي إلى نومِ الرَّقيبِ وَقد ... خَلا حَبيبيَ لي حَتّى بَدا السَّحَرُ
يا قَلبِ صَبرًا عَلى يَومِ الفِراقِ فَقَد ... حَقَّ الَّذي منهُ حَقًّا كُنتُ أَنتظِرُ
يا شَوقُ خُذ مِن حَياتي وَاترُكَنَّ زَما ... نَ البَينِ ما في حَياتي بَودّهُم وَطَرُ

فعلى الرغم من طول الوزن لا ترتفع فيه النبرة الخطابية، بل توشك النغمة العامة هنا أن تكون ضربا من الأنغام الرومانسية الهادئة. الحالمة".[1]

" وإذا كان الوزن ذا صلة عضوية بالنص الشعري بما يبعثه من موسيقى ذات إثارة في النفس والحس معا، فإن هذه الموسيقى تعظم وتتنامى وتؤثر إذا توافرت القافية. فهي تضيف بموسيقاها قوة ومفعولا لا تتوفر عن طريق الوزن وحده".[2]

وليست القافية إلا عدة أصوات تتكرر في أواخر الأشطر أو الأبيات من القصيدة، وتكرارها هذا يكون جزءا هاما من الموسيقى الشعرية. فهي بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها، ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة، وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمى بالوزن.[3]

ولقد بقيت حال القافية هكذا، حتى جاء العصر العباسي، وازدهرت فيه ألوان الغناء وتعددت الأنغام وتعقدت، وأصبحت تتطلب من الشعر نوعا

---

(١) في الشعر العباسي: د.عز الدين إسماعيل، (ص: ٤٤٠).
(٢) عضوية الموسيقى في النص الشعري، (ص : ٧٤).
(٣) موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس، (ص: ٢٧٣).

قد تعددت فيه القوافي وتنوعت، وهنا بدأ الشعراء ينوعــون فــي نظــام القافية،[١] فشرعت بعض الأشكال الشعرية التي تخففت من هذا الســلطان – القافية – وابتكرت أنظمة جديدة من القوافي، شــرعت فــي الظهــور والانتشار، تلبية لحاجات المجتمعات الجديدة واتساقا مع الموســيقى التــي راجت فيها".[٢]

ونستطيع أن نقول:" إن شكل القصيدة في العصر العباسي قد تطور في اتجاهين متقابلين: اتجاه استشرف بعض الشعراء العمل الملحمي فطالت قصائدهم حتى بلغت مئات الأبيات، واتجاه آخر نحــو إطــار المقطوعــة المحدودة الأبيات. وقد أعطى كل من هذين الاتجاهين عطاء ليس باليسير. ولا غرابة بعد في أن ينمو هذان الاتجاهان معــا فــي عصــر كالعصــر العباسي، اتسع لكل التجارب وكل المتناقضات".[٣]

" والمزدوجة يقفى فيها كل شطرين بقافية واحدة قد تخالف قافيــة الشطرين اللذين قبلهما أو بعدهما"[٤] وقد وجد بعض شعراء العباسيين هذا النظم يسيرا لا يكلفهم مشقة أو عنتا، ولا تطغى قوافيه على ما قد يجول في صدورهم من معان وأخيلة[٥]، وقد استعانوا به لنظم العلوم وتيسيرها على الدارسين بمزج العلم بالموسيقى، ليجد طريقه إلى النفوس والعقول معا.[٦]

---

(١) نفسه، (٣٣٢).

(٢) القافية في العروض والأدب: د. حسين نصار، (ص : ١٥٣).

(٣) في الشعر العباسي، الرؤية والفن: د. عز الدين إسماعيل، (ص: ٤٢١).

(٤) القافية في العروض والأدب، (ص: ١٦٢).

(٥) موسيقى الشعر، (ص: ٣٣٣).

(٦) الشعر العباسي، التيار الشعبي: د. سعد شلبي، (ص: ١٨٢).

ويقال إن أول من نظم فيه بشار بن برد وأبو العتاهية، ثم تتابع عليه الشعراء. وقد وجدوه أليف بنظم القصص الطويلة والحكم والأمثال، وما أرادوا نظمه من مسائل العلوم ذلك لأن الناظم يستطيع أن ينظم منه آلافا من الأبيات دون أن يصيبه جهد أو عنت.[1]

وابن المعتز العباسي مثله مثل معاصريه يعبر عن روح الحضارة التي ينتمي إليها فيستخدم القصائد المزدوجة تاركا لنا مزدوجتين رائعتين إحداهما تعتبر تاريخية وهي التي قالها في مدح المعتضد والتي يقول في مطلعها:

باسمِ الإِلَهِ المَلِكِ الرَّحْمَنِ ... ذي العِزِّ وَالقُدرَةِ وَالسُّلطانِ
الحَمدُ لِلَّهِ عَلى آلائِهِ ... أَحمَدُهُ وَالحَمدُ مِن نَعمائِهِ
هَذا كِتابُ سِيَرِ الإِمامِ ... مُهَذَّبًا مِن جَوهَرِ الكَلامِ
أَعني أَبا العَبّاسِ خَيرَ الخَلقِ ... لِلمَلِكِ قَولُ عالِمٍ بِالحَقِّ
قامَ بِأَمرِ المُلكِ لَمّا ضاعا ... وَكانَ نَهبًا في الوَرى مُشاعا[2]

* أما المزدوجة الثانية فقد شذ فيها عما سبقه من الشعراء فلم يستخدمها للقصص التعليمي أو التاريخ، بل نظمها في ذم الشرب صباحا وبهذا يكون قد فتح الباب للمزدوجة أن تستخدم في أغراض أخرى. يقول:

لي صاحِبٌ قَد لامَني وَزادا ... في تَركِيَ الصَبوحَ ثُمَّ عادا
وَقالَ لا تَشرَبُ بِالنَهارِ ... وَفي ضِياءِ الفَجرِ وَالأَسحارِ
إِذا وَشى بِاللَيلِ صُبحٌ فَافتَضَح ... وَذَكَّرَ الطائِرَ شَجوٌ فَصَدَح

---

(١) موسيقى الشعر، (ص:٣٣٣).

(٢) الديوان، (٢/٥ - ٦)، طبعة دار المعارف.

وَالنجمُ في حَوضِ الغُروبِ وارِدُ   وَالفَجرُ في إِثـرِ الظَـلامِ طـارِدُ
وَنَفَضَ اللَيلُ عَلى الوَردِ النَدى   وَحَرَّكَت أغصانَهُ ريـحُ الصَـبا[١]

أما بالنسبة للمقطوعات الشعرية فقد أكثر منها الشـعراء بجانـب القصائد الطويلة وربما كان السبب في ذلك تأثرهم بالقرآن الكريم وما فيه سور طويلة وقصيرة، هذا بجانب الغناء وسرعة رتـم الحيـاة فـي هـذا العصر، وربما كان من الأسباب أيضا كما أورد ابن رشيق في كتابه العمدة "سئل عمرو بن العلاء: هل كانت العرب تطيل ؟ فقال: نعم ليسمع منهـا، قيل: فهل كانت توجز؟ قال: نعم ليحفظ عنها (...) وقال الخليل بن أحمد: يطول الكلام ويكثر ليفهم، ويوجز ويختصر ليحفظ".[٢]

وإذا تأملنا المقطوعات الشعرية عند ابن المعتز وغيره من الشعراء في عصره أدركنا أنهم تناولوا فيها آفاق التجربة الشعرية التي حلقوا فيها، من الدعابة الهازلة والتحامق والمجون إلى النسيب والغزل إلى الخمريات والزهديات، إلى العتاب والهجاء، إلى الإخوانيات. ومعنى هـذا أن شـكل المقطوعة الشعرية القصيرة قد صار في العصر العباسي إطارا فنيـا لـه وزنه وله خطره في شعر ذلك العصر، لأنه كان استجابة لذوق العصر من جهة، وتحقيقا لشعبية الشعر وسرعة تناقله ودورانه على ألسن الناس مـن جهة أخرى"[٣] ولننظر إلى تلك الدعابة الهازلة في شعر ابن المعتز وهـو

---

(١) الديوان، (٣٠/٢)، طبعة دار المعارف.
(٢) العمدة، (١٨٦/١).
(٣) في الشعر العباسي، الرؤية والفن، (ص، ٤١٨).

يصور حذاء أحد الرجال في مقطوعة شعرية تنتهي بانتهاء تلك الروح المرحة التي تحملها أو تلك الشحنة الوقتية التي يحس بها. يقول:

يا راكبًا فوقَ بَغلٍ	للأرضِ منها دَويُّ
لَهُ إذا ما تَمَشّى	قَفاً إليها شَهِيٌّ
جرداء تذكر نوحا	في المهد وهو صبي
يُعَرِّفُ الرَسمَ منها	شِبعٌ عَلَيها خَفِيٌّ
وخلفه شاكري	من ظله حبشي
بِما تَتيهُ عَلى النا	سِ قُل لَنا يا شَقِيٌّ [(١)]

وقد أخذت المقطوعات الشعرية عند ابن المعتز أشكالا مختلفة منها المربع: وهو ذلك الشعر الذي يقسم فيه الشاعر قصيدته إلى أقسام يتضمن كل قسم منها أربعة أشطر، ويراعي الشاعر في هذه الأشطر الأربعة نظاما في القافية. فقد تكون كلها مقفاة بقافية موحدة ووزن واحد، وذلك هو ما يسمى بالدوبيت"[(٢)] وهي كلمة فارسية بمعنى البيتين.يقول ابن المعتز في ذلك:

قل لعبيد الله يا وجه الصبي	ولبنيه العقل والقلب
أيا ثار حرز المخشلب	لا بأبي أنتم فداء لأبي [(٣)]

"ويقال: إن هذا الشكل فارسي الأصل، ابتكره عبد الله بن جعفر بن محمد المعروف برودكي (٢٦٠ – ٣٢٩هـ).. ثم انتشر في الأدب

---

(١) الديوان، (٤٦٨/٢)، دار المعارف.

(٢) موسيقى الشعر، (ص: ٣٣٦).

(٣) الديوان، (٤٢٩/٢)، دار المعارف.

الفارسي انتشارا لا مثيل له، وكان له صداه في الأدب العربي واستخدم في جميع الأغراض".[١]

على إنا في بعض الأحيان نرى الشطر الثالث في الأشطر الأربعة مختلف القافية. يقول ابن المعتز:

ما لقلبي كجناح قد علق شركا مكن فيه فخفق

يشتكي الهجر بزفرات كما جمجم الأعجم شلوى أو نطق[٢]

وقد يستخدم المخمس: وذلك بأن يقسم الشاعر مقطوعته إلى أقسام يتضمن كل قسم منها خمسة أشطر لها نظام خاص في قوافيها. وقد يكون كل قسم من هذه الأقسام مستقلا تمام الاستقلال في قوافيه وأوزانه وهو المخمس الحقيقي[٣] يقول ابن المعتز:

وقهوة كقبس المستعجل ناهبتها عمر دجى مستقبل

مشمولة تقتل إن لم تقتل حتى بدا وجه صباح منجل

يختال في ثوب دجى مرعبل[٤]

وأحيانا يستخدم ثلاثة أشطر تتحد في الروي والقافية مثل قوله:

صَبرًا عَلى الهُمومِ وَالأَحزانِ وَفُرقَةِ الأَحبابِ وَالإِخوانِ

فَإِنَّ هَذا خُلُقُ الزَمانِ[٥]

وقوله:

---

(١) القافية في العروض والأدب، (ص: ١٦٨).

(٢) الديوان، (٣٩٥/١)، دار المعارف.

(٣) موسيقى الشعر، (ص: ٣٣٨).

(٤) الديوان، (٢٩٨/٢)، دار المعارف.

(٥) نفسه، (٣٧١/٢).

سقى بلادا ضمت الإخوانا　　غيث يغطي نبته الحرانا

يترك في بلادها غدرانا

وربما كانت المحاولة الطريفة حقا لكسر حدة القافية، على الرغم من الإبقاء عليها هو ما يسمى بالتضمين " وفيه يتعلق معنى البيت بما بعده ولا يستقل بنفسه، وقد عابه رجال العروض وجعلوه مظهرا من مظاهر ضعف الشعر".[1]

ويبدو أن ابن المعتز الشغوف بكل جديد أراد أن يقلد أبا العتاهية في هذا المضمار والذي كان له السبق في مقطوعته التي يقول منها:

يا ذا الّذي في الحُبِّ يَلْحَى أمَا　　واللهِ لو كَلِّفْتَ منه لما

كَلفتُ مِنْ حُبِّ لـريم لَمَا　　لُمْتَ على الحُبِّ فذَرْني وما

أطَلْتَ إنّي لستُ أدْري بما　　بليتُ إلاّ أنّني بينَما

أنا بباب القَصْر في بَعْضِ ما　　أطْلُبُ مِنْ قصرهِمْ إذْ رَمَى

شبْهُ غَزالٍ بسهام فما　　أخطأ سَهْمَاهُ ولكنّما

عَيْناهُ سَهْمانِ لَـهُ كُلّما　　أرادَ قتلي بهِما سَلِما[2]

فجاء ابن المعتز ناسجا على هذا المضمار مزيدا عليه بقوله:

يا نَفْسُ وَيْحكِ طالَما　　أبْصَرْتِ مَوْعظةً وما

نَفَعَتْكِ فاخْشَيْ والتَهي　　وعليكِ بالتَّقوى كما

فَعَلَ الأُناسُ الصالحونَ　　وبادري فلرُبّما

سَلِمَ المُبادرُ فاحذَري　　يا نَفْسُ مِنْ شرٍّ كما

خُدِعَ الشَّقيُّ بمثْلِها　　إيّاكِ مِنْها كُلّما

---

(١) الموشح للمزرباني، (ص: ٤٠٥).

(٢) ديوان أبي العتاهية، (ص: ٦٣٨).

باحتْ مكائــدُها ضَــميرَ ... كِ إنّمــا هــيَ إنّمــا
تَفْنَـــــى أمانيهـــــا إذا ... حَضَرَ الــرَّدَى وكأنّمــا
لم تُمْنِ مَنْ لاقــى منيَّـــ ... ـــهُ فيــا عجبــاً أمَــا
في ذاكَ مُعْتَبَــــــــرٌ ولا ... شافٍ يُقَصِّرُ عــن عمَّــا
يا ذا المُنَــى يــا ذا المُنَــى ... عِشْ ما بدا لكَ ثُمّ مــا[1]

" وعلى الرغم من تقفية هذه القطعة إلا أنها لا يمكن إلا أن نقرأها قطعة واحدة متصلة، حيث ينعطف الكلام من بيت إلــى بيــت لاتصــال المعنى، حتى تصل إلى النهاية، وكأنها دفقة مستمرة فيمكن كتابة مقطوعة ابن المعتز على النحو التالي:

يا نفس ويحك طال ما أبصرت موعظة وما نفعتك: فاخشِ وانتــهِ وعليك بالتقوى، كما فعل الأناس الصالحون، وبادري فلربما سلم المبــادر واحذري يا نفس من سوف فما خدع الشقي بمثلها، إياك منها كلما ناجــت، كم قتلت وأهلكت النفوس، وقلما تغني أمانيها إذا حضر الردى، وكأنما لــم يحيي من لاقى منيته، فيا عجبا أما في ذاك معتبر ولا شاف يقصــر مــن عمى، يا ذا المنى يا ذا المنى: عش ما بداك ثم ما.

وقد كانت هذه التجربة حرية أن تؤدي إلى تجديد جــوهري فــي قالب القصيدة وفي بنائها الموسيقي منذ ذلك العصر، ولكن تعنــت النقــاد القدامى في هذا الصدد جعلها تتأخر اثنى عشر قرنا حتى تعود إلى الظهور في وقتنا الراهن باسم القصيدة المدورة، أو المستمرة ".[2]

---

(١) الديوان، (٤١٩/٢)، طبعة دار المعارف.
(٢) في الشعر العباسي الرؤية والفن، (ص: ٤٤٥).

وبعد هذا ينبغي أن نقول: إذا كان الوزن والقافيـة همـا عمـودا الموسيقى الشعرية كما أشير قبل ذلك " فإنه يكمن خلفهما أيضا موسـيقى خفية نجدها في اختيار الشاعر لكلماته ثم في قدرته علـى الملائمـة فـي الحروف والحركات حيث يضيف بمثل هذه الصنعة الخفية شيئا كبيرا إلى المعنى".(١) " فنجد الإيقاع الشعري نما من حركية تتابعات صـوتية تمثـل القيمة الصوتية الصغرى في اللغة العربية، وشكلت هذه التتابعات انطلاقـا حركيا انتهى بقرار موسيقي هو نهاية المد الصوتي في العربية".(٢)

" هذه الموسيقى الصوتية هو ما أطلق عليها " الموسيقى الداخلية " وهي التي تنشأ بالعناية بفنون البديع الصوتية وأعني بها الموسيقى الخفيـة التي لا نسمع رتيبها في السمع ولا نراها حرفا رتيبا ينتهي به البيـت، ولا تقسيمات متوازية في المخمسات والمزدوجات.. وغيرها من ألوان إبـداع العصر العباسي في موسيقى الشعر، ولكنها تعود إلى صـوت المشـاعر يستولي على الشاعر فتتراءى روحه في قصيدة، تلك الروح التي تعطـي للنص نبضه وحيويته في المجتمع وتجعل جماهير أمته تتعلـق بـه لأنـه صداها النفسي، ونظمها العاطفي".(٣)

ومن ذلك ما نجده عند ابن المعتز وهو يحاول أن يخلق موسـيقى في شعره مضيفا للوزن والقافية أنغاما موسيقية أخرى حتى يكتمل الإيقاع

---

(١) عضوية الموسيقى في النص الشعري: د. عبد الفتاح صالح، (ص: ٩١ – ٩٢).

(٢) في البنية الإيقاعية للشعر العربي: د. كمال أبو ديب، (ص: ٧١).

(٣) الشعر العباسي، التيار الشعبي: سعد شلبي، (ص: ١٨٣).

الموسيقي العام للقصيدة. فتزيد متعة السماع، فتواكب تطــور الموســيقى والغناء في هذا العصر.

فيقيم موسيقاه على التشطير أو حسن التقسيم وذلك مثل قوله فــي القصيدة التي يمدح فيها عليا بن أبى طالب:

رَأيتُ الحَجيجَ، فَقالَ العُــداةُ   سَبُّ عَليًّــا وَبَيــتَ الــنَبي
أآكُلُ لَحمي وَأحســو دَمــي   فَيا قَومِ لِلعَجَــبِ الأعجَــبِ
وَبَحرُ العُلومِ وَغَيظُ الخُصــومِ   مَتى يَصطَرِع وَهُــمُ يَغلِــبِ
مُجَلّي الكُروبِ وَلَيثُ الحُروبِ   في الرَهَجِ الساطِعِ الأهيَبِ(١)

" ويعتمد نغمه أحيانا، على التكرار الذي يكون لتأكيــد الثنــاء، أو العتاب والتهويل، وعندئذ يكون بالكلمة لفظا ومعنى".(٢) ومن ذلك قوله:

قمر نام في قصر   من نعاس ومن سكر(٣)

وقوله:

عَناءُ المُحبِّ طَويلٌ طَويلُ   وَصَبرُ المُحبِّ قَليلٌ قَليلُ(٤)

وقوله:

وإنْ كتمتُ الهوى أبدى الهوى نَظري   والقلبُ يَطوي الهوى والعينُ تنشُرُهُ(٥)

---

(١) الديوان، (٤٦١/١)، طبعة دار المعارف.
(٢) ابن المعتز صورة لعصره، (ص: ٢٨٦).
(٣) الديوان، (٣٥٧/١)، المعارف.
(٤) نفسه، (٤٠٦/١).
(٥) نفسه، (٣٧١/١).

" وحينا يتم التكرار بالكلمة يذكر ما يؤازره من التكرار الصوتي بنوع الصوت لا بالصوت ذاته كترداد السين والصاد – وكلاهما صوت مهموس لثوي احتكاكي، في قوله:

أَرَى أَعْيُنَ الأَعْداءِ قَدْ فَطِنَتْ بنا ... وَأَوْجَسَ سُوءَ الظَّنِّ مَنْ كَانَ ذَا أُنسِ
فَإِنْ مَنَعُوا مِنْ صورَةِ الْجِسْمِ صُورَةً ... فَفي النَّوْمِ تَلْقَى صُورَةُ النَّفْسِ للنَّفْسِ[1]

كما نجد ابن المعتز يعتمد على أنواع البديع من أجل خلق موسيقاه الشعرية وخاصة الطباق اللفظي والجناس والمقابلة.

فالطباق كثيرا ما يلجأ إليه الشاعر للتعبير عما يريده من التضاد وهو يصنع يقظة موسيقية عند السامع. ومن ذلك قوله:

يميت بطرفه طورا ويحيي ... ويشكو السقم من حدق صحاح[2]

قوله:

كَأَنَّ في الراحِ حينَ تَمزُجُها ... نُجومَ دُرٍّ تَهوي وَتَنخَفِضُ[3]

والمقابلة وهي جمع عدة أشياء متضادة في البيت الواحد أو في الشطرين وجاء منها شيء غير قليل فى شعر ابن المعتز. يقول:

بالأمس حي، واليوم ميت ... يا قرب عهد، وبعد بين[4]

قوله:

ونهار شيب الرأس يوقظ من ... قد كان فى ليل الشباب رقد[5]

---

(١) ابن المعتز صورة لعصره، (ص: ٢٨٧)، الديوان، (ص: ٣٨٥/١)، المعارف.

(٢) الديوان، (٨٠/٢)، طبعة بغداد.

(٣) الديوان، (١٦٧/٢)، بغداد.

(٤) الديوان، (١٠٤/٣)، بغداد.

(٥) نفسه، (٣٠٨/٢).

وقوله:

مخطفات الأوائل مثقلات الأواخر[١]

وقد تعتمد الموسيقى الداخلية على الجناس " وهو أكثر صعوبة وأعسر منالا من الطباق فهو بحاجة إلى ثروة لفظية كبيرة وقدرة بيانية وملكة شاعرة، وصعوبته تتأتى من التشابه بين حروف اللفظتين والاختلاف في معناهما، ومن أجل هذا كان وروده في شعر كثير من الشعراء قليلا إذا ما قيس بالطباق مثلا ".[٢]

وتهيأ لابن المعتز بما رزق من موهبة وشاعرية أن يأتي بالكثير الحسن منه في خلال شعره، كقوله:

وَاسْقِنِي مِنْ سُلافَةِ الكَرْمِ رِيًّا إنَّ لِلْرَّاحِ رَاحَةً لِلقُلُوبِ[٣]

وقوله:

فَانظُر بِعَينِ الرِضا مِنّي إِلى بَدَنٍ ما فيهِ جارِحَةٌ إِلّا وَقَد جُرِحَت[٤]

---

(١) نفسه، (١/٢٧٢)، بغداد.

(٢) شعر ابن المعتز، دراسة وتحقيق، القسم الثاني، (ص: ٣١٣).

(٣) الديوان، (٢/٤١)، بغداد.

(٤) نفسه، (١/ ٢٣٦)، بغداد.

أسلوبه ولغته

" كان من أثر الحضارة رقة الطباع، وتهذيب المشـاعر، وصـقل الأذواق، وتبعا لذلك رقت حاشية الكلام، ولانت مقاطع الشعر خاصة، فهو في مجال الجمال، وموطن التأنق والتظرف، وهو أيضا موضـوع (فـن الغناء) الذي يتطلب اللفظ الرشيق، والقول الأنيق والعبارة السـمحة التـي تساير طبيعة العصر، وأذواق العصر". [١] " فقد تأثر أسلوب الشعر بحيـاة الترف والغناء، فرق، وسهلت ألفاظه، وكان موضوعا للسمر في مجـالس الخلفاء والظرفاء ومادة للتسلية والمتعة ويتناشده القوم في ساعات الصـفو وفي مجالات اللهو". [٢]

" ولكننا إذا رجعنا إلى شعر ابن المعتز وتأملناه رأينا أنـه يمثـل أسلوبين مختلفين كل الاختلاف يصطنع الشاعر أحدهما إذا تحـدث عـن الشراب والغناء والأزهار والفواكه والرياحين وما إلى ذلـك. ويصـطنع الآخر إذا تحدث عن السياسية والاجتماع وما يمت إليهما بصفة". [٣]

والنظرة العامة إلى شعر ابن المعتز تقودنا إلى الحكـم بسـهولة لفظه، وانسياب أساليبه، فى يسر من غير إغراب، ويؤكد هذا ما قال فـي الغزل والخمر ومجالس الأنس، وما قال في الزهد والشكوى والعتاب. وما

---

(١) معالم الشعر وأعلامه: د. محمد نبيه حجاب، (ص: ١١٤).

(٢) دراسات في الأدب العربي (العصر العباسي) : د. محمد زغلول سلام، (ص :٢١٦).

(٣) في الأدب العباسي: ذ. محمد مهدى البصير، (ص :٣١٩).

أنشد في الرثاء أو الهجاء ونظم التاريخ، ولكن إذا وضعنا بجوار ذلك مديحه وفخره أدركنا تفاوتا بين أسلوبه في هذين الغرضين وأسلوبه فى سائر أغراضه".[1] ولعل هذا أوحى لأبي الفرج الأصفهاني بقوله:" وشعره وإن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين، فإن فيه أشياء كثيرة تجري في أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين، وأشياء ظريفة من أشعار الملوك في جنس ما هم بسبيله، ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية ".[2]

والحق أن السهولة والوضوح وتحاشي التعقيد والالتواء هي طابع أسلوب شعر ابن المعتز عامة، وهي وليدة طبعه السمح وبيئته المترفة. فتلين ألفاظه حتى تكاد تكون حديثا عاديا، فيه ملاحة العصر وظرفه وذوق الحضارة التي ينتمي إليها. فيقول في الغزل مثلا، في ألفاظ خلابة جميلة بفهمها العامة والخاصة:

لا وَرُمّانِ النُهودِ ... فَوقَ أغصانِ القُدودِ
وَعَناقيدَ مِنَ الصُدْ ... غِ وَوَردٍ مِن خُدودِ
وَوُجوهٍ مِن بُدورٍ ... طالعاتٍ مِن سُعودِ
وَرَسولٍ جاءَ بِالمي ... عادِ مِن بَعدِ الوَعيدِ
وَنَعيمٍ في وِصالٍ ... حُلَّ مِن طولِ الصُدودِ
ما رَأَت عَيني كَظَبيٍ ... زارَني في يَومِ عيدِ[3]

---

(١) ابن المعتز العباسي، صورة لعصره: د. سعد إسماعيل شلبي، (ص: ٢٦٢).

(٢) الأغاني: لأبى الفرج الأصفهاني، (٢٧٤/١٠).

(٣) الديوان، (٤٩٢/١)، طبعة دار المعارف.

ويقول في الغزل أيضا:

قَدْ صادَ قَلْبي قَمَـرُ يَسْـحَرُ منـهُ النَّظَـرُ
وَقَدْ فُتِنْتُ بَعْـدَكُمْ وَضَـاعَ ذَاكَ الحَـذَرُ
بوَجْنَـةٍ كَأَنَّمـا يَطِـيرُ منهـا الشَّـرَرُ
ضَـعِيفَةٌ أَجْفانُهـا وَالْقَلْبُ منهـا حَجَـرُ
كَأَنَّمـا أَلْحاظُـهُ مِـنْ فِعْلِـهِ تَعْتَـذِرُ
أَلْحُسْنُ فِيهِ كامِـلٌ وَفِي الْوَرَى مُخْتَصَرُ[1]

أو لغته العذبة التي تأخذ بالألباب مع كؤوسه ودنانه. يقول:

أدرِ الكـأسَ علينـا أيُّها الساقي لنطـرَبْ
ما ترى الليـلَ تـولّى وضياءَ الصُّبحِ يَقـرُبْ
والثُّريَّـا شِـبهُ كـأسٍ حينَ تبـدو ثم تغـرُبْ
فكأنَّ الشـرقَ يسـقي وكأنَّ الغربَ يشربْ[2]

وأحيانا نرى لغته الخاطب العادية كما نرى في قوله لبعض زملائه أثناء مرضه بالحمى، ويظهر أنه قالها عقب انتهاء شهر رمضان واستقبال عيد الفطر. يقول:

هنيئا لكـم الفطـر وحث الكأس والسكر
وظل الكرم والحانات والأشـجار والزهـر
وضجات من القصف ونفخ النـاي والنقـر
وفرش من ريـاحين إذا مـا أوقـد الحـر

---

(١) نفسه، (٣٥٣/١).
(٢) الديوان، (٢١٨/٢)، طبعة دار المعارف.

وخيل مـــن زواريـــق إذا ما حانت العصـــر
وتجميش وتقبيـــــل إذا ما جاذب الخصر[١]

هذا ورغم هذه السهولة والرقة التي تغلب على شعر ابن المعتز إلا أنه يرتفع بأسلوبه حينا حتى نظن أننا نقرأ لشاعر جاهلي أو أموي، وذلـك مثل قوله:

هاتيك دَارُهمُ فعرِّجْ واسْـأَلِ مَقْسُومَةً بينَ الصَّبَا والشَّـمْألِ
فكأنّنا لم نَغْنَ بـينَ عرَاصِـهَا في غِبْطَـةٍ وكأنّهَـا لم تَحْلُـلِ
لَجَّتْ جُفونُك بالبكاءِ فخَلّها تَسْفَحْ على طَلَلٍ لشرةَ مُحْـوِلِ

وبعد هذه الوقفة على طلل " شرة " يحدثنا عن رحلته في الصحراء علـى ناقته وكأنه النابغة الذبياني أو لبيد بن ربيعة:

وَلَرُبَّ مُهلكَةٍ يَحارُ بها القَطا مَسجورَةٍ بالشَمسِ خَرقٍ مُجهَلِ
خَلّفتُها بشِملّةٍ تَطَـأُ الـدُجى مُرتاعَةِ الحَرَكاتِ جلسٍ عَيطَـلِ
تَرنُو بناظِرَةٍ كـأنَّ حَجَابَهـا وَقْبٌ أنافَ بشـاهقٍ لم يُحْلَـلِ
وكأنَّ مَسْقَطَها إذا ما عَرَّسَتْ آثارُ مَسْقَطِ سـاجِدٍ مُتَبَتِّـلِ[٢]

وينبغي ألا نعجب عندما " نرى الشاعر يظهر بمظهر بعيـد عـن حياة القرن الثالث وترفه ولهوه وعذوبة الشعر ورقته فيه، وليس ذلك ببعيد على ابن المعتز هو الشاعر الذي تتلمذ على المبرد وثعلب وقـرأ أشـعار القدماء والإسلاميين، وتأدب بها منذ طفولته الأولى، فالجزالة فـي شـعره ترجع إلى روحه العربية، ولون ثقافته الأدبية الأولى، وإلى موضـوعات

---

(١) الديوان، (١٧٦/٢)، طبعة دار المعارف.
(٢) الديوان، (٢٨٣/١).

الشعر التي تناولها والتي لا يليق بها إلا الجزل من الأساليب كالفخر والعتاب والمدح والطرد، وإلى معارضته للقدماء من الشعراء في أساليبهم وقصائدهم، وهو مع ذلك في جزالته عذب الأسلوب حلو التعبير والأداء".[١] ولا عجب أيضا في أن ينهج الشاعر نهج الأسلوب القديم في بعض قصائده. وذلك لأن التراث رافد أساسي من روافد الحضارة فلابد أن يظهر فيها ولكن بعد أن يجمل ويهذب.

ومن البديهي كذلك " أن نجد الشاعر في شعر الطرد وفي وصف الصحراء وظواهرها الطبيعية المختلفة، وفي وصف الرحلة والناقة والفرس أن نجده قد فتح خزائن المعجم الشعري وتراكيبه التقليدية الجاهزة، وراح ويستمد منها ما يسعفه وبعبارة أخرى نقول: إن الشاعر يضع نفسه عند ذاك في عالم الشعر القديم من حيث الموضوع ومن حيث وسائل التعبير.. ومن هذه التراكيب التقليدية الجاهزة ما يلي: ألا أيها الربع، خليلي، سقى الله – أبى الله إلا – فتلك دارهم – كأن المطايا – ما حنت الإبل – عذون بسحرة – ما أنس لا أنسى – رسيس الهوى – الأرب يوم – عفته الريح – الربيع المحيل".[٢]

ومن استخدامات ابن المعتز لهذه التراكيب:

– كأن المطايا إذْ غدونَ بسحرة ... تركنَ أفاحيص القطا في المبارك[٣]

– سَقى اللّهُ أَهلَ الحِمى وابِلاً ... سَفوحاً وَقَلَّ لِأَهلِ الحِمى[٤]

---

(١) ابن المعتز وتراثه. د. محمد عبد المنعم خفاجي، (ص: ٢٢٦).

(٢) في الشعر العباسي، الرؤية والفن:د.عز الدين إسماعيل، (ص: ٤٢٢).

(٣) الديوان، (١/٢٧٥)، معارف.

(٤) نفسه، (١/٢١٨).

- أَبى اللَّهُ إِلّا ما تَرونَ فَما لَكُم عِتابٌ عَلى الأَقدارِ يا آلَ طالِبِ(١)
- خَليلَيَّ هَذي دارُ شُرَّةَ فَاسأَلا مَغانيَها لَو كانَ ذاكَ يُعيدُها(٢)
- وَيا رُبَّ يَومٍ لا تُوارَى نُجومُهُ مَدَدتُ إِلى المَظلومِ فيهِ يَدَ النَصرِ(٣)
- ما أنس لا أنسي إذ قامت تودعنا بعمله دمعها فى حفنها غرق(٤)
- عَرِّج عَلى الدارِ الَّتي كُنّا بِها تَغَيَّرَت مِن بَعدِ عَهدِنا بِها(٥)
- وَقَد أَغتَدي مِن شَأنِ نَفسي بِسابِحٍ جَوادٍ كُمَيتِ اللَونِ يُعجِبُ إِعجابا(٦)
- وإنني مقفل الضاير عن حب سواهم ساحنت الإبل(٧)
- أَلَم تَحزَن عَلى الرَبعِ المُحيلِ وَأَطلالٍ وَآثارٍ مَحولِ(٨)
- عفته الريح بعدك كل يوم وجالت فيه أعناق السيول

ومن أثر الحضارة أيضا أن ألفاظ شعر ابن المعتز وغيره من الشعراء قد طعمت بشيء مما كان شائعا في ذلك العصر من الألفاظ الأعجمية، والتي صارت تجري على ألسنة الناس في عفوية. فنجد في شعره ألفاظا منقولة عن الفارسية منها: النرجس، والنسرين، والمسك،

(١) نفسه، (٢٣٦/١).
(٢) نفسه، (٢٤٨/١).
(٣) نفسه، (٢٥٤/١).
(٤) نفسه، (٢٧٣/١).
(٥) نفسه، (٢٣٠/١).
(٦) نفسه، (٢٢٥/١).
(٧) نفسه، (٢٧٥/١).
(٨) نفسه، (١/ ٢٨٢).

والعنبر. الجوز واللوز. الفالوذج. الديباج. السندس. الطيلسان. المهرجان. والنيروز.. وكلها مما يخص الحضارة المادية:

ومن ذلك قول ابن المعتز في السندس:

وَكَأَنَّ نَشرَ الأَرضِ بالـ ... أَنـوارِ حـينَ تَلَحَّفـا
مَلِـكٌ عَلَيـهِ جَـوهَرٌ ... في سُندُسٍ قَد أُكنِفـا[1]

وقوله في الإفريز وهو (طنف الجدار):

بُليـتُ بَعـدَ شَـيبِه ... بِضـابِطٍ عَزيـزِ
وَأَنفُـهُ كَسُـترَةٍ ... تُحشى مِنَ الإِفريـزِ[2]

والجلنار في قوله:

وَيَخجَلُ إِذ يُلاقيني كَأَنّي ... أُنَقِّطُ خَدَّهُ بِالجُلَّنارِ [3]

والديباج:

وَإِذا بَدا تَحتَ الرِحالِ حَسِبتَهُ ... مُتَسَربِلاً ثَوبًا مِنَ الديباجِ[4]

وفي (البردست) وهو العود. يقول:

مِن عَذيري مِن صاحِبٍ خادِعٍ ... الوَعدِ وَهَذا مِنَ الأَخِلّاءِ بَختي
أَبَداً ماشِيًا وَيَسحَبُ نابًا ... بِسِواكٍ كَمِضرَبِ البَردَستِ[5]

ويقول:

---

(١) الديوان، (١/٢٨٩)، طبعة بغداد.
(٢) نفسه، (٢/٣١٦).
(٣) نفسه، (٣/١٧٤).
(٤) نفسه، (١/٢٧٥).
(٥) نفسه، (٢/٣٦٤).

بَخيـــلٌ قَـــد شَـــقيتُ بِـــهِ   يَكُـــدُّ الوَعـــدَ بِـــاللَجَجِ
عَلـــى بُســـتانِ خَدَّيـــهِ   زُرافـــينَ مِـــنَ السِـــبَجِ (١)

وفي (النيلوفر)، يقول:

وَبِركَةٍ تَزهو بِنَيلوفَرٍ   أَلوانُهُ بِالحُسنِ مَنعوتَه(٢)

وفي الشطرنج:

وَحيطانٍ كَشِطرَنجٍ صُفوفٍ   فَما تَنفَكُّ تَضرِبُ شاهَ ماتا(٣)

ويقول:

وانظر إلى حسنِ الهلالِ كأنهُ   نونٌ مذهبةٌ على فيروزج(٤)

ويقول:

وَغَدَت كَجُلمودِ القِذافِ يُقِلُّها   وافٍ كَمِثلِ الطَيلَسانِ المُخمَلِ(٥)

كما نجد في شعره بعض الكلمات المنقولة عن اللغة اليونانية والتي مست إليها الحاجة وخاصة فيما يتصل بعلوم الفلسفة والمنطق. يقول مثلا:

تَلَقّاها لِكِسرى رَبُّ كَرمٍ   يُعَدُّ مِنَ الفَلاسِفَةِ الكِبارِ(٦)

ويقول:

---

(١) نفسه، (٢٤٧/١). والسبج: فارسي "شبه" وهو حجر أسود يصنع من الخزز. تفسير الألفاظ الدخيلة: طوبيا العينس، (ص: ٣٤). الزرافين: بالضم والكسر: حلقة الباب معرب وقد زرفن صدغيه جللها كالزرفين (شفاء العليل فيما في كلام العرب من الدخيل) (ص:١٤١).

(٢) الديوان، (١٩٧/١)، طبعة بغداد.

(٣) نفسه، (١٩٥/٢).

(٤) نفسه، (٢٥١/٣).

(٥) الديوان، (٢٨٤/١)، طبعة المعارف.

(٦) نفسه، (٣١٨/١).

أتحتُ لَهُ فَأيقَنَ إذ رَآني ... بقانونِ الحُكومَةِ وَالخِطابِ[١]

ويقول:

وَقد أتانا بِبَراهينِه ... وَما نَرى البُرهانَ في حُجَّتِه[٢]

ويقول:

ومدح أفلاطون والفلاسفة ... وساعدته في هواه طائفه[٣]

كما ظهرت في شعره بعض الألفاظ العلمية مثل مصطلح (الغريب) و (النحو) كما في قوله:

يَستَعمِلُ الغَريبَ في خِطابِه ... وَغامِضاتِ النَحوِ في كِتابِه[٤]

وكذلك يستخدم المصطلحات الخاصة بعلم الفلك مثل (تربيع النجوم – التعديل – الإقامة – طول الأرض.. يقول:

وَلا تَفزَعَن مِن كُلِّ شَيءٍ مُفَزِّعٍ ... فَما كُلُّ تَربيعِ النُجومِ بِضائِرِ[٥]

ويقول في أرجوزته التاريخية:

وَذَكَرَ السُعودَ وَالنُحوسا ... وَالجَوهَرَ المَعقولَ وَالمَحسوسا

وَذَرعَ طولِ الأَرضِ وَالأَفلاكِ ... وَكَم بِلادِ الصينِ وَالأَتراكِ

وَالعَرَضَ الظاهِرَ في التَجسيمِ ... وَالقَولَ في طَلائِعِ النُجومِ

وَذَكَرَ التَعديلَ وَالإِقامَه ... وَقَدَّموا النِظامَ أَو تَمامَه[٦]

---

(١) نفسه، (٢/٢١٦).

(٢) نفسه، (٢/٢١٣).

(٣) نفسه، (١/٢١٧).

(٤) نفسه، (١/٤١٨).

(٥) الديوان، (٢/١٩٥)، بغداد.

(٦) نفسه، (٢/١٦).

" وأيضا دخل فى معجم الشاعر كثير من مصطلحات علم الكـلام وذلك نتيجة لما أشاعه المعتزلة في المجتمـع – حتـى علـى المسـتوى الشعبي– من أفكار، وما كان ينعكس في مجال الشعر من الجـدل الـذي ملاؤا به حياة الناس".[١] فنجد ألفاظ، الشك واليقـين، والبـاطن والظـاهر والقديم والحديث وغيرها. فيقول ابن المعتز في وصف الخمر مثلا:

فَقَد خَفِيَت مِن صَفوِها فَكَأَنَّها   بَقايا يَقينٍ كادَ يُدرِكُهُ الشَكُّ[٢]

وقوله:

صَفَت وَصَفَت زُجاجَتُها عَلَيها   كَمَعنىً دَقَّ في ذِهنٍ لَطيفِ[٣]

وقوله:

أَطَلتَ وَعَذَّبتَني يا عَذولُ   بُليتُ فَدَعني حَديثي يَطولُ
هَوايَ هَوىً باطِنٌ ظاهِرٌ   قَديمٌ حَديثٌ لَطيفٌ جَليلُ[٤]

وبين ذلك المعجم التقليدي وهذا المعجم الحديث لا يفوتنا أن نلاحظ دوران قدر غير يسير من المعجم القرآني في أشعار العباسيين، على أنـه ليس لنا – ابتداء – أن نستدل من هذه الظاهرة بحال من الأحـوال علـى نزعة إلى التدين لدى شعراء ذلك العصر؛ لأن الظـاهرة مشـتركة لـدى شعراء مثل أبي العتاهية من جهة وأبي نواس من جهة أخرى، والأمر في تصورنا لا يعدو أن يكون دليلا على جانب من جوانب ثقافة الشعراء فـي

---

(١) في الشعر العباسي، الرؤية الفنية: (ص: ٤٢٤).
(٢) الديوان، (٣٨٤/٢)، بغداد.
(٣) نفسه، (٢٨٩/٢).
(٤) نفسه، (٢٦٥/٢).

ذلك العصر. وقد كان حفظ القرآن لدى الأكثرية منهم أول مرحلة من مراحل التحصيل".[١]

ويتأثر ابن المعتز بالمعجم الإسلامي تأثرا ظاهرا. مما ينم عن ثقافته الإسلامية الواسعة فنراه يقول:

– ألا إنّما الدُّنيا بَلاغٌ لغايَةٍ   فإمّا إلى غَيٍّ وإمّا إلى رُشدِ[٢]

– وَجاءَ إليَّ شَيطاني   يُحَرِّشُني عَلى القَدَرِ

– وَحاوَلَ كَفرَةً مِنّي   وَجَرَّأني عَلى سَقَرِ[٣]

فنراه قد استخدم الغي والرشد، الشيطان، القدر الكفر، سقر وكلها ألفاظ إسلامية.

كما يتأثر بالمعاني القرآنية في قوله:

خَفِ اللّهَ إنَّ اللّهَ لَيسَ بِغافِلٍ   وَلا بُدَّ مِن يُسرٍ إذا ما انتَهى العُسرُ[٤]

في الشطر الأول متأثر بقوله تعالى:" وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ".[٥]

وفي الشطر الثاني متأثر بقوله تعالى:"سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا"[٦]

وكذلك قوله:

سَأَكتُمُ حاجاتِيَ عَنِ الناسِ كُلِّهِم   وَلَكِنَّهـا لِلّـهِ تَبـدو وَتَظهَـرُ

---

(١) في الشعر العباسي: الرؤية والفن، (ص:٤٣٠).

(٢) الديوان، (٢/٤٥٦)، بغداد.

(٣) نفسه، (٢ / ٢٧٥).

(٤) نفسه، (٢/٤٦٧).

(٥) سورة إبراهيم، (الآية: ٤٢).

(٦) سورة الطلاق، (الآية: ٧).

لِمَن لا يَرُدُّ السـائلينَ بخَيبَـةٍ   وَيدنو مِنَ الداعي وَيُعطي فَيُكثِرُ[١]

متأثر بقوله تعالى:" وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْـوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ".[٢]

وكذلك نراه يستخدم المصطلحات الإسلامية مثل الفقه، الحـديث، الكبائر، الفرائض. يقول:

وَطَعَنوا في الفُقهِ وَالحَديثِ   وَعَجِبوا مِن مَيِّتٍ مَعبودِ[٣]

وقوله:

وَدينُكَ أَن لا تَتَّقي سائِلاً بَلا   فَإِن قُلتَها لي فَهيَ إِحدى الكَبائِرِ[٤]

وقوله:

فَمَن يَقضي إِذا كانَ اختِلافٌ   وَيَستَأدي الفَرائِضَ وَالحُقوقا[٥]

وكذلك يستخدم التراكيب الإسلامية مثل (أستودعك الله) (وحسـبي الله)، يقول:

أَستَودِعُ اللَهَ حَبيبًا نَأى   ميعادُ دَمعي أَبَدًا ذِكرُهُ [٦]

وقوله:

لُمتَني يا مُسيءُ وَالذَنبُ ذَنبُك   وَيحَ نَفسي حَسيبُكَ اللَهُ رَبُّك[٧]

---

(١) الديوان، (٤١٨/٢)، بغداد.

(٢) سورة البقرة، (الآية: ١٨٦).

(٣) الديوان، (٥١٧/٢)، بغداد.

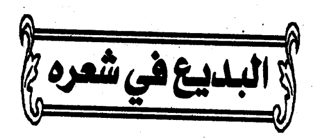
(٤) نفسه، (٥٢٦/٢):

(٥) نفسه، (٣١٧/١).

(٦) نفسه، (٢١٣/١).

(٧) نفسه، (٢٤٨/١).

وبذلك نجد أن شعر ابن المعتز العباسي تأثر بلغة الحضارة الإسلامية، سواء لغة الدين الإسلامي، أو لغة أمم أخرى انصهرت في الأمة الإسلامية أو لغة الحركة العلمية، فجاء شعره خير معبر عن الحضارة الإسلامية في القرن الثالث الهجري.



البديع في شعره

نشأ ابن المعتز في عصر فشا فيه البديع وأصبح شغل الكثير من الشعراء، وغالى فيه بعضهم غلوا شديدا حتى أحال الشعر إلى غموض وتعمية. غير أن هذه المغالاة لم تلق إحساسا ولا رضا عند الكثير من أدباء العصر وشعرائه.

وكان ابن المعتز أعنف من حمل على هذه المغالاة في مهاجمته لأبي تمام، فألف كتاب "البديع" كأول كتاب يتناول تلك المحسنات البديعية، ويشير فيه إلى أن هذه المحسنات موجودة من قبل أبي تمام ومسلم بن الوليد وذلك في القرآن والحديث وفي أشعار العرب القدامى وإن كانت بغير مسميات. يقول في مقدمة كتابه:" قد قدمنا في كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن والفقه وأحاديث رسول الله (ﷺ) وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع، ليعلم أن بشارًا ومسلما وأبا نواس ومن تقبلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه. ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه فأحسن بعض ذلك وأساء في بعض وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف".[1]

---

(١) كتاب البديع: لعبد الله بن المعتز، (ص: ١).

" وفي اعتقادنا أن ابن المعتز قد أسهم بهدفه هذا ومنهجه ذلك في الصراع الفكري الذي دار منذ أواخر القرن الثاني للهجرة بشأن الأصالة والتقليد في الدراسات البلاغية والنقدية فحسم الصراع في ضوء المشاهد الغزيرة من عيون الأدب العربي لصالح الأمة العربية وأثبت أن هذه الشواهد أصيلة وأن دراستها في الميدان التطبيقي عربية أصيلة أيضا".[١]

"وبهذا اشتدت علاقة ابن المعتز بالتراث فازداد حرصه على العودة بالبديع إليه وعرضه عليه معتمدا في ذلك على ظروف واقعه السياسي الذي منحه كثيرا من وقته وأخلصه للشعر والأدب قبل أن يقع عليه عبء الخلافة أو تشغله مشاكل انتقالها إليه، كما اعتمد على دقة إلمامه بمصادر ثقافته وفكره، الأمر الذي ظهر في شعره واضحا، وهو ما يمكن رؤية جوانب منه فيما استلهمه من الحس الإسلامي العام، أو تأثره المباشر بالقرآن الكريم والحديث الشريف، أو ما استوحاه من القصص القرآني والقصص التاريخي، أو ما ضمنه شعره من الأمثال العربية وما ورد فيها من ترديد الأسماء التراثية للشعراء".[٢]

ورغم أن ابن المعتز هاجم أصحاب الإسراف في البديع إلا أن شعره لم يخل منه، ولكنه جاء جميلا لطيفا لا أثر للكلفة في عامته.

وأكثر ما اهتم به الشاعر من أنواع البديع، الطباق والجناس والمقابلة.

والطباق هو الجمع بين الشيء وما يقابله في الكلام مثل قوله:

---

(١) بناء الصورة الفنية في البيان العربي: د. كامل حسين البصير، (ص: ٣٠).

(٢) القصيدة العباسية: د. عبد الله التطاوي، (ص: ١١٩).

كأنّ في الكأسِ حينَ تَمزُجُهُ نجومَ رجمٍ تعلو وتنخفِضُ[١]

وقوله:

لَقَد شدَّ مُلكَ بَني هاشمٍ وَأبدَلَهُ بالفَسادِ الصَلاحا[٢]

وقوله:

فظل يناجي شح نفسي وجودها فطورا بها صعبا وطورا بها سهلا [٣]

والمقابلة: هي جمع عدة أشياء متضادة في البيت الواحد أو في أحد الشطرين. وهي في الحقيقة اتساع للمطابقة وذلك كقوله:

وَنَهارُ شَيْبِ الرَّأسِ يُوقِظُ مَنْ قَدْ كانَ في لَيْلِ الشَّبابِ رَقَدْ[٤]

وقوله:

فَأمامي المُرُّ من عُمُري وَوَرائي مِنهُ ما طابا[٥]

وقوله:

إذا ما قَلَّ مالي قَلَّ مَدحي وَإن أثرَيتُ عادوا في امتِداحي[٦]

الجناس: وهو تشابه اللفظين في النطق (تشابها كاملا أو مقاربـــا) مع اختلافهما في المعنى، مثل قوله:

– واعتضد الدين والدنيا بمعتضد بالله في الله ما أعطى وما منعا[٧]

---

(١) الديوان، (١٦٧/٢)، طبعة بغداد.

(٢) نفسه، (٧٤/٢)، بغداد.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه، (٣٠٨/٢).

(٥) نفسه، (٩٨/٢).

(٦) نفسه، (١٥٤/٢).

(٧) الديوان، (٤٧٤/١)، بغداد.

- فَهَل لَكَ في أن تُعيدَ الوِصا ... لَ فَالعَودُ أحمَدُ يا أحمَدُ[١]

وكذلك نجد في شعره الكثير من التلميحات والتي في معظمها مأخوذة من القرآن الكريم مما يدل على ثقافة ابن المعتز الإسلامية الواسعة.

" والتلميح: هو أن يشير ناظم هذا النوع في بيت أو قرينة سجع إلى قصة معلومة، أو نكتة مشهورة، أو بيت شعر حفظ لتواتره، أو إلى مثل سائر يجريه في كلامه على جهة التمثيل. وأحسن التلميح وأبلغه ما حصل به زيادة في المعنى المقصود، وسماه قوم التلميح بتقديم الميم، كان الناظم أتى في بيته بنكتة[٢] والتلميح لا يتأتي إلا لذوي الثقافة الواسعة. ومن تلميحات ابن المعتز، قوله:

وَمَشمولَةٍ قَد طالَ بِالقَفصِ حَبسُها ... حَكَت نارَ إبراهيمَ في اللَونِ وَالبَردِ[٣]

وهو يشير في ذلك إلى قصة حرق إبراهيم عليه السلام ويقول أيضا مشيرا إلى قصة بلقيس ملكة سبأ:

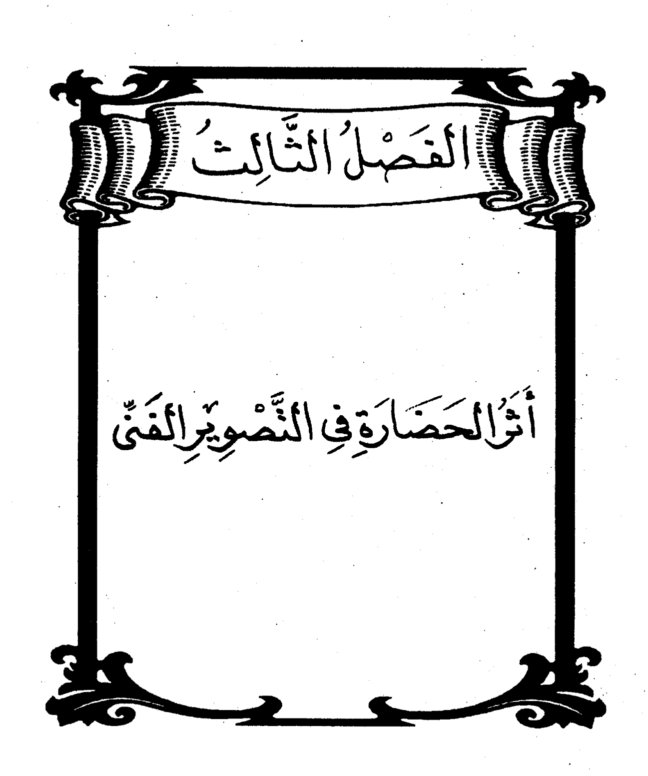
ظَبيٌ يَرى طَرفَهُ فَيَرجُمُهُ ... وَهوَ سِوى ذاكَ لَيثُ عِرّيسِ

---

(١) نفسه، (٢ / ٢١٧).

(٢) علم البديع: د.عبد العزيز عتيق، (ص: ٣٥).

(٣) الديوان، (٣٤٩/٢).



الفصل الثالث

أثر الحضارة في التصوير الفني

" الصورة الفنية سمة بارزة من سمات العمـــل الأدبـــي وإحـــدى المكونات الأصيلة لبناء القصيدة، ولا يخلو عمل شعري من التصوير. وقد اتسع مفهوم الصورة ليحوي ما هو أبعد من الوسائل البلاغية المعروفـــة، فكان في كل تعبير أدبي تصوير فني ينبعث من مقدرة الشاعرعلى تركيب عباراته وتنسيق كلماته وعلى قدرته في استنباط الإيحاء الفني الكامل فـــي باطن الألفاظ وفي علاقاتها بعضها مع البعض فيكسو التعبير جمالا فنيا."(١)

" والصورة واحدة من الأدوات الأساسية التي يستخدمها الشاعر في بناء شعره، وتجسيد الأبعاد المختلفة لرؤيته الشعرية، إنها الوسيلة الفنيـــة الجوهرية لنقل التجربة، فما التجربة الشعرية كلها إلا صورة كبيـــرة ذات أجزاء، هي بدورها صور جزئية تقوم من الصورة الكلية مقام الحـــوادث الجزئية من الحدث الأساسي في المسرحية والقصة، وبواســطة الصـــورة يشكل الشاعر أحاسيسه وأفكاره، في شكل فني ملموس وبواسطتها أيضـــا يشكل رؤيته الخاصة للوجود وللعلاقات الخفية بين عناصره".(٢)

" والفنان لا يدرك الحقيقة إدراكا حسيا، ولا يدركها إدراكا عقليـــا، وإنما هو يدركها بصورة محسوسة، فالعنصر الحسي يحرك طاقة الخيـــال لدى الفنان، وبعمل الخيال يدرك الحقيقة لا كموضوع ولا كفكـــرة وإنمـــا

---

(١) الصورة الفنية في شعر دعبل الخزاعي. د. علي إبراهيم أبو زيد، (ص : ٢٤١) .
(٢) النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال ، (ص : ٤٤٣) .

يدركها في صورة".[1] " فالصورة تعبر عن تجربة الشاعر الفنية التي يرمز بها للواقع كما يتخيله، وقد لا تسعفه الألفاظ في اللغة العادية، فيرى نفسه مدفوعا بثورة خياله إلى تشكيل علاقات لغوية خاصة يؤلفها بخياله المبدع ليعبر عن رؤية خاصة به".[2]

"ولعل أبسط دلالة لكلمة الصورة، وأقربها إلى الأذهان هو دلالتها على التجسيم، أو على الأشياء القابلة للرؤية البصرية"[3] "فتستعمل كلمة الصورة – عادة – للدلالة على كل ماله صلة بالتعبير الحسي، وتطلق أحيانا، مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات".[4]

" ولكن الحق أن الصورة ينبغي ألا تبدو تمثيلا مصورا جامدا وإنما يجب أن تنبض بالفكر والعاطفة معا، وأن تقدم لنا مركبا عاطفيا، إذ التعبير العام في ألفاظ خاوية كسل، إنه مجرد حديث، وليس فنا ولا إبداعا".[5]

ويذكر د. محمود الربيعي مجموعة من تعريفات نقاد الغرب للصورة في مجال نقده للشعر، منها ما يؤكده "جونسون" حيث هي (جمع المتعة إلى الحقيقة حيث يدعى الخيال لمساعدة المنطق وجوهرها الابتكار، ويذكر " جون ستيوارت مل": أنها الكلمات التي تحل العاطفة نفسها فيها بطريقة تلقائية، ويقصد بها "ما كولاي": فن استخدام الكلمات بطريقة تلقي فيها خداعا على الخيال، والفن الذي يصنع بالكلمات ما يصنعه الرسام

---

(١) التركيب اللغوي للأدب، د. لطفي عبد البديع ، (ص : ١٩٢).

(٢) الصورة الفنية في شعر دعبل، د. علي إبراهيم أبو زيد ، (ص :٢٤١) .

(٣) التعبير البياني، د. شفيع السيد، (ص : ١٣٩) .

(٤) الصورة الأدبية: د. مصطفى ناصف، (ص: ٣).

(٥) التعبير البياني، (ص:١٤٠) وما بعدها.

بالألوان، ويسميها " كارليل" الفكر الموسيقي، ويراها "إدجار آلان بو": حلقا موقعا للجمال. ويركز "راسكين" على دور العاطفة فيها: حيث يقوم بإرساء ركائز نبيلة للعواطف النبيلة عن طريق الخيال.(١)

وأخيرا لعلنا نصل إلى مفهوم مبسط للصورة وذلك إذا قلنا:" إن الصورة تعبير ينقل شعور الشاعر وأفكاره معتمدا على التجسيد لا على التصريح ولا على التجريد وقد يتحقق ذلك في تعبير كامل أو في لفظة واحدة. وقد يكون هذا التعبير مجازيا متمثلا في التشبيه والاستعارة والصور البلاغية بعامة، وقد يكون حقيقيا لكنه يساق على طريقة خاصة، فكما أنه يمكن تكوين الصورة من استعارة أو تشبيه، يمكن أيضا تكوينها من عبارة أو فقرة تبدو في ظاهرها وصفية خالصة بيد أنها توحي إلى الخيال شيئا زائدا عن حقيقتها الخارجية."(٢) تحرك طبقات إرادية في القارىء متصلة بخياله باستخدام معلومات ترجع إلى الذاكرة وتثير تصوراته الحسية.(٣) ولذلك لابد للصورة من لون من الطزاجة والجدة؛ لأن القوة التعبيرية تضعف وتتلاشى في معظم الأحيان بالتكرار مما يضطر الكاتب الأصيل لبث حياة جديدة فيها ويجعلنا تجتهد في تتبع خواصها الأسلوبية لاكتشاف طبيعة الإجراء الذي استخدمه لذلك.(٤)

وأخيرا فالصورة أداة الشاعر الفنية يعبر بها عن تجربته ويرسم مشاهدا من حياته وواقعه، قوامها الكلمات وما يحدثه بينها من علاقات

---

(١) في نقد الشعر: د. محمود الربيعي، (ص: ٩).

(٢) من مباحث علم البيان: د. عبد الواحد علام، (ص: ٩٩).

(٣) علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته: د. صلاح فضل، (ص: ٢٤٤).

(٤) نفسه، (ص: ٢٣٧).

يبتكر بها دلالات جديدة غير مباشرة يبني بها عالما متميزا جديدا، يجمع فيها بين عناصر متباعدة، في إطار من الانسجام والوحدة، يصور المعنى تصويرا جماليا، وتخاطب المشاعر التي لا تعرف قيدا أو حدا أكثر مما تخاطب الفكر، وتدع للخيال حرية التخيل حول الصور المشكلة، بحيث تظهر فيها شخصية الشاعر واضحة مميزة.[١]

أما التعريف الأمثل للصورة الذي نطمئن إليه ونسير عليه في تناول الصورة. هو أن الصورة " هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة، مستخدما طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد، والمقابلة والتجانس وغيرها من وسائل التعبير الفني. والألفاظ والعبارات هما مادة الشاعر الأولى التي يصوغ منها ذلك الشكل الفني، أو يرسم بها صورة الشعرية".[٢]

وعلى هذا فسوف نطوف – مع ابن المعتز العباسي – لنمتع أبصارنا بما تجلبه لنا أسماعنا من صور بديعة ومناظر مبهجة اشتهر بها الشاعر وذاع صيته.

****

(١) الصورة الفنية فى شعر دعبل، (ص: ٢٤٩).

(٢) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر: د. عبد القادر القط، (ص: ٤٣٥) .

كان العرب فيما قبل العصر العباسي لا يكـادون يعرفـون مـن التشبيه إلا ما قرب فيه وجه الشبه بين الأصل والصورة. ولما اتسع الفكر العربي في العصر العباسي من أثر العلوم والثقافات بدأ الشعراء يحسـون بالطبيعة إحساسا عميقا، ويخلعون عليها معاني إنسانية غير قانعين بـذلك التصوير القديم الذي عاد لا يتناسب مع التطور الفكري في عصرهم. وقد أدى هذا الاتجاه إلى اتساع شقة الخلاف بين المشبه به والمشـبه أو بـين الأصل والصورة".[١]

وابن المعتز العباسي يعتبر رائد المصورين في العصر العباسـي ومن الثلة القليلة الذين شغلوا الدارسين من قدامى ومحدثين بشعرهم، يقول عنه ابن شرف صاحب رسائل البلغاء:" وأما ابن المعتز فملك النظام كمـا هو ملك الأنام له التشبيهات المليـة والاسـتعارات الشـكلية والإشـارات السحرية"[٢] يقول العباس صاحب معاهد التنصيص:" إنه أشعر الناس فـي الأوصاف والتشبيهات"[٣] أما من المحدثين فيقول عنه الاسـكندري:" هـو أبرع الناس في الأوصاف والتشبيهات"[٤] ويقول عنه الزيات:" هـو بليـغ الاستعارة رائع التشبيه ودقيق الوصف لرقة حسه ولطف شعوره وامـتلاء ذهنه بروائع الجمال وبدائع الخيال ورونق الحضارة"[٥] أما الدكتور شوقي ضيف فيقول في هذا المجال:" وبابن المعتز تضـاف الخطـوط الذهبيـة

---

(١) عبد الله بن المعتز: د. الكفراوى، (ص:١٥٢).

(٢) ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، (ص: ١٠١).

(٣) معاهد التنصيص: للعباس، (ص: ١٤٦).

(٤) الوسيط في اللغة العربية وآدابها، (ص: ٢١٠).

(٥) تاريخ الأدب العربي، (ص: ٢٧٥).

المتألقة التي تحلي البناء وتتم العمل وتختم على أناقته فلا تبقي بعد ذلك عملا لعامل"[١] ويقول عنه الدكتور مصطفى الشكعة:" يمثل عبد الله بن المعتز واحة أنيقة من واحات الشعر العربي ينبغي لكل دارس أن يقف حيالها بعض الوقت يتفيأ ظلالها ويجتبي ثمارها ويمتع ناظريه بما حوت من لون يخلب اللب ويثير الإعجاب.

وليس بالضرورة – لكي يكون ابن المعتز على هذه الشاكلة – أن يكون صورة لواحد من النابهين من الشعراء الذين سبقوه كبشار أو أبي نواس أو العتابي أو أبي تمام أو البحتري ولكنه نسيج وحده فيما قدم لنا من صور شعرية بارعة أخاذة ومن تشبيهات مخملية أنيقة أو هي بلغة العصر أرستقراطية التكوين، بحيث لم يسبقه إليها شاعر عربي ولم يلحق به بعده شاعر آخر، ومن ثم فهو يشكل مرحلة من مراحل تطور الشعر العربي بعد البحتري هي مرحلة الصورة الشعرية".[٢]

وبعد فما هو الجديد في شعر ابن المعتز الذي شد إليه الباحثين والدارسين هكذا ؟ لنشاهد ذلك من خلال أثر الحضارة على التصوير الفني في شعر ابن المعتز.

****

(١) العصر العباسي الثاني، (ص: ٥١٧).

(٢) الشعر والشعراء في العصر العباسي: د. مصطفى الشكعة، (ص: ٧٤٠).

لا عجب إذا قيل إن الصورة الشعرية عند ابن المعتز هي ابن المعتز نفسه، ابن المعتز الذي تربى في بيت الخلافة بين القصور الجميلة بما تعج من مظاهر حضارية راقية، وبين الرياض الخميلة، بما فيها من ثمار وأزهار. بين انكبابه على القراءة والكتابة واتصاله بكل روافد الثقافة في عصره، وبين غزواته في رحلات الصيد، بل بين هروبه من واقعه المرير وبين تطلعه للخلافة. بين القلق النفسي وبين اللؤلؤ والزمرد، وصنوف الجواهر وأشكالها.

ولقد صدق ابن الرومي عندما سأله البعض لِمَ لم يقل شيئا مشابها لتشبيه ابن المعتز في الهلال في قوله:

انظُر إليهِ كَزورقٍ من فضَّةٍ قد أثقَلتهُ حُمُولةٌ مِنْ عَنبرِ

فصاح ابن الرومي: واغوثاه! إنه يصف ماعون بيته.

" فلقد صدق ابن الرومي كل الصدق في إجابته، فالذي يستعرض تشبيهات ابن المعتز وأوصافه يجدها كلها أرستقراطية ثرية ملوكية، فيها من ألفاظ القصور ومحتوياتها ومن بيئة الخلافة وترفها الشيء الكثير".[1]

إن بيئة ابن المعتز الخاصة لعبت في حياته دورا كبيرا كما لعبت الظروف أيضا، فبين امتلاكه لمقومات الخلافة من وسائل مادية لا تقصر عن غيره من الخلفاء وبين وسائل معنوية من علم ورجاحة عقل يبز فيها غيره وبين حرمانه من الخلافة وتطلعه اليها. وقف ابن المعتز ليخط لنفسه عالمه الخاص مستخدما فيه كل ما يملك من مقومات الخلافة وكل ما تحتوي القصور ويحيط بها. مستمدا عناصر بنائه من مظاهر الحضارة

---

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي: د. مصطفى الشكعة، (ص: ٧٦٩).

التي ينتمي إليها. هذا العالم الجديد " ليس وصفا للواقع، وليس وصفا لواقع بديل، ليس وصفا بأي حال، ولكنه "رؤية " للأشياء، وهذه الرؤية تتساند أو تتوحد لتصنع عالمها الخاص والمميز ".[١]

ومن خلال هذا العالم المميز أتى ابن المعتز بصور عجيبة خطهـــا بريشة فنان وتفكير مبدع.

والطبيعة بكل ما تنطوي عليه من أشياء وجزئيات وظواهر هـــي المصدر الأساسي لإمداد الشاعر بمكونات الصورة. " فالأرض عالم قريب بالنسبة للإنسان، عليها يولد، وفيها ينمو ويـــدرج وبـــين جنباتهـــا يغـــدو ويروح.. ثم إليها يعود مرة أخرى، إن علاقته بها وثيقة.

وعالم النبات ميدان من هذه الميادين التي يأخذ الجمال فيها حظـــه سواء في المشهد الكلي للحديقة أو الحدائق.. أم في المشهد الجزئي، مشهد وردة أو غصن.. حيث تأخذ الألوان مكانها في النفس ســـواء مـــن حيـــث التنوع أو من حيث التدرج. إن زهرة واحدة من بعـــض أنـــواع الزهـــور لتحوي من التدرج في التكوين ما تعجز عنه ريشة أكبر الفنانين.

وفي عالم النبات، جانب آخر من الجمال. ذاك الذي ينشر الروائح الزكية والعطر الفواح... وهو مهوى أفئدة الطيور المغـــردة والفراشـــات الباحثة عن الزهر.

إن الجمال لينساب إلى النفس من كل منافذها مـــن خـــلال العـــين والأذن والأنف".[٢]

---

(١) الصورة والبناء الشعري، د. محمد حسن عبد الله، (ص: ١٨١).

(٢) الظاهرة الجمالية في الإسلام: صالح أحمد الشامي، (ص: ١٣٥).

ولا ينقل ابن المعتز الطبيعة " في تكوينها وعلاقتها الموضـوعية، إنه يدخل معها في جدل، فيرى منها، أو تريه من نفسها جانبا، يتوحد معه بإدراك حقيقة كونية وشخصية معا".[1]

ولنتأمل صور ابن المعتز لنرى كيف استخدم مظاهر الحضارة في القرن الثالث الهجري في تركيب صوره. ولنبدأ بالأرض التي نعيش عليها لننظر ما فيها من نباتات وأزهار وحيوانات وغير ذلك. ولنبدأ باستخدام صور الأزهار فقد كان العصر شغوفا بها فقد أكسبت الحضارة الطباع ذوقا وجمالا.

نجد ابن المعتز يغرم بزهرة النرجس فيصفها أكثر من مرة، وفي كل مرة يأتي بصورة جديدة، ولكنها تعكس مزاج من تربى في القصور، ونشأ بين الزهور والجواهر. يقول واصفا النرجس ويشبهه بالعيون:

عُيـونٌ إذا عايَنتَهـا فَكَأنَّمـا   دُموعُ النَدى مِن فَوقِ أَجفانِها دُرُّ
مَحاجِرُها بيضٌ وَأَجفانُها خُضرُ   وَأَحداقُها صُفرٌ وَأَنفاسُـها عِطـرُ
بِرَوضَةِ بُستانٍ كَـأَنَّ نَباتَهـا   تَقَنَّعَ وَشيًا حينَ باكَرَها القَطـرُ[2]

ولعله في هذه الصورة. قد تأثر بقول كسرى أنوشروان وكان مولعا بالنرجس "هو ياقوت أصفر، بين در أبيض، على زمرد أخضر".[3]

---

(١) الصورة والبناء الشعري، د. محمد حسن عبد الله، (ص: ٣٣).
(٢) الديوان، (٢/١٨٣)، المعارف.
(٣) زهر الآداب للحصري القيرواني، (٢/ ٥٦٥).

" ويرق ابن المعتز ويبدع وهو يرسم صورة أخرى للنرجس مع تشبيهين أولهما يرتبط بالغنى والترف، وثانيهما يتصل بالعشق والصبابة بأسباب. يقول:

أما ترى النرجسَ المَيّاسَ يَلحَظُنا ... ألحاظَ ذي فَرَحٍ بالعَتبِ مَسرورِ
كَأَنَّ أَحداقَها في حُسنِ صورَتِه ... مَداهِنُ التِبرِ في أوراقِ كافورِ
كَأَنَّ طَلَّ النَدى فيه لِمُبصِرِه ... دَمعٌ تَرَقرَقَ مِن أجفانِ مَهجورِ[1]

ويبلغ ولع العصر بالأزهار - إلى حد التعصب في حبها فنجد ابن الرومي مثلا يتعصب للنرجس ويذم الورد فيقول في تفضيل النرجس على الورد وكأن المناظرات العلمية قد انتقلت إلى الأزهار فنراه يدلي بحججه وبراهنيه:

خَجِلتْ خُدودُ الوردِ مِن تفضيله ... خجلاً تَورُّدُها عليه شاهدُ
لم يَخجَلِ الوردُ المُورَّدُ لونُه ... إلا وناحلُه الفضيلةَ عانِدُ
فضلُ القضيةِ أنَّ هذا قائدٌ ... زَهَرَ الرياضِ وأنَّ هذا طاردُ
شتّانَ بين اثنين هذا مُوعِدٌ ... بتَسلُّبِ الدُّنيا، وهذا واعدُ
وإذا احتفظت به فأمتع صاحب ... بحياته، لو أن حيا خالد
للنرجس الفضلُ المُبينُ وإن أبَى ... آب وحادَ عن الطَّريقةِ حائدُ
من فضله عند الحِجَاجِ بأنه ... زهرٌ ونَوْرٌ وهو نبت واحدُ
يحكي مصابيحَ السماء، وتارةً ... يحكي مصابيح الوجوه تَراصَدُ
يَنْهى النديم عن القبيح بلحظه ... وعلى المدامة والسماع مُساعدُ
اطلُب بعفوك في المِلاح سَمِيَّهُ ... أبدًا فإنك لا محالة واجدُ

---

(١) الشعر والشعراء في العباسي: د. مصطفى الشكعة، (ص: ٧٧٣).

والورد – لو فتشت– فردٌ في اسمه ما في الملاح له سميٌّ واحدُ
هذي النجوم هي التي ربَّتهما بحَيَا السحاب كما يُربي الوالدُ
فتأمل الاثنين مَنْ أدناهُما شبَهًا بوالده فذاك الماجدُ
أين العيون من الخدود نفاسةً ورياسةً لولا القياسُ الفاسد[1]

"وقد ناقضه جماعةً من البغداديين وغيرهم في هذا المذهب، وذهبوا إلى تفضيل الوردِ؛ فما دانَوه وما استطاعوه، فقال أحمد بن يونس الكاتب رادًا عليه:

يا مَنْ يُشَبِّه نَرْجِسًا بنواظرٍ دُعجٍ، تنبه إنَّ فهمَك راقد
إنَّ القياسَ لمن يصحُّ قياسهُ، بين العيون وبينه متباعد
والوردُ أصدقُ للخدود حكايةً فعلامَ تَجحَد فَضلَه يا جاحد ؟
مَلِك قصير عُمْرُه مُسْتَأهِل تخليده ، لو أنَّ حيًّا خالدُ
إنْ قلت: إنَّ الوردَ فَرد في اسمه ما في الملاح له سميٌّ واحِد
فالشمسُ تُفْرَدُ باسمها والمشتري والبدر يُشرَك في اسمه وعطَارِدُ
أو قلت: إنَّ كواكبًا ربينها بحَيَا السَحَاب كما يُربِّي الوالد
قلنا: أحقُّهما بطَبْع أبيه في الـ جَدْوَى هو الزَّاكي النجيبُ الرَّاشد
زُهْرُ النجوم تَرُوقُنا بضيائها ولها منافعُ جمةٌ وعَوَائِدُ
وكذلك الوَرْدُ الأنيقُ يَرُوقُنا وله فضائلُ جَمَّةٌ وفَوَائِدُ
وخليفه إن غاب ناب بنَفْعه وبنفحه أبدًا مقيم راكدُ
إنْ كنتَ تُنكرُ ما ذَكَرْنا بعدما وضَحَت عليه دلائل وشواهدُ

---

(١) ديوان ابن الرومي: تحقيق/ د.حسين نصار، (٢/٦٤٣ – ٦٤٤).

انْظُرْ إلى المصْــفَرِّ لونًــا منــهما   وافطنْ فما يَصْفَرُّ إلاَّ الحاســدَ[(١)]

أما الورد عند ابن المعتز فأمير يجب أن يطاع. يقول في تفضــيله الربيع على الخريف:

لذة الناس في الخريــف ولكــن   بالــذي في الربيــع تم ســروري
ذاك حلف الشتاء والبرد والقــ   ــر وهذا حليــف بــدر مــنير
لم نزل في الرياض نشرب حــتى   عطعط الــورد في قفــا المنثــور
ثم نادى الربيــع جــاءكم الــو   رد أمــيرا فــأذعنوا للأمــير[(٢)]

ويقول عنه أيضا:

حسبي من الورد توريد الخدود كما   حسبي محسود من البشر[(٣)]

ثم يقول مرحبا به، يشبهه بعطار قادم بروائحه الزكية، يشبه لون الورد في احمراره وجماله بلون خجله يحل سراويله وأزراره، رابطا بين جماله والجمال البشري:

أهلاً بزائِــرِ عــامٍ مَــرَّةً أَبَــدًا   لَو كانَ من بَشَرٍ قَد كانَ عَطَّــارا
كَأَنَّما صِــبْغَتهُ وَجنَتــا خَجِــلٍ   قَد حَلَّ عَقــدَ سَــراويلٍ وَأَزرارا
فَلَو رَآهُ حَبيسٌ فَــوقَ صَــومَعَةٍ   لَقالَ في مِثلِ هَذا فَادخُلوا النارا[(٤)]

---

(١) زهر الآداب، (٢/ ٥٦٦ – ٥٦٧).
(٢) الديوان، (٢/١٨٧)، طبعة دار المعارف.
(٣) نفسه، (ص: ١٨٣).
(٤) نفسه، (ص: ١٧٩).

وحول هذه الصورة يدور ابن المعتز فيقول في نفس المعنى مصورا الورد بصورة خدود بيضاء احمرت من الخجل هذا في لونه أما في استقباله فقد أقبل معززا مكرما. يقول:

أتاكَ الوَردُ مَحبوبًا مَصونًا　　كَمَعشوقٍ تَكَنَّفَهُ الصُدودُ
كَأَنَّ بِوَجهِهِ لَمّا تَوافَت　　نُجومٌ في مَطالِعِها سُعودُ
بَياضٌ في جَوانِبِهِ احمِرارٌ　　كَما احمَرَّت مِنَ الخَجَلِ الخُدودُ[1]

ويبين ابن المعتز شغفه وحبه للورد حتى كان يهدى إليه في صورة جميلة:

أَهدَت إِلَيَّ الَّتي نَفسي الفِداءُ لَها　　الوَردُ نَوعَينِ مَجموعَينِ في طَبَقِ
كَأَنَّ أَبيَضَهُ مِن فَوقِ أَحمَرِهِ　　كَواكِبٌ أَشرَقَت في حُمرَةِ الشَفَقِ[2]

والبنفسج زهر غض تبصر فيه زرقة وأوراقه وحمرة ساقه، فيشبهه ابن المعتز لا بزهر مثله وبنبات آخر شبيه به، ولكن يشبهه بلهب نار لا يستطيع سوى الحاذق أن يتخذ منها له مثالا، ثم لا يكتفي بذلك بل دق في التصوير ونظر نظرة خاصة غريبة فشبهه بزرقة النار أول ما تشتعل في الكبريت فبلغ غاية التصوير وملك زمام الإجادة حين يقول:

وَلازَوَردِيَّةٍ تَزهو بِزُرقَتِها　　بَينَ الرِياضِ عَلى حُمرِ اليَواقيتِ
كَأَنَّها وَرِقاقُ القُضبِ تَحمِلُها　　أَوائِلُ النارِ في أَطرافِ كِبريتِ[3]

---

(١) نفسه، (٢/١٥٤).

(٢) الديوان، (٢/١١٨)، طبعة دار المعارف.

(٣) الديوان، (٢/٢٢٨)؛ طبعة دار المعارف.

والدنيا تكون جميلة في فصل الربيع، ولكن دنيا ابن المعتز ستكون أجمل بالطبع ولنعش معه تلك الصورة نشاهد ونشم ونضحك، الدنيا متعطرة ومتزينة بشتى أنواع البنات، كالبغي التي تتزين للزناة، والصبح يخلع رداءه الأسود، والطيور تشدو بجميع أصناف اللغات، والورد يضحك ولكن من ماذا ؟ من نواظر النرجس التي أصيبت بالقذى وذلك بعد أن أصابه الجفاف، يقول:

انظُر إلى دُنْيَا ربيعٍ أقبلتْ	مِثْلَ البَغيِّ تبرَّجتْ لزُناةِ
جاءَتك زائرةٌ كعامِ أوّلِ	وتَلَبَّستْ وتعطَّرَتْ بنباتِ
وَإذا تَعرَّى الصُّبحُ من كافورِهِ	نَطَقتْ صُنوفُ طُيورِها بلُغاتِ
والوَرْدُ يضحكُ من نَواظرِ نَرْجسٍ	قَذِيَت وآذنَ حَيُّها بمَماتِ[1]

"ولابن الرومي صورة مثل هذه الصورة تماما فيصور تبرج الدنيا في فصل الربيع وهي تثنى على آلاء الرحمن حيث تروق كل ناظر إليها. وتلبس الأرض أثوابا أنيقة من رائق الزهر. ووجد أن الروض قد اكتسى بأفواف الحبر: فكأن الطبيعة أنثى قد أخذت زينتها لاستقبال الرجال ولكن بعد حياء وخفر:

أصبحتِ الدنيا تروق مَنْ نظرْ	بمنظرٍ فيه جلاءٌ للبصرْ
أثنتْ على الله بآلاء المطر	فالأرض في روضٍ كأفواف الحِبَر
نيِّرةُ النُّوار زهراءُ الزهَر	تبرجت بعد حياءٍ وخفر

تبرُّجَ الأنثى تصدّت للذكر[2]

---

(١) ابن الرومي، محمد عبد الغني حسن، (ص: ٧٩).

(٢) الوصف الفن الغنائي، (ص: ٧٦)، دار المعارف.

" أما البحتري فحسب أن الربيع يتكلم من حسنه فهو يختال ضاحكا مسرورا، لم يرى من زهر ونور، فالورد ينبه النوم النعس، والبرد يفتق الزهر فكأنه يبث حديثا كان مكتوما، والشجر اكتسى بلباس كالوشى منمنم، ورق النسيم حتى لكانه أنفاس الأحبة "، قول:

أتاكَ الرَبيعُ الطَلقُ يَختالُ ضاحِكًا ... مِنَ الحُسنِ حَتّى كادَ أَن يَتَكَلَّما

وَقَد نَبَّهَ النَوروزُ في غَلَسِ الدُجى ... أَوائِلَ وَردٍ كُنَّ بِالأَمسِ نُوَّما

يُفَتِّقُها بَردُ النَدى فَكَأَنَّهُ ... يَبُثُّ حَديثًا كانَ أَمسِ مُكَتَّما

وَمِن شَجَرٍ رَدَّ الرَبيعُ لِباسَهُ ... عَلَيهِ كَما نَشَّرتَ وَشيًا مُنَمنَما

أَحَلَّ فَأَبدى لِلعُيونِ بَشاشَةً ... وَكانَ قَذىً لِلعَينِ إِذ كانَ مُحرَما

وَرَقَّ نَسيمُ الريحِ حَتّى حَسِبتَهُ ... يَجيءُ بِأَنفاسِ الأَحِبَّةِ نُعَّما[1]

ثم يصور لنا الرياض في فصل الربيع، وفيه تكون الرياض أجمل ما تكون بهاء وابتساما، وآذار أول الربيع فيه تكتسي الأرض بالألوان الزاهية من أخضر وأصفر وأبيض وأحمر، وهي نفسها ألوان الغصون والأزهار من آس ونسرين وورد وبهار، يرى ابن المعتز ذلك فيجري على لسانه شعرا رقيقا رخيا، يقول:

حبَّذا آذارُ شهرًا ... فيه للنور انتشارُ

ينقص الليلُ إذا حلّ ... ويمتدُّ النهارُ

وعلى الأرض اصفرارٌ ... واخضرارٌ واحمرارُ

نقشه آسٌ ونسرينٌ ... وورْدٌ وبهارُ[2]

---

(١) ديوان البحتري، (٤/ ٢٠٩٠ - ٢٠٩١).

(٢) الديوان، (٢/٦١٢)، بغداد.

ومن صور ابن المعتز الطريفة تلك الصورة التي جمع فيها عـددا من الألوان وعددا من الأزهار، حتى وكأنه يكاد ينقلنا إلى معرض أزيـاء تنعكس على (فاترينته) صور أزهار لمحل أزهار مقابل له. يقول:

بَيضاءُ إن لَبِسَت بَياضًا خلتَهـا كَالياسمينَ مُنَضَّـدًا في مَجلِـسِ
وَإِذا بَدَت في حُمـرَةٍ فَكَأَنَّهـا وَردٌ مِنَ الداريِّ حُسنًا مُكتَسـي
وَإِذا بَدَت في خُضرَةٍ في صُـفرَةٍ فَكَأَنَّها لِلحُسنِ باقَةُ نَـرجِسِ[1]

"وبلغت براعة المعتز ونبوغه في التصوير وفتنته بالطبيعة المدى الذي جعله يصفها ويحلق في سماء زاهية من الفن الرفيع من خلال بحـر الرجز، وهو بحر عودنا الشعراء الجد والخشونة والإغراب اللفظـي فيـه رغم أنه أنشأ أصلا للحداء، أما ابن المعتز فهو من خـلال واحـدة مـن أرجوزتيه الطويلتين الرائعتين اللتين لم يتح لشاعر آخر أن يبلغ شأوه فيهما يصور جمال الطبيعة والبساتين تصويرا يقول عنه الدكتور طه حسين:" إنه آية في الإبداع الفني بحيث لا يظن" أن أحدا قد استطاع أن يأتي بمثله في تشبيهاته واختراع المعاني البديعة التي تثيرها هذه الرياحين".[2]

يقول ابن المعتز في أرجوزته وقد جمع كـل أصـناف الزهـور المعروفة عصره يقابلها بكل ما يعرف من حلي وجواهر. مستخدما كل ما يعرف من صورة حضارية، فبدا مصورا رساما بارعا محلقا:

أما تَرى البُستانَ كَيفَ نَـوَّرا وَنَشَرَ المَنثـورُ بُـردًا أَصـفَرا
وَضَحِكَ الوَردُ عَلى الشَقائِقِ وَاعتَنَقَ القَطرَ اعتِناقَ الوامِـقِ

---

(١) الديوان، (١٨٧/٢)، المعارف .
(٢) الشعر والشعراء في العصر العباسي، (ص: ٧٧٠)، حديث الشعر والنثر، (ص:١٦٤).

في رَوضَة كَحُلَّة العَروسِ ... وَخَدَمٍ كَهامَة الطاوُوسِ
وَياسَمينٍ في ذُرى الأَغصانِ ... مُنتَظِماً كَقِطَعِ العِقيانِ
وَالسَروُ مِثلُ قِطَعِ الزَبَرجَدِ ... قَد استَمَدَّ الماءَ مِن تُربٍ نَدي
وَفَرشَ الخَشخاشُ جَيباً وَفَتَق ... كَأَنَّهُ مَصاحِفٌ بيضُ الوَرَق
حَتّى إِذا ما انتَشَرَت أَوراقُهُ ... وَكادَ أَن يُرى إِلَينا ساقُه
صارَ كَأَقداحٍ مِنَ البَلّورِ ... كَأَنَّما تَجَسَّمَت مِن نورِ
وَبَعضُهُ عُريانُ مِن أَثوابِهِ ... قَد أَخجَلَ الأَعيُنَ مِن أَصحابِهِ
تُبصِرُهُ بَعدَ انتِشارِ الوَرَدِ ... مِثلَ الدَبابيسِ بِأَيدي الجُندِ
وَالسَوسَنُ الآزرُ مَنشورُ الحُلَل ... كَقُطُنٍ قَد مَسَّهُ بَعضُ البَلَل
نُوَّرَ في حاشِيَتَي بُستانِه ... وَدَخَلَ البُستانُ في ضَمانِه
وَقَد بَدَت فيهِ ثِمارُ الكَبَرِ ... كَأَنَّها حَمائِمٌ مِن عَنبَرِ
وَحَلَقَ البَهارُ فَوقَ الآسِ ... جُمجُمَةً كَهامَةِ الشَمّاسِ
حِبالُ نَسجٍ مِثلُ شَيبِ النَصَفِ ... وَجَوهَرٌ مِن زَهَرٍ مُختَلِفِ
وَجُلَّنارٌ مِثلُ جَمرِ الخَدِّ ... أَو مِثلُ أَعرافِ دُيوكِ الهِندِ
وَالأُقحُوانُ كَالثَنايا الغُرِّ ... قَد صَقَلَت نُوّارَها بِالقَطرِ[1]

" والفاكهة متعة للنظر في أشكالها وتنوعها وألوانها، ومازال فن الرسم منذ القدم وحتى عصرنا الحاضر، يقدم لوحات لها لما تؤديه من دور جمالي.. وهي مع هذا متعة للمذاق".[2]

---

(١) الديوان، (٢/٣٠)، دار المعارف.
(٢) الظاهرة الجمالية في الإسلام، (ص: ١٧١).

ولنتأمل هذه الصورة والتي يبدو فيها تـأثره بالطـابع الحضـري وبعده عن الخشونة التي كان يفرضها واقع الصحراء. مستمدا عناصـرها من واقع الحياة الحديثة صورة أشجار النارنج، والتي تحمل في أغصـانها ثمارا من الذهب الخالص، ثم يزيد الشاعر الصورة وضوحا فيتخيل تلـك الثمار كرات صوالجة بين أيدي المحظوظين أمثاله. يقول:

وَكَأَنَّما النـارَنجُ في أغصـانه ... من خالِصِ الذَهَبِ الَّذي لَم يُخلَطِ
كُرَةٌ رَماها الصَولَجانُ إِلى الهَوا ... فَتَعَلَّقَت في جَوِّهِ لَـم تَسـقُطِ[1]

ثم يضمن ابن المعتز وصف النارنج صورة غزلية رقيقة في نطاق تشبيه بهيج متلاعبا بالمعاني عازفا على وتر موسيقي من الألفاظ راسـما صورة تدب فيها الحياة. يقول:

كَأَنَّما النـارِنجُ لَمّـا بَـدَت ... صُـفرَتُهُ في حُمـرَةٍ كَاللَهيـب
وَجنَةُ مَعشـوقٍ رَأى عاشِـقًا ... فَاصفَرَّ ثُمَّ احمَرَّ خَوفَ الرَقيب[2]

ثم يلح أثر البيئة على ابن المعتز فيتمادى في تصوير ماعون بيته فيصور لنا عناقيد الكروم وظلها بالكواكب في السماء، ولكنها ليست كواكبنا التي نلحظها وسمانا التي نراها بل كواكب ابن المعتز وسماؤه، وإلا فـأي كواكب من در وسماء من زبرجد؟ يقول:

كَأَنَّ عَناقيدَ الكُرومِ وَظِلَّها ... كَواكِبُ دُرٍّ في سَماءِ زَبَرجَدِ

أما ليمون ابن المعتز – فهو غير ليموننا بالطبع – فذهب من حيث الشكل، ومسك من حيث الرائحة. يقول:

---

(١) الديوان، (٢/٢١٤)، دار المعارف.
(٢) نفسه، (٢/١٧٩).

كأنّما اللَيمونُ لَمّا بَدا للعَينِ في أوراقِهِ الخُضرِ
مَداهِنٌ مِن ذَهَبٍ أُطبِقَت عَلى زَكِيِّ المِسكِ وَالخَمرِ(1)

ولننظر كما دعانا إلى صورة جزره وهو بين سيقانه وأوراقه. يقول:

أنظُر إلى الجَزرِ الَّذي يَحكي لَنا لَهَبَ الحَريقِ
كَمِذَبَّةٍ مِن سُندُسٍ وَبِها نِصابٌ مِن عَقيقِ(2)

أو إلى قثائه. يقول:

انظر إليها أنابيبًا منضدة من الزمرد خضرًا ما لها ورق(3)

أما مشمشه فبنادق ولكن من ذهب يثير الفرج والبهجة في النفوس.

ومشمشٍ بان منه أعجبُ العجبِ يدعو النفوسَ إلى اللذات والطربِ
كأن في غصون الدوح حين بدا بنادقٌ خُرِطتْ من خالص الذهبِ(4)

ويصف لنا الرمان من الخارج ومن الداخل فيقول:

ولاحَ رُمّانُنا فزيَّننا بينَ صَحيحٍ وبينَ مفتوتِ
من كلِّ مصفرَّةٍ معصفرةٍ تفوقُ في الحسنِ كلَّ منعوتِ
كأنَّه حُقَّةٌ وإن فُتحت فصرَّةٌ من فُصوص ياقوتِ(5)

---

(1) الديوان، (1/579)، بغداد.
(2) نفسه، (1/583)، بغداد.
(3) نفسه، (1/585).
(4) شعر الطبيعة، د. سيد نوفل، (ص: 190).
(5) الديوان، (2/166)، المعارف.

والبرك مظهر حضاري من مظاهر القرن الثالث الهجري. فيصور لنا ابن المعتز البركة في صفاء مائها وشكلها، بالمرآة المصقولة في أيدي جارية، ولكن مادامت البركة لها خليج يصب فيها فلابد أن يكون للمــرآة مقبض أيضا. يقول:

كَأَنَّ البِركَــةَ الغَنّــاءَ لَمَّــا غَدَت بِالمــاءِ مُفعَمَــةً تَمــوجُ
وَقَد لاحَ الدُجى مِرآةُ قَــينٍ قَد انصَقَلَت وَمَقبِضُها الخَليجُ[1]

ويقول في وصف بركة أخرى:

اشرب على بركة نَيلــوفرٍ محمـــرةِ الأوراق خضـــراءِ
كأنما أزهارهُــا أخرجــتْ ألســـنةَ النـــار مـــن المـــاءِ

" فالحضارة المادية في بيئة المشاعر الخاصة لا تبخل لهذه البركة التي تتسع لتضم إليها مجلس شراب في اخضرار واصفرار وما شــاء الله من الألوان التي ابتدعتها الطبيعة ومهارة الفن والصناعة. أما أن تخــرج أزهارها ألسنة من النار بين لجج مياهها فتلك صورة لا تستوي نسيج وعي فني ومهارة شاعرية مقبولة إلا بضرب من البناء اللغوي الفني".[2]

ومادمنا نزلنا في الماء فينبغي أن نركب سفينة ابن المعتــز التــي يصورها لنا تصويرا دقيقا. فيقول:

وَزَنجِيَّةٍ كُردِيَّةِ الحَلْى فَرْقُها جَناحٌ لَها فَرْدٌ عَلَــى المَــاءِ تَخفِــقُ
يُؤَدِّبُها أَولادُهــا بِعِصــيِّهِمْ فَتَحبَسُ قَسْرًا كَيفَ ساروا وَتُطلَقُ[3]

---

(١) الديوان، (١/٥٦٦)، بغداد .

(٢) بناء الصورة في البيان العربي: د. كامل مهدى البصير، (ص: ٤٧٩).

(٣) الديوان، (٢/١٩٢)، المعارف.

أما عن تصوير الحيوانات فنجد ابن المعتز يصور لنا أو ينقل لنا على الهواء مباراة لسباق الخيل، والسباق على أشده، حتى أنهما لا يفرق بينهم في السباق إلا كفرق أطوال الأصابع. يقول:

خرجن وبعضهن قريب بعض   سوى فوت العذار أو العنان
ترى ذا السبق والمسبوق منها   كما بسطت أناملها اليدان[١]

" وأي شاعر يستطيع أن يجمل الفهد كما جمله ابن المعتز وأن يجليه في مقام الصيد والفتك كما تجلى العروس الحسناء بقلائدها الذهبية ومنظرها الفضي النضير ؟

وَلاَ صَيْدَ إلاَّ بِوَثَّابَةٍ   تَطِيرُ عَلَى أَرْبَعٍ كَالْعَذَبْ
فَزَوْبَعَةٌ مِنْ بَنَاتِ الرِّيَا   حِ تُرِيكَ عَلَىَ الأَرْضِ شَيْئًا عَجَبْ
تَضُمَّ الطَّرِيدَ إلَى نَحْرِهَا   كَضَمِّ المُحِبَّةِ مَنْ لاَ يُحِبُّ
إذا ما رَأَى عَدْوَهَا خَلْفَه   تَنَاجَتْ ضَمَائِرُهُ بِالْعَطَبْ
لَهَا مَجْلِسٌ فِيَ مكان الرَّدِيـ   ـفِ كَتُرْكِيَّةٍ سَبْيُهَا لِلْعَرَبْ
ومُقْلَتُهَا سَائلٌ كُحْلُهَا   وَقَدْ جُلِّيتْ سَبَجًا فِي ذَهَبْ
وَإِنْ أُطْلِقَتْ مِنْ قِلادَتِهَا   وَطَارَ الْغُبَارُ وَجَدَّ الطَّلَبْ
غدت وهي واثقة أنها   تقوم بزاد الخميس اللَّجب[٢]

أما ناقة ابن المعتز فيرسم لها صورة حضارية يقول:

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي: د. شوقي ضيف، (ص: ٢٧٣).

(٢) شعر الطبيعة في الأدب العربي، د. سيد نوفل، (ص: ١٩١).

ولقد تجوب بي المهامه جــزة والصبح قد فلق الدجى بعمود
شملاته أنف كــأن فروجهــا أبواب قصر فتحت لوفــود [١]

وبعد أن تجولنا مع ابن المعتز على الأرض يجدر بنا أن نصـــعد معه إلى السماء. لنجد ابن المعتز العباسي يتأمل في نظام الكون طامحا إلى كشف أسراره العليا... فنجد لديه رغبة جامحة في اختراق الأجواء وأطباق السماء حتى يستوي على صهوة بعــض الأبــراج ويشـــهد دوران الفلــك وتنجاب عنه حجبه الصفيقة " فالشاعر الذى يصلنا بالكون الكبير والحيــاة الطليقة من قيود الزمان والمكان، بينما هــو يعــالج المواقــف الصــغيرة واللحظات الجزئية، والحالات المنفردة هو الشاعر الكبير النادر".[٢]

لقد صنع ابن المعتز من تشبيهاته في هذا السبيل لوحات فنية مترفة أخاذة. وهل هناك أجمل من زورقه الفضي المثقل بحمولة العنبر، يقول في الهلال:

انْظُر إليه كَزورقٍ من فِضَّةٍ قد أثْقَلتهُ حُمُولةٌ مِنْ عَنبرٍ[٣]

" إن الزورق ينطبق على الهلال في الشــكل واللــون، والعنبــر يتطابق في اللون مع الليل والنسبة العقلية بين الهلال والليل تتوافق توافقــا منطقيا مع النسبة المقترحة بين العنبر والزورق".[٤]

---

(١) الديوان، (٢/١٧٠)، المعارف.
(٢) النقد الأدبي: أصوله ومناهجه، سيد قطب، (ص: ٥٨).
(٣) الديوان، (٢/٥٩١)، بغداد.
(٤) الصورة الفنية، د. جابر العصفور، (ص: ٢٠٢).

وهل هناك ترف أكثر من تشبيه الهلال بمنجل من فضة يحصد نرجسا من زهور الظلام:

انظُر إلى حُسنِ هـلالٍ بَـدا ... يَهتِـكُ مِـن أنـوارِهِ الحِندِسـا
كَمِنجَلٍ قَد صيغَ مِن فِضَّـةٍ ... يَحصُدُ مِن زَهرِ الدُجى نَرجِسا[1]

أو ألطف من طوق العروس المجلو على غلائل سود:

وَهِلالُ السَماءِ طَوقُ عَروسٍ ... باتَ يُجلى عَلى غَلائِلَ سودِ[2]

أو أبرع من تشبيهه لنصف القمر كما في قوله:

في قَمَرٍ مُستَرَقٍ نِصفُهُ ... كَأَنَّهُ مِجرَفَةُ العِطرِ[3]

واضح أن هذه التشبيهات تعكس ذوق ابن المعتز الثري المستمدة من واقعه الخاص الذى يمده بها، ومن مظاهر الحضارة الجديدة من حوله.

وشاعرنا مفتون بالهلال حتى ولو كان هلال آخر الشهر فيشبهه بسوار من العاج ولكنه يعطى صورة غريبة كل الغرابة. لصباح آخر الشهر فيقول:

في لَيلَةٍ أَكَلَ المُحاقُ هِلالَهـا ... حَتّى تَبَدّى مِثـلَ وَقـفِ العـاجِ
وَالصُبحُ يَتلو المُشتَري فَكَأَنَّهُ ... عُريانُ يَمشي في الدُجى بِسِراجِ[4]

يطلق الدكتور مصطفى الشكعة على هذة الصورة قولـه:" ليست هذه صورة غريبة وحسب، وإنما هي صورة فيها شعوذة وفكاهة وإضحاك

(١) الديوان، (٢/٦٠٥)، بغداد.
(٢) نفسه، (٢ / ٥٦٦).
(٣) نفسه، (٢/٥٨٢).
(٤) الديوان، (٢/٥١)، المعارف.

ولنا أن نتمثل الصبح وكأنه عبد عريان أسود يمسك بيده سراجا يستكشف به طريقه".[١]

ويصف ابن المعتز الشمس ولكن في يوم غائم، وهي تحاول جاهدة أن تظهر ولو بجزء ضئيل منها، ولكن السحابة كانت أقوى منها بكثير. تحاول وتحاول ولكنها لا تستطيع ولذلك فلم يجد ابن المعتز شبيها لها إلا العنين الذي يريد أن ينكح بكرا بالذات. تشبيه غريب وعجيب. يقول:

تَظَلُّ الشَّمْسُ تَرْمُقُنا بِلَحْظٍ مَرِيضٍ مُدْنَفٍ مِنْ خَلْفِ سِتْرِ
تُحاوِلُ فَتْقَ غَيْمٍ وَهْوَ يَأْبَى كَعِنِّينٍ يُرِيدُ نِكاحَ بِكْرِ[٢]

وابن المعتز لم يكن معجبا بالهلال والشمس فقط بل السماء وما اشتملت عليه كانت مهبط إلهامه، ومصدرا واسعا من مصادر فنه فانطلق انطلاقا واسعا وراء رقعتها، وجهد أن يعرض ما اشتملت عليه عرضا دقيقا فائقا ولكنها سماؤه هو، فالثريا فيها فصوص من لجين أو حقاق من الدر أو غصن من النور، والنجوم در على بساط أزرق أو رؤوس قدار ركبت في معاجر، أو وجوه عذارى في ملاحف سود. أو كوحدان النرجس الندي المتطلع من رياض البنفسج. يقول في الثريا:

كأن الثريا والظلام يلفها فصوص لجين قد أحاط بها سبج[٣]

أو يقول:

---

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي، (ص: ٧٨١).

(٢) المصون في الأدب، لأبي الحسن العسكري، تحقيق: عبد السلام هارون، (ص: ٤٣-٤٤).

(٣) الديوان، (٥٣/٢)، بغداد.

كأن الثريا على صدرها حقاق من الدر في مرمر
حشين السقوط فأثبتها يشبه المسامير من عنبر[١]

أما النجوم فيقول فيها:

وكأنّ أجرامَ النُّجومِ لَوامعًا دُرَرٌ نُثِرْنَ على بِساطٍ أزرقِ[٢]

أو يقول:

وَالنَجمُ في اللَيلِ البَهيمِ تَخالُهُ عَيناً تُخالِسُ غَفلَةَ الرُقَباءِ[٣]

" فالنجم الذي يومض متحديا دياجير الليل في كبرياء وشموخ يتخيله الشاعر عينا خائفة تخشى عيون الرقباء فتختلس النظرة في جبن وتردد".[٤]

أو هذه الصورة الجملية والتي يبدو فيها النجم راكضا والصبح في أثره يطارده وكأنه يطلبه بثأر:

ونجمُ الليل يركضُ في الدياجي كأنّ الصُّبحَ يطلبُهُ بثار[٥]

ثم نراه يصور لنا ليلة مقمرة ولكن بماذا يصورها. يقول:

هَل لَكَ في لَيلَةٍ بَيضاءَ مُقمِرَةٍ كَأَنَّها فِضَّةٌ ذابَت عَلى البَلَدِ[٦]

---

(١) الديوان، (٣٥٧/١)، طبعة دار المعارف.
(٢) الديوان، (١٨٧/١)، دار المعارف.
(٣) الديوان، (٤٩٥/٢)، طبعة بغداد.
(٤) بناء الصورة في البيان العربي: د. كامل مهدى البصير، (ص: ٤٨٤).
(٥) الديوان، (٢٩٠/٣)، طبعة بغداد.
(٦) الديوان، (٢٤٥/٢)، المعارف.

" وإذا كان الليل يطول على العاشقين بحيث جعلهم يشكون هذا الطول في أساليب شتى منذ زمان امرئ القيس إلى اليوم، فإن ابن المعتز يعبر عن ذلك بصورة جديدة فريدة حين يقول:

أقولُ وَقَد طالَ لَيلُ الهُمومِ ... وَسامَرتُ نَجوى فُؤادٍ سَقيمِ

تُرى الشَمسُ قَد مَسَخَت كَوكَبًا ... وَقَد طَلَعَت في عِدادِ النُجومِ[1]

ولنتأمل هذه اللحظة الجميلة إنها لحظة الغروب. لحظة دخول الليل على النهار حيث يبدأ الظلام من أسفل حتى يعم الكون فيبدو مسود الذوائب لأن السماء مازال فيها بقايا شمس تضيئها. كما أن سواد الليل يكون أكثر في جهة المشرق. فالشمس يحتضر نصفها ويبقى نصفها يجعل المغرب أحمرا. إنها لحظة جميلة. لحظة وداع النهار واستقبال الليل أما صبح ابن المعتز فملك يفدى ويحيا. يقول:

وَكَأَنَّ الصُبحَ لَمّا ... لاحَ مِن تَحتِ الثُرَيّا

مَلِكٌ أَقبَلَ في التا ... جِ يُفَدّى وَيُحَيّا[2]

أو قوله:

قَدْ أَغْتَدى وَاللَّيْلُ في إهابِهِ ... كَالْحَبَشيِّ مالَ عَنْ أَصْحابِهِ

وَالصُّبْحُ قَدْ كَشَّفَ عَنْ أَنْيابِهِ ... كَأَنَّهُ يَضْحَكُ مِنْ ذَهابِهِ[3]

يعلق الدكتور شوقي ضيف على هذه الصورة بقوله:" فإنك ما تلبث أن تستغرق في الضحك من هذا الحبشي أو هذا الوجه المستعار، بل إنه

---

(١) الشعر والشعراء، العصر العباسي. د. مصطفى الشكعة، (ص: ٧٥٢).

(٢) الديوان، (٣٢١/٢)، طبعة دار المعارف.

(٣) نفسه، (١١٣/٢).

لوجه حقيقي يعبر عن حقيقة مظلمة وراءه، ولكن سرعان ما يخلفه وجــه آخر ضاحك هو وجه الصباح الجميل".[١] الذي يضحك سخرية مــن هــذا الليل الغار.

أما الرياح فيصورها لنا في صورة خيالية رائعة، لابد لهــا مــن خيال فنان حتى يعرضها على أنظارنا فيبدو لنا هذا العناق الغريب، يقول:

وزوبعة من نبــات الريــاح   تريك على الأرض شيئا عجب
تضـــم الطريـــد إلى نحوهـــا   كضم المحب من لا يحـــب[٢]

أو هذه الصورة الهادئة للرياح والتي يتذكر فيها ابن المعتز ذلــك المنظر الكريم الرفيق الذي طالما ألفه من حواضنه وهن يجذبن أطــراف ثيابه لإيقاظه من نومه، غير صائحات به ولا مزعجات له. يقول:

والريحُ تجذبُ أطرافَ الرداءِ كما   أفضى الشفيقُ إلى تنبيهِ وَسْنانِ[٣]

أما السحاب فلها مع الشاعر شأن. يقول:

ومُوقَرة بثقل المــاءَ جــاءَتْ   تَهَادى فوق أعنــاقِ الرِّيــاحِ
فباتَتْ ليلَهَا سَــحًا ووَبْــلاً   وهَطْلاً مثل أفــواهِ الْجِــرَاحِ
كأن سماءَهــا لمــا تجلَــتْ   خِلاَل نجومها عنــد الصــباحِ
رياضٌ بَنَفْسَج خَضِل ثــراهُ   تفَتح بينــه نَــوْرُ الأقــاحِ[٤]

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي، (ص: ٢٧١).
(٢) الديوان، (١٢٩/٢)، طبعة دار المعارف.
(٣) نفسه، (٢٩٤/١).
(٤) الديوان، (١٧٠/٢)، دار المعارف .

يعلق الدكتور مصطفى الشكعة على هذه الصورة بقوله:" إن الشاعر يخطط للوحته تخطيطا بارعا كأي فنان أصيل متمكن، فيأتي بالصورة المبتكرة حين يجعل السحابة المثقلة تتهادى في حركتها، أما المطر فطابعه السرعة متمثلة في السح والوبل، فإذا ما انتهت معركة المطر والأرض. عاد ابن المعتز إلى رسم صورة أخرى أكثر شاعرية وأوفر رقة ويأتي بتشبيه معتزي رقيق يشبه فيه سماء الصباح الباكر بروضة بنفسج ندية، ويشبه النجوم بزهر الأقاح المنور في رحاب تلك الروضة".[1]

ويقول أيضا في وصف المطر:

غدتْ مبكّرةً للمزْن فاحتجبت ... شمسٌ فلم نعرف لها خبرا

واغرورقت لانسكاب الماءِ دمعتُها ... فجاءَ ثلجٌ كوردٍ أبيضٍ نثَرا[2]

وبعد أن صعدنا إلى السماء لنستكشف ما فيها كواكب وآيات نعود إلى الأرض من جديد. لنعيش مع الإنسان الذي خلق الله له كل شيء وسخره له" ذلك المخلوق الذي سواه الله تعالى بيده ونفخ فيه من روحه.. وأسجد له ملائكته..

إن النظرة السريعة في هذا المخلوق – فضلا عن النظرة الفاحصة– لتقرر جمال هذا المخلوق دون تحفظ.

هذا القوام الفريد، هذا التناسق بين الأعضاء، هذه المرونة في حركة كل عضو... المرونة والتكيف في حركة الأعضاء بعضها مع

---

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي، (ص: ٧٧٨).

(٢) المصون، تحقيق: عبد السلام هارون، (ص: ١٤٧).

بعض.. هذا التناسق في العمل بين العقل والجسـد... والـروح... إنهـا مؤكدات لا تنتهي".[١]

كما نجد أن القرآن الكريم وضح لنا أن الحسن متوفر في خلق هذا الإنسان. فقال تعالى:" خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِـالْحَقِّ وَصَـوَّرَكُمْ فَأَحْسَـنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ".[٢] ويقول " لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ".[٣]

فالإسلام الذي هو العمود الفقري للحضارة. وجه الإنسان أن ينظر ويبصر في نفسه:" وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ "[٤] ليصل إلى براعة الخلـق ودقة صنع الخالق والتأمل والاستمتاع بالنظر إلى هذا الحسن. وابن المعتز كغيره من الشعراء يشد جمال خلق الإنسان. فنراه يصل كل عضو في هذا الصنع الدقيق البديع المتناسق. فنراه يشدنا إلى جماله فيقول:

يا حَبيبًا سَلا وَلَـم أَسْـلُ عَنـهُ ... أَنتَ تَستَحسِنُ الوَفاءَ فَكُنـهُ
خَجِلَ الوَردُ إِذ رَأى وَجهَ مَـن أَه ... واهُ وَالجُلَّنارُ أَخجَلُ مِنـهُ [٥]

ويقول:

يا مُفرَدًا في الحُسنِ وَالشَكلِ ... مَن دَلَّ عَينَيكَ عَلى قَتلي
البَدرُ مِن شَمسِ الضُحى نورُهُ ... وَالشَمسُ مِن نورِكَ تَستَملي[٦]

ثم يصف أكثر فيصور لنا خده، وقده، وثغره، وطرفه. فيقول:

---

(١) الظاهرة الجمالية في الإسلام، (ص، ١٣٨).
(٢) سورة التغابن (الآية: ٣).
(٣) الآية (٤) من سورة التين.
(٤) الآية (٢١) الذاريات.
(٥) الديوان، (١/٤٢٧)، دار المعارف.
(٦) نفسه، (١/٤١١).

أيُّ وَردٍ عَلى خُـدودِ الغَـزالِ — أيُّ مَيلٍ في قَـدِّهِ وَاعتِـدالِ
أيُّ دُرٍّ إذا تَبَسَّـمَ يُبديـ — ـهِ وَسِحرٍ في طَرفِـهِ وَدَلالِ
لهذا جـرت دمـوع جفـوني — ولهذا طالت على الليـالي[1]

ثم نراه يرجع هذا التصوير وهذه الدقة في الصنع لله سبحانه وتعالى:

يا مُقلَةً أُدنِفَت كَمـا دَنِفـتُ — مَرَّت بنا سَـنحَةً وَمـا وَقَفـتُ
وَجَفنُهـا سـاحِرٌ لِيَقـتُلَني — فَتُبتُ مِن تَـوبَتي الَّـتي سَـلَفتُ
رَني بِعَـينٍ يَقـوى بِلَحظَتِهـا — كَيـدٌ لِـإِبليسَ كُلَّمـا ضَـعُفتُ
وَلَستُ أَنسى في الخَدِّ ما صَنَعَت — نوناتُ أَصـداغِهِ الَّـتي عُطِفَـت
صَوَّرَهُ اللَـهُ صـورَةً عَجَبًـا — إِن قيلَ كَالغُصنِ في النَقا أَنِفَـت[2]

أو يقول:

حسنك يستعطف القلوب لك — سبحان باريك كيف صورك[3]

ومن هنا نستطيع أن نقول إن النظر في خلق الإنسان بتأمل وتدبر كآية لدقة صنع الله شيء جديد أتت به هذه الحضارة متأثرة بالقرآن الكريم في ذلك.

ومادمنا نتحدث عن الإنسان فيجدر بنا أن نتحدث عن أثر الحضارة على صورة المرأة، فإذا كان الشعر الجاهلي قد احتفظ لنا بصورة " المرأة المثال " أو الصورة المثالية للمرأة، وهي صورة لا تتعلق بامرأة

---

(١) نفسه، (١/٤٨).
(٢) الديوان، (١/٣٢٨).
(٣) نفسه، (١/٣٩٩).

بعينها، وإن وضعت لها الأسماء مما قد يوهم بأنها صورة لا مرأة معينة إلا أن عناصر هذه الصورة، تتواتر عند الشعراء وتسير على نسق واحد مما يجعل صورة المرأة في الشعر أقرب إلى أن تكون نسخا مكررة من أصل واحد، نحن لا نغفل الاختلافات اليسيرة في التعبير الفني عند الصورة، ولكن هذه الاختلافات، لا تمس جوهر الصورة الأساسي وعناصرها المميزة، فالوجه شمس يضيء الظلام والعينان لمهاة والجيد لظبي، والمهاة والظبي أم دائما أو الأسنان كالبرد أو البللور ويحيط بوجهها المضيء شعر كثيف فاحم وهي تماثل في رقتها ونقاء أديمها بيض النعامة والدرة التي يستخرجها الغواص. وهذه العناصر التي تتردد في الشعر القديم مما يشير إلى أن هذا الشعر يحاكي نماذج أقدم منه عهدا، وأمس رحما بالدين القديم الذي كانت تعبد فيه الشمس الأم، ونظائرها أو رموزها المقدسة ".[1]

" فالشعراء على اختلافهم وتباين أمزجتهم الفنية، قد درجوا على رسم صورة مثالية للمرأة يستمدون عناصرها من البيئة الحيوانية، والكونية والنباتية ويقيمون بين أطرافها المتنافرة وبين المرأة صلة ما".[2]

وبالإضافة إلى هذه الصورة المثالية للمرأة نلاحظ أن الشعراء الجاهليين قد " وصفو جمال المرأة الحسي فكأنما كانوا يريدون أن تكون ماثلة أمام العيون فتسر برؤيتها وتنشرح النفوس بمنظرها وقد حاول الكثير

---

(١) الصورة في الشعر العربي: د. على البطل، (ص: ٧٠).

(٢) الشعر الجاهلي، د. إبراهيم عبد الرحمن، (ص: ٢٣٥).

منهم أن يتتبع جسمها جزئية جزئية لترى بجمالها الكامل من ناصيتها إلى قدمها".[١]

وبعد هذا لن نذهب إلى ما ذهب إليه الدكتور على البطل والدكتور إبراهيم عبد الرحمن إلى أن وجود الصورة المثال للمرأة ترجع إلى أصول دينية أسطورية – لن نناقش ذلك – ولكن الذي يريد أن يذهب إليه الباحث هو أن وجود صورة واحدة للمرأة في العصر الجاهلي وأن الشاعر يتناول هذه الصورة بطريقة حسية هو أن المرأة في العصر الجاهلي كانـت لهـا وظيفة واحدة وهي أنها ضجيعة فراش ووعاء إنجاب. ولـذلك فالشـاعر يركز على أوصافها الحسية ليشده منظرها ويركز على وصـف أعضـاء الخصوبة لأنها وعاء إنجاب " فالقوم كانوا ينظرون إليها – المرأة – كشيء خلقه الله ليتمتعوا به نوعا من المتاع كما خلقت الإبل والبغـال والحميـر ليركبوها ولينعموا بها نوعا من المتاع ".[٢]

أما بعد ظهور الإسلام نجد " أن القرآن الكريم قـد اعتمـد علـى الصور الفنية في نسخ النظرة الجاهلية إلى المرأة متاعا وشيطانة ودخـل بهذا في مسعى فكري وفني لتغيير ما في نفوس الرجال عامة والشـعراء خاصة في هذا الباب.

ومما نؤكده هنا: أن القرآن الكريم قد عرض أنماطا مـن سـلوك النساء تنوعت بين الصلاح والطهر والإيمان، وبين ما يقف على النقـيض من هذا كله. مما يحق لنا أن نستنتج مطمئنين أن آي الذكر الحكيم لم تدع

---

(١) في تاريخ الأدب الجاهلي: د. على الجندي، (ص: ٤١٥).

(٢) المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي الأول: د. عزيز فهمي، (ص: ٧٤).

إلى هجر موضوع المرأة فى جوانبه الذاتية ولم ينبذه ظهريا فأتاح بـذلك للشعر العربي المجال رحبا ليواصل التعبير بمضمون هادف ملتزم وبصور فنية جديدة تلائم هذا المضمون وتجسد عواطف الشعراء وانفعـالاتهم إزاء المرأة زوجا وحبيبة ".[1]

وإذا نظرنا إلى صورة نساء الجنة في القرآن وجـدنا أن القـرآن يدعو فيها إلى صيانة المرأة والحرص عليها وعدم التفريط فيها: فالقرآن قد شبه نساء الجنة، فقال:" فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَـانُ "[2] وقـال:" وَعِنـدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ، كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ "[3] وقال:" وَحُورٌ عِينٌ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ "[4] فليس في الياقوت والمرجان واللؤلؤ المكنون لـون فحسـب، وإنما هو لون صاف حي فيه نقاء وهدوء، وهي أحجار كريمـة تصـان ويحرص عليها وللنساء نصيبهن من الصيانة والحرص، وهن يتخذن مـن تلك الحجارة زينتهن، فقربت بذلك الصلة واشتد الارتباط، أما الصلة التـي تربطهن بالبيض المكنون فضلا عن نقاء اللون فهي هذا الرفـق والحـذر الذي يجب أن يعامل به كلاهما. أو لا ترى هذا الكن أيضا صـلة تجمـع بينهما وهكذا لا تجد الحس وحده هو الرابط الجامع. ولكن للنفس نصـيب أي نصيب".[5]

---

(١) بناء الصورة في البيان العربي: د. كامل مهدى البصير، (ص: ٣٦٨ - ٣٦٩).

(٢) سورة الرحمن، (الآيات: ٥٦ - ٥٧ - ٥٨).

(٣) سورة الصافات، (الآيات: ٤٨ - ٤٩).

(٤) سورة الواقعة، (الآيات: ٢٢ - ٢٣).

(٥) من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوي، (ص: ١٩٣).

" كما نتبين وبوضوح أن من الأشياء ما كان خلقه ابتداء تعبيرا عن الحسن والجمال، فهذه هي الغاية منه، وتلك هي مهمته في الحياة ".(١)

فإذا أضفنا لذلك تأثير الجمال الإنساني في صورته الظاهرة على النفوس الإنسانية وذلك من خلال هذا المشهد من قصة يوسف عليه السلام وهي قصة معروفة.

" وليست القصة بكاملها هي محور حديثنا فامرأة العزيز التي شغفها يوسف حبا، ليست هي المادة الموضوعة للدراسة، إذ أنها وقعت تحت مؤثرات عدة إضافة إلى الجمال... فهي نتيجة لخلطتها الدائمة به كانت على معرفة بأخلاقه وفضائله، كما كانت على معرفة من حسن تصرفه – فعرفت فيه الحسن ظاهرا ومعنى.

ولكنا نقف عند المأدبة التي أقامتها هذه المرأة بعد أن انتشر خبرها في الأوساط الراقية (!!) التي تصلها عادة أخبار قصور السادة، هذه المأدبة التي أقامتها في عملية دفاع عن النفس وإبداء للعذر.

وحضرت المدعوات، وقد أعدت لهن وسائل الراحة الكاملة ربما يتناسب مع قدرهن ومع مكانة القصر المضيف.. وأخذت كل واحدة منهن مكانها في المجلس، وأمامهم من الطعام أو الفاكهة ما يحتاج إلى السكاكين. وفي هذا الجو الفاره، وقد تجاذب النسوة أطراف الحديث... وجاء دور الطعام حيث كل سكينة بيد امرأة تستعين بها على قطع ما يحتاج إلى قطع..

---

(١) الظاهرة الجمالية في الإسلام، (ص: ١٤٤).

وفي جو من اللهو بالطعام واللهو بالحديث.. أمرت صاحبة القصر يوسف أن يخرج على النسوة، وكانت مفاجأة، مفاجـأة غيـر متوقعـة.. ولنترك الحديث لنشاهد هذه الجلسة من خلال التعبير القرآني الكريم:" وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِـي ضَلَالٍ مُّبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَـتْ كُـلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْـنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ"[1]

أكبرنه.. وقطعن أيديهن.. أجل، جرحن أيديهن، فقد شغلهن حسن الطلعة عن أنفسهن وما في أيديهن وكان هذا التأثير عاما شمل الجميع.

ولئن كان حسن يوسف عليه السلام حسنا خاصا، فإن الأمر الـذي نحب أن نلفت النظر إليه هو أن القرآن سجل أثر ذلك الحسن على النفوس، وفي مشاهدة كانت هي المرة الأولى وكان عدد المشاهدات كثيرا، وكـان الأثر كبيرا على النفوس جميعا "[2] ونستطيع مما تقدم أن نقول:

١- إن الإسلام حول صورة المرأة من وعاء إنجـاب وضـجيعة فراش في الجاهلية إلى زوجة وحبيبة.

٢- إن الله خلق في الإنسان حسا جماليا وسجل القرآن أثر الحسن على النفوس كما صوره على أنفس صويحبات يوسف.

٣- إن من الأشياء ما كان خلقه ابتداء تعبيرا عن الحسن والجمال يقصد من ورائه مخاطبة الحس الجمالي في الإنسان.

---

(١) سورة يوسف، (الآيات: ٣٠ – ٣٣) .

(٢) الظاهرة الجمالية في الإسلام: صالح أحمد الشامي، (ص: ١٥٣ – ١٥٤).

وعلينا الآن أن نبين أثر القرآن على صورة المرأة في شعر ابن المعتز. فنجده يصور لنا امرأة مخاطبا حسنها الجمالي، فيقول:

لَبِستْ صُفْرَةً فَكَمْ فَتَنَتْ ... مِنْ أَعْيُنٍ إِذْ رَأَيْتَها وَعُقُولِ

مِثْلَ شَمْسٍ فِي الْغَرْبِ تَسْحَبُ ثَوْبًا ... صَبَغَتْهُ بِزَعْفَرَانِ الْأَصِيلِ

وكأن المسواك يمتاح خمرا ... حين تجريه فوق ثغر صقيل

أنت يا عاذلي بهجري أولى ... رب فرق بيني وبين العذول[1]

فجمال المرأة يفتن العيون والعقول:

ويقول أيضا يشده الجمال الأنثوي لفتيات أتراب يلعبن في روضة فيغطي جمالهن على جمال الروضة:

رأيتُ أترابًا لدى روضة ... يكدْنَ بالأرداف يسقطنَ

يلقطنَ وردًا هنَّ والمُصطفى ... أحسنُ مما كنَّ يلقطنَ[2]

ولنستقبل هذه الزائرة التي أتتنا من (الفردوس) ومن في الفردوس؟ إنهن (حوريات الجنة). فإن لفظة الفردوس تصطدم في أذهاننا بحور العين وصورة الحور التي تعرفها بيضاء – حوراء العين – كواعب – أتراب وغير ذلك. ولكن كيف خرجت من الفردوس ونحن نعرف أنه لم يخرج من الفردوس إلا الشيطان لعصيانه وآدم لأنه أطاع الشيطان فأخطأ. فهنا نجد ابن المعتز ينتبه إلى ذلك ويأتي لنا (بلفظة آبقة أي هاربة يقول ابن المعتز:

وَزائِرَةٍ تَستَعجِلُ المَشْيَ طارِقَةً ... أَتَتْنا مِنَ الْفِرْدَوْسِ لا شَكَّ آبِقَةً

---

(١) الديوان، (٤١٣/١).

(٢) نفسه، (٤٣٣/١).

إذا ما تَثَنَّتْ قالَ للــرِّيح قَــدُّها كَذا حَرِّكي الأغْصانَ إنْ كُنْتِ صادِقَةْ
نأت فمللت العيش بعد فراقهــا وقلت لنفسي أنــت مــني طالقــة[1]

فنجد في هذه الصورة أن ابن المعتز في رأسه صورة الحور العين كصورة مثالية للمرأة فنجد زائرته كما قلنا آتية من الفردوس كما يصــور لنا انفعالاته بفراقها فنجده قد مل العيش والحياة بعد فراقها. إنهــا حبيبــة والإنسان يتأثر بفراق حبيبه.

ومن الصور الجميلة بحسن منظرها. والتي يرسمها ابــن المعتــز بريشة فنان مبدع. يقول:

نَضَتْ عنها القميصَ لصبِّ ماء فورَّدَ خــدَّها فَــرطُ الحيــاءِ
وقابَلت الهــواءَ وقــد تعــرَّتْ بمعْتــدلٍ أرقَّ مــن الهــواءِ
ومدَّتْ راحــةً كالمــاء منــها إلى مــاءٍ عَتيــدٍ في إنــاءِ
فلما أن قَضَتْ وَطــرًا وهمَّــتْ على عجلٍ لأخــذٍ للــرِّداءِ
رأتْ شخصَ الرقيبِ على تَدانٍ فأسْبلت الظلامَ على الضــياءِ
فغابَ الصُّبحُ منها تحــت ليــلٍ وظَلَّ الماءُ يَقطُرُ فوق مــاءِ[2]

جمال. وبطء في الحركة. وغفر وحياء.

فإن جمال المرأة أخذ اتجاه آخر غير ما كان عليه فــي الجاهليــة فالشاعر هنا يحس الجمال فيصف هــذا الإحســاس ولا يصــف الجمــال مباشرة. يقول:

---

(١) الديوان، (٣٩٢/١)، دار المعارف.
(٢) نفسه، (٣١٢/١)

أنيري مكانَ البدرِ إن أفلَ البدرُ وقُومي مقامَ الشمسِ ما استأخَرَ الفجرُ
ففيكِ من الشمسِ المُنيرةِ لونُهــا وليسَ لها منــكِ التَبَسُّــمُ والثغــرُ[1]

فهي عنده أجمل من البدر والشمس هكذا يحسها.

بل يا ليت القمر أو الشمس يحكيانها في جمالها إذن لخفف ذلك من همه وعذابه ولكنها تفوقهما بكثير:

حاشا لشِرَّةَ بَل طوبى لعاشــقها لَو كانَت الشَمسُ تَحكيها أَوِ القَمَرُ
إِذًا لَكانَ يُرى في كُلِّ ما طَلَعَت شِبهٌ لَها فَيَقِــلُّ الهَــمُّ وَالفِكَــرُ[2]

كما نجد أن المرأة المصونة محفوظة مثل الحور العين. فيقول:

عِدني بِشَرٍّ وَلا أَلحــاكَ في خُلُــفٍ فَرُبَّمــا نَفَــعَ التَعليــلُ بِالكَــذِبِ
مَن لي بِساكِنَةِ الأَصداف مِن لُجَجٍ يَعومُ غَوّاصُها في غَمرَةِ العَطَــبِ[3]

كما نجده يركز على صدر المرأة " كواعب أترابا ". يقول:

كأنما الرمان في أغصانه نهود أبكار لها اللاذ ستر[4]

ويتحدث عن بياض الوجه واحورار العين:

أيا مَن وَجهُهُ قَمَرُ وَفي أجفانه حَوَرُ[5]

---

(١) الديوان، (٣٦١/١)، المعارف.
(٢) نفسه، (٣٦٣/١).
(٣) نفسه، (٣٢٢/١).
(٤) نفسه، (٣٦٩/١).
(٥) نفسه، (٣٥٩/١).

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الإسلام غير صورة المرأة من ضجيعة فراش إلى سكن – من السكينة – يسكن إليها الرجل حتى قال ابن المعتز في زواج فاشل له:

أنا مُذ صارَ لي سَكَن ... في ضُروبٍ مِنَ الحَزَن

هائِمُ العَقلِ في نَها ... ري وَلَيلي بِلا وَسَن [1]

وبعد أن تعرضنا لصورة المرأة نقف وقفة مع صورة ساقي الخمر فإننا نلمح تشابها كبيرا بين صفات ساقي الخمر الذي استخدمها الشعراء وصفات ساقي الخمر في الجنة. أما ساقي الخمر في الجنة فقد وصفه القرآن الكريم في معرض حدثيه عن أهل الجنة:" وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا"[2]، ويقول:" يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ "[3]

ومن هذه الآيات نستشف صفات ساقي الخمر في الجنة فهم:

١- ولدان أي لا يؤثر فيهم السن في جمال وبهجة ونضارة.

٢- مخصصون مملكون لأهل النعيم. ولذلك فالطاعة طبع فيهم.

وإذا تأملنا في شعر ابن المعتز وغيره من شعراء العصر العباسي وجدناهم وصفوا سقاة الخمر بهذه الصفات أيضا.

" فساقي الخمر يجمع بين الحسن والملاحة والبهجة. يقول ابن المعتز:

---

(١) نفسه، (٤٢٩/١).

(٢) سورة الإنسان، (الآية: ١٩).

(٣) سورة الطور، (الآيتان: ٢٣ – ٢٤).

وَنَشْرَبُ الرَّاحَ مِنْ يَدَي رَشَـأ   بِحَبْرِ خَالَ فِي الخَدِّ مَنْكُوتِ
قَد جُمِعَ الحُسنُ وَالمَلاحَـةُ فِي   وَجهٍ مِنَ العاشِقِينَ مَنحوتِ[1]

هذا الجمال لا يمله الإنسان بحيث لا يتمنى فراق الساقي يقول ابن المعتز:

يطوف بها ظبي من الأنسي شادن   لـه مقلـة في جفنـه قتلـت قـتلا
أبي لحظ عيني أن يفارق وجهـه   كما أثبت الرامي على الغرض النبلا[2]

كما نرى الساقي مطيعا للشاربين. يقول ابن المعتز:

وَساقٍ مُطيعٍ لأَحْبابِه   علىَ الرُّقَباءِ شَدِيدِ الْجرَة[3]

أظن بذلك نجد تأثيرا لصورة ساقي الخمر كما وصـفها القـرآن على ساقي الخمر في الشعر.

---

(١) الديوان، (٢/ ٢٢٥)، طبعة دار المعارف.
(٢) نفسه، (٢/٢٩٤).
(٣) نفسه، (٢/٢٥٥).

وبعد أن طفنا مع أثر الحضارة على الصور الكونية والأرضية وغيرها يجدر بنا أن نقف عند أثر الدين الإسلامي على التصوير الفني، دين الحضارة التي ينتمي إليها ابن المعتز – رغم أن للدين أثر في الصور السابقة فهو يدفعنا دفعا للتأمل في كل ما حولنا ولكننا هنا نبحث فى الصور التى أثر فيها الإسلام بطريق مباشر.

فلقد كانت الثقافة الإسلامية التي تربى عليها الشاعر مصدر ذخر وثراء للغة الشاعر وصوره. فجاء بالعديد من الصور التي تدل دلالة واضحة على أن الشاعر ينتمي للحضارة الإسلامية وليس لحضارة سواها. ولنتأمل هذه الصور التي تؤكد ذلك.

يقول يصف ناقته وهي تتقدم الركب:

وَناقَةٍ في مَهمَهٍ رَمى بِها ... هَمٌّ إِذا نامَ الوَرى سَرى بِها

فَهيَ أَمامَ الرَكبِ في ذَهابِها ... كَسَطرِ بِسمِ اللَهِ في كِتابِها [1]

فمثلما تتقدم " بسم الله " كل صور القرآن العظيم لا يتقدم عليها شيء، هكذا أيضا ناقة ابن المعتز تتقدم الركب، وهذا الكلام يدل على أنها ليست تتقدم الركب هذه المرة فقط بل تتقدم الركب على الدوام.

ولنتأمل قوله أيضا وهو يصف البرق في خفائه وظهوره:

فَكَأَنَّ البَرقَ مُصحَفُ قارٍ ... فَانطِباقاً مَرَّةً وَانفِتاحا [2]

فتلاوة القرآن فرض على مسلم ومسلمة. وبهذا فإن المسلم إذا ما انتهى من قراءة القرآن وأطبقه، سرعان ما يفتحه للقراءة من جديد.

---

(١) الديوان، (٣١٢/١)، دار المعارف.

(٢) نفسه، (٤٦٧/١).

فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يفتح ويغلق إلى يوم القيامة، لأن كل كتاب ينتهي الإنسان من قراءته ربما يطويه إلى الأبد، أما القرآن الكريم إذا ما انتهى المؤمن من قراءته شرع في القراءة من جديد. ومن هنـا كانـت عظمة هذه الصورة.

وهذه الصورة إن دلت على شيء تدل على شدة إدراك ابن المعتز لأهمية تلاوة القرآن. ولنترك عبد القاهر الجرجاني يشرح لنا سر إعجابـه بهذه الصورة. يقول:" لم ينظر الشاعر من جميع أوصاف البرق ومعانيـه إلا إلى الهيئة التي تجدها العين له عن انبساط يعقبه انقباض، وانتشار يتلوه انضمام، ثم فكر في نفسه عن هيئات الحركات لينظر أيهمـا أشـبه بهـا فأصاب ذلك فيما يفعله القارئ من الحركة الخاصة في المصحف إذ جعـل يفتحه مرة ويطبقه أخرى ولم يكن إعجاب هذا التشبيه لك وإيناسه إياك لأن الشيئين مختلفان في الجنس أشد الاختلاف فقط بـل لأن حصـل بـإزاء الاختلاف اتفاق كأحسن ما يكون وأتمه فمجموع الأمرين شدة ائتلاف فـي شدة اختلاف حلا وحسن وراق وفتن".(١)

ولنتأمل هذه الصورة أيضا والتي يكون الروض فيها فـي أبهـى أحواله، وكل شيء فيه جميل واضح، الأشجار غسلها مطر في الليل، ثـم أتتها الشمس مع صباح صحو جميل فتظهر خضرة الأرض إثر ذلك. لـم يرى الشاعر شبها لهذه الصورة إلا المصحف، والمصحف المفسـر فـي وضوحه وجلائه. يقول:

---

(١) أسرار البلاغة (ص ١٣١ - ١٣٢).

وَالرَوضُ مَغسولٌ بِلَيلٍ مُمطِرِ   كَأَنَّهُ دَراهِمٌ في مَنثَرِ
أَو كَتَفسيرِ مُصحَفٍ مُفَسَّرِ   وَالشَمسُ في إِصحاءِ جَوٍّ أَخضَرِ[1]

وهذه الصورة العجيبة التي يصور فيها حلكة سواد الليل بحيث لا يتخيل إنسان صورة أخرى لسواد الليل أبعد من ذلك، إنه يصوره بظلمة قلب الكافر. فهل شق قلب الكافر ورأى سواده ؟ بالطبع لا، ولكنه انطباع ديني. يقول:

كَم قَد قَطَعتُ إِلَيكَ مِن دَيمومَةٍ   نُطَفُ المِياهِ بِها سَوادُ الناظِرِ
في لَيلَةٍ فيها السَماءُ مُرِزَّةٌ   سَوداءُ مُظلِمَةٌ كَقَلبِ الكافِرِ[2]

وهذه الصورة، صورة رجل يسرع في صلاته أو صلاته بتعبير العامة " كنقر الغراب " ثم يسجد سجدة طويلة بعد الصلاة، يصوره ابن المعتز بالوالغ الذي يشرب بأطراف لسانه ثم يصوره في سجوده بالمزود المقلوب الذي لا يتحرك من مكانه. يقول:

صَلاتُكَ بَينَ المَلا نَقرَةٌ   كَما اِستَلَبَ الجَرعَةَ الوالِغُ
وَتَسجُدُ مِن بَعدِها سَجدَةً   كَما خُتِّمَ المِزوَدُ الفارِغُ[3]

ولنشاهد معه هذه الصورة، صورة النجوم المتلألئة في ليل حالك، بماذا يشبهها ؟

يشبهها بالسنة الواضحة في عالم يموج بالبدع، أليست هذه صورة لا يتقنها إلا رجل متفقه في الدين. يقول:

---

(١) الديوان، (٢/١٢٧).
(٢) نفسه، (٢/١٨٤).
(٣) الديوان، (٢/٤٥٥)، طبعة دار المعارف.

وكأنَّ النجوم بين دُجاه سُنَنٌ لاحَ بينهُنَّ ابتداع

ثم نراه يصور لنا هذه الصورة التي تجعلنا نحس بالبرد يسير في أجسامنا حتى يصل العظام. فيجعلنا ننتفض ونرتعد فالماء لا يستطيع أحـد أن يلمسه من شدة برودته ومن شدة الإحساس بالبرد أيضا. ويقـدر البعـد عن لمس الماء بقدر القرب من لمس الجمر. أظن تظهر أهمية الشمس هنا. الكل يحني لها القامة ويقدر لها منزلتها. يقول:

قد منع المـاء مـن اللمـس وأمكن الجمـر مـن اللمـس
فلست تلقى غـير ذي غـدة أو مسلم يسـجد للشـمس[1]

ولكن كيف يكون مسلما وهو يسجد الشمس ؟ إن شدة البرد جعلته ينسى أن السجود لا يكون إلا لله فقط، فابن المعتز لا يكتفي فقط باسـتخدام المعجم الإسلامي في دلالته الأصلية ولكنه كما يقول الدكتور كامل حسـين البصير:" إنه ينغمس في الحضارة المادية حتى الاختناق فقد جسد صـوره الفنية تلك من مادة المعجم الإسلامي لونا من العبث وشطحة من المجون"[2]

كما يقول في صورة خمرية:

وَمُدامَةٍ يَكسو الزُجاجَ شُعاعُها كَالخَيطِ مِن ذَهَبٍ إِذا ما سُـلَّتِ
حُبِسَتْ وَلَمْ تَرَ غَيْرَها في دَنِّها فَتَعَطَّرَتْ مِنْ نَفْسِـها وَتَحَلَّـتِ
قَدْ جاءَني بِكُؤوسِها ذُو غُنَّـةٍ صامَتْ لَهُ صُوَرُ المِلاحِ وَصَلَّتِ[3]

---

(١) نفسه، (٢/١٨٩).
(٢) بناء الصورة في البيان العربي، د. كامل مهدى البصير، (ص: ٤٧٧).
(٣) الديوان، (٢/٥٤)، طبعة بغداد.

" ففي هذه الصور التي نشم منها رائحة المـدام ونسـمع صـور الملاح. وقد أسندت فاعلا للفعل صام والفعل صلى الذين يفيضان قدسية وحرمة في أذهان الناس وحياتهم. ويقين أن هذه الصورة تنفر بناء ودلالة من الجو العام الذي يكتنف المقطوعة وتومىء إلى نشأة الشـاعر الثقافيـة والشعرية متبرئ من فعلته مع مادتها اللغوية والشرعية ".[١]

كما تتجلى هذه البديهة أيضا في أن مخيلة الشاعر امتلأت بألفـاظ من المعجم الإسلامي صور بها نزواته الذاتية. ومن ذلك قوله:

له مقلة ليسـت تقـر فرارهـا مســافرة عيــارة اللحظـات
شكوت إليه بعض وجدي بجـه وقلت له في السـر والخلـوات
تصدق على المسكين منك بقبلة فإني أراها أعظـم الحسـنات[٢]

" فلفظة (تصدق) تتضمخ بالروح القرآنية صياغة وتتشرب بالقيم الإسلامية دلالة في معجم الأتقياء والمؤمنين، بيد أن الشاعر يزحزحها عن جذورها ويسلخ منها مفهومها الدال على طلب المعروف قـولا وعمـلا، ويصور بها التماس القبلة أعظم حسنة في الدنيا "[٣]

فكثيرا ما يستخدم ابن المعتز هذا العبث وهو يغترف من المعجـم الإسلامي. فلا عجب إذا رأينا حيطان داره راكعة ساجدة. أو قلمه يسـجد في خشوع. يقول في كثرة المطر:

---

(١) بناء الصورة، (ص: ٤٧٦).

(٢) الديوان، (٤٩/٢)، طبعة بغداد.

(٣) بناء الصورة ، (ص ٤٧٥ ، ٤٧٦) .

رَوَينا فَما نَزدادُ يا رَبِّ من حَيًا ... وَأَنتَ عَلى ما في النُفوسِ شَهيدُ
سُقوفُ بُيوتي صِرنَ أَرضًا أَدوسُها ... وَحيطانُ داري رُكَّعٌ وَسُجودُ [1]

ويقول في وصف قلم القاسم بن عبد الله:

أباه: قال ابن المعتز: الخفيف:

قلم ما أراهُ أم فلك يَجـ ... ـري بما شاء قاسم ويسيرُ
خاشعٌ في يدَيْه يَلْثِمُ قِرْطا ... سًا كما قبّل البساطَ شكورُ [2]

وليس هذا فقط بل نواه يربط بين متناقضين الأول ربما يحرمه الدين والثاني يدعو إليه الدين فنراه يشبه ترجيع المزمار بتلاوة القرآن. يقول:

كأنما المزمار في ترجيعه ... عصابة في الفجر يتلون الزمر[3]

أي عبث هذا.

كما يستخدم ابن المعتز الأحداث الإسلامية التاريخية أو الأخبار التي زودنا بها القرآن للعبرة في صوره الفنية، ألم يشبه أعداء محدثه بالزرع الحصيد وأنهم أصبحوا لا وجود لهم حتى أن أخبارهم صارت تروى كأخبار عاد وثمود. يقول:

فَلَقَد أَصبَحَ أَعدا ... ؤُكَ كَالزَرعِ الحَصيدِ
ثُمَّ قَد صاروا حَديثًا ... مِثلَ عادٍ وَثَمودِ [4]

---

(١) الديوان، (١٧٢/٢) ، طبعة دار بغداد .

(٢) الديوان، (١٨٠/٢)، طبعة دار بغداد.

(٣) الديوان، (٣٧٠/١).

(٤) الديوان، (٤٧٤/١)، طبعة دار المعارف.

أو تصويره الغريب لقسوة الهوى عليه والذي يشبهه بامرئ من أتباع علي بن أبي طالب يظنه من نجل اليزيد الذي قتل الحسين يقول:

فكأنَّ الهوى امرؤ علويٌّ ظنَّ أنّي وليت قتل الحسين!
وكأنّي لديه نجل زيادٍ فهو يختار أوجع القتلتين! (١)

ويقول أيضا مستخدما هذه الأحداث الإسلامية في صوره:

يا من تَشاغلَ بالسُرو رِ عن الفُؤادِ المُبْتلى
نَظَري إليكَ إذا رأيـ تكَ مُدبرًا أو مُقبِلا
نُظرَ ابنِ فاطمةِ الرضا ماءَ الفُراتِ بِكَربلا (٢)

فهو يشير إلى موت الحسين وهو ظمآن.

ومثلما استطاع ابن المعتز من توظيف الدين الإسلامي في صوره الفنية نجده يوظف الحركة العلمية التي كانت موجودة في هذا العصر لصوره أيضا. فتارة يشبه البرق بسطور مكتوبة بماء الذهب، وتارة يشبه صدغي الساقي في انتفاخهما بقافين – حرف القاف – في طرفي سطر، وتارة يشبه حجارة الموقد الثلاث بنقط حرف التاء، وتارة يشبه السقاة بين الندامى بألفات على السطور قيام، أو كان كاس الندامى المكتظة بالشراب، محابيير وراقين مملوءة بالحبر. يقول في البرق:

أرقتُ لبرق كثير الوميض ترامى غواربه في الشهبْ
كأنَّ تألقه في السماءِ سطورٌ كتبن بماءِ الذهبْ (٣)

---

(١) الديوان، (٢/٥٨٦)، طبعة بغداد.
(٢) الديوان، (١/٤٨٠)، دار المعارف.
(٣) الديوان، (٢/١٥٩)، دار المعارف.

ويقول في الساقي:

ظَلّتْ بمَلْهَى خَيْرِ يَوْمٍ وَلَيْلَــةٍ تَدُورُ عَلَيْنا الْكَأسُ فِــي فِتْيَــةٍ زُهْــرِ

بِكَفِّ غَزالٍ ذي عِذارٍ وَطُــرَّةٍ وَصُدْغَيْنِ كالْقافَيْنِ في طَرَفَيْ سَطْرِ(١)

ويقول في حجارة الموقد الثلاثة:

عَرِّج عَلى الدارِ الّتي كُنّا بِهــا تَغَيَّرَت مِن بَعدِ عَهــدِنا بِهــا

غَيرَ ثَلاثٍ لَم تَزَل تَشقى بِهــا كَنُقَطِ الثاءِ لَدى كُتّابِهــا (٢)

ويقول في وصف السقاة:

وَكَأَنَّ السُقاةَ بَينَ النَدامى أَلِفاتٌ عَلى السُطورِ قِيامُ(٣)

ويقول:

كأنَّ الندامى حين كظوا بشربة محابرَ وراقينَ قد ملئتْ حبرا(٤)

كما يستخدم القراءة والكتابة في صورة رائعة. فيقول:

والطَّير يقرأُ والغَديرُ صحيفةٌ والرِّيحُ تكتبُ والغمامُ ينقُطُ(٥)

صحف وقراءة وكتابة.

ويقول أيضا مستخدما مصطلحات علم الكلام مثل الشك واليقين في صفة للخمر:

مُعَتَّقَةٌ صاغَ المِزاجُ لِرَأسِها أَكاليلَ دُرٍّ ما لِمَنظومِها سِلكُ

---

(١) نفسه، (٢٦١/٢) .

(٢) نفسه، (٢٣٠/١).

(٣) نفسه، (٣٠٨/٢).

(٤) نفسه، (٢٦٣/٢) .

(٥) جوهر الكنز، لابن الأثير الحلبي، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، (ص: ٦٤).

فَقَد خَفِيَت من صَفوِها فَكَأَنَّها ... بَقايا يَقينٍ كادَ يُدرِكُهُ الشَكُّ[١]

ونلاحظ هذه الصورة القديمة الجديدة للثريا وهـي تلمـع، يشـبه الشاعر بريقها بزئبق لامع يرجرج في وقواريره. يقول:

كَأَنَّ الثُرَيّا هَودَجٌ فَوقَ ناقَةٍ ... يَحُثُّ بِها حادٍ إِلى الغَربِ مُزعَجُ

وَقَد لَمَعَت حَتّى كَأَنَّ بَريقَها ... قَـواريرُ فيـها زِئبَقٌ يَتَرَجرَجُ[٢]

أظننا بعد ذلك نستطيع أن نقول إن شعر ابن المعتز جاء تصويرا للحضارة التي ينتمي إليها. كما أن الحضارة وفرت له العديد من عناصـر بناء الصورة فجاءت مؤثرة في شعره كل التأثير.

---

(١) نفسه، (ص: ٦٣).

(٢) الديوان، (٢/١٤٤)، طبعة دار المعارف.


الخاتمة

ويستطيع الباحث في النهاية أن يقول:

- إن حياة ابن المعتز توفر لها من الروافد الحضارية التي لم تتــوفر لغيره من الشعراء ولذلك جاء شعره معبرا عن الحضارة الإسلامية في القرن الثالث الهجري أصدق تعبير.
- الجوانب المعنوية للحضارة الإسلامية ميزتها عــن غيرهـــا مــن الحضارات، ولقد ظهرت هذه الجوانب جلية واضحة في شعر ابن المعتز، فوجد في شعره ما يشير إلى الجوانب الإيمانيـــة والعقيــدة الإسلامية، وكذلك الأخلاق والسلوك المثالية التي أمرنا بها الإسلام واستطعنا كذلك من تصور الحركة العلمية الجبارة التي وجدت في هذا العصر.
- وكذلك وجد في شعره ما يدل على التسامح الديني فـــي الإســـلام والشورى والتضحية والدعوة إلى العمل.
- استطاع شعر ابن المعتز أن يصور لنا العديد من مظاهر الحضارة المادية من عمران وخدمات ومهن ولباس ومطعم وأعياد وحفلات ومجالس الأنس ووسائل اللهو والتجارة والزراعة وغير ذلك.
- كما كان للحضارة أثر في الموضوعات الشعرية فوجد الباحث من خلال شعر ابن المعتز أن الإسلام قد وضع قيما وســمات خاصـــة للشخصية الإسلامية أصبح الشاعر يفتخر بها ويمدح بها ويرثي بها ويهجو بتركها.

- اعتمد الشعر السياسي على الحجج والأدلة المنطقية متأثرا بالثقافات الأجنبية الوافدة وبما جاء في القرآن من الحجج الفقهية.
- كما تأثر شعر الحكمة بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية والتجارب الشخصية. وكان من أثر الحضارة على الغزل أن تغيرت الحبيبة من عربية محافظة إلى أجنبية مكشوفة الوجه تخالط الرجال وتجلس معهم وتغدو وتروح في عربية محافظة إلى أجنبية مكشوفة الوجه تخالط الرجال وتجلس معهم وتغدو وتروح في غير تحرج، هذا إن لم تكن مبتذلة تعيش في بيت من بيوت القيان ولذلك اكتشفت فجأة المجانية في العاطفة كما كان له أثر في ظهور الغزل الفاحش. كما وجد الغزل بالمذكر متأثرا بالأمم الأجنبية الوافدة.
- وكان للغناء أثر كبير على شعر الغزل فجاء الشعر في مقطوعات رقيقة العبارة سهلة الألفاظ.
- وكان من أثر الحضارة على الغزل أيضا يسر المقابلة والتراسل بالصحف المكتوبة والإهداء بين المحبين.
- وأثرت الحضارة على شعر الخمر فوصف لنا الشعر كثرة أنواع الشراب وإقبال الناس عليه في غير تأثم، فلهج كثير من الشعراء – ومنهم ابن المعتز – بالخمريات وأكثروا من وصفها وأثرها على النفس وكذلك وصفوا أدواتها وكؤوسها وسقاتها ومجالس شربها. كما وجد في شعر الوصف وصف للمظاهر الحضارية الجديدة من وصف للقصور والرياض والبرك ومجالس الغناء والطرب. أما

شعر الطرد فقد تحول من وسيلة للارتزاق في الجاهلية إلى وسيلة للهو والتسلية.

- وكان من أثر الحضارة على البناء الفني للقصيدة أن تطورت المقدمات القديمة ووجدت مقدمات جديدة من وصف للقصور والطبيعة وذكر مجالس الخمر والغناء والغزل بالمذكر.
- كما أثرت الحضارة على ختام القصيدة فظهر التناسب الدقيق بين الغرض من القصيدة والخاتمة.
- ارتقت الحضارة بالمشاعر والنفوس مما جعل القصيدة يسيطر عليها جو نفسي واحد فجاءت متماسكة مترابطة أكثر من ذي قبل.
- أثر الغناء في تنويع أوزان الشعر العباسي فأكثر الشعراء من استخدام البحور القصيرة والمجزوءة.
- كما أثر الغناء أيضا على القافية فشرعت بعض الأشكال الشعرية التي تخففت من سلطان القافية مثل المزدوجات الطويلة والمقطوعات الشعرية القصيرة.
- كما أكثر ابن المعتز من استخدام الموسيقى الداخلية من تكرار وتصريع، وجناس، وحسن تقسيم، وغيره.
- تأثر أسلوب الشعر بحياة الترف والغناء فجاء شعر ابن المعتز رقيقا سهلا.
- كما طعمت الحضارة ألفاظ الشعر بشيء مما كان شائعا في ذلك العصر من الألفاظ. الأعجمية التي صارت تجري على ألسنة الناس

كما ظهرت بعض الألفاظ العلمية كما كان للقرآن الكريم أثر كبيـر على أسلوب الشعر.

- ومن مظاهر الحضارة أيضا الاهتمام باستخدام البديع والذي وجـد في شعر ابن المعتز ولكن في عفوية تامة.
- كما كان للحضارة أثر بالغ على الصورة الشعرية، حيث اسـتخدم ابن المعتز العديد من مظاهر الحضارة الجديدة في تركيب الصورة مازجا ذلك بما وجد في بيئته العامة والخاصة.
- كان للقرآن الكريم أثر مباشر وغير مباشر على الصورة الشعرية. أما غير المباشر فظهر جليا في تغير نظرة الإنسـان إلـى نفسـه وتحول المرأة من وعاء إنجاب وضجيعة فراش إلى زوجة وحبيبة. كما كان له الأثر في النظرة التأملية للكون والحياة. فاتسع مـدارك الشعراء فجاءت صورهم وخاصة ابن المعتز دقيقة وجديدة.
- كما استخدم ابن المعتز العديد من مظاهر الحركـة العلميـة فـي تركيب الصورة.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية:

١- أسرار البلاغة، الإمام عبد القاهر الجرجاني: تحقيق محمد رشيد رضا دار المعرفة، بيروت ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م.
٢- أشعار أولاد الخلفاء، أبو بكر الصولي- الجزء الأول - دار المسيرة، بيروت لبنان .
٣- الأعلام- خير الدين الزركلي، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٤٢ م.
٤- الأغاني- أبو الفرج على بن الحسين الأصفهاني. طبعة الشعب، طبعة دار الكتب المصرية (وزارة الثقافة والإرشاد القومي).
٥- الإيضاح في علوم البلاغة - الخطيب القزويني، شرح وتعليق: الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي - منشورات دار الكتاب اللبناني - الطبعة الخامسة، ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠م.
٦- البديع- عبد الله بن المعتز العباسي، اعتنى بنشره المستشرق أغناطيوس كراتشوفسكي- منشورات دار الحكمة - حلبوني - دمشق.
٧- البيان والتبيين- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق السندوبي.
٨- تاريخ الخلفاء - جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة. الطبعة الثانية ١٩٥٢م.
٩- تاريخ الطبري- تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف بمصر.

١٠- الديارات- أبو الحسن على بن محمد الشابشتى، تحقيق: كوركيس عواد، دار الرائد العربي، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦م.

١١- ديوان ابن الرومي- تحقيق: د. حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ م.

١٢- ديوان أبي نواس - تحقيق وضبط وشرح:عبد المجيد الغزالي- طبعة حركة مصر- القاهرة: ١٩٥٣ م.

١٣- ديوان أشعار الأمير أبي العباس - عبد الله بن المعتز بالله الخليفة العباسي تحقيق: د. محمد بديع شريف، دار المعارف.

١٤- ديوان البحتري- تحقيق: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف ١٩٦٣ م.

١٥- زهر الآداب وثمر الألباب - الحصري القيرواني- مفصل ومشروح بقلم: زكى مبارك، دار الجبل - بيروت - لبنان.

١٦- الشعر والشعراء- ابن قتيبة، تحقيق أحمد شاكر، طبعة دار المعارف بمصر.

١٧- صبح الأعشى في صناعة الإنشا - أبو العباس القلقشندي - طبعة دار الكتب.

١٨- الصناعتين- أبو هلال العسكري- تحقيق: على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم: عيسى البابي الحلبي.

١٩- طبقات الشعراء- عبد الله بن المعتز العباسي، تحقيق: عبد الستار فراج، دار المعارف بمصر.

٢٠- العقد الفريد- لابن عبد ربه - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٥ هـ، ١٩٦٥م، بيروت " أوفست ".

٢١- العمدة في صناعة الشعر ونقده - ابن رشيق القيرواني- تحقيق: مفيد محمد قمحية. دار الكتب العلمية بيروت.

٢٢- عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي - دراسة وتحقيق، د.محمد زغلول سلام الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية.

٢٣- الفهرست، ابن النديم - مطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٨هـ

٢٤- الكامل - على بن أحمد بن أبى الكرم بن الأثير - الجزء السابع - دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧ م.

٢٥- مرآه الجنان وعبرة اليقظان- أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات. بيروت، لبنان.

٢٦- المصون في الأدب، أبو أحمد الحسن العسكري، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٢٧- معجم البلدان، ياقوت الحموي - مطبعة السعادة بمصر - الطبعة الأولى، ١٩٠٦م، ١٣٢٤ هـ.

٢٨- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم بن أحمد العباس- تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٤٧م.

٢٩- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، دار القلم، بيروت، لبنان.

٣٠- مروج الذهب، أبو الحسن على بن الحسن المسعودي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة التحرير، ١٩٦٦م.

٣١- الموشح، أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، تحقيق: على محمد البجاوي- دار نهضة مصر.

٣٢- النجوم الزاهرة، جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، ١٩٣٢م.

٣٣- نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق: الدكتور: محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

٣٤- وفيات الأعيان – شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم ابن خلكان – تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٦٧هـ، ١٩٤٨م.

ثانيا : المراجع العربية :

٣٥- ابن الرومي، محمد عبد الغنى حسن، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٩٧١ م.

٣٦- ابن الرومي حياته من شعره، عباس العقاد، الطبعة الرابعة، القاهرة: ١٩٥٧م، ١٣٧٦هـ.

٣٧- ابن المعتز العباسي: د. أحمد كمال ذكي. المؤسسة المصرية العامة- سلسلة من أعلام العرب.

٣٨- ابن المعتز العباسي صورة لعصره: د. سعد إسماعيل شلبي، دار الفكر العربي.

٣٩- ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان: د. محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة الحسين التجارية، الطبعة الأولى: ١٣٦٨هـ ، ١٩٤٩م .

٤٠- أبو نواس وقضية الحداثة في الشعر: د. العربي حسن درويش، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧.

٤١- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر: د. عبد القادر القط. مكتبة الشباب، سنة ١٩٧٨م.

٤٢- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري: د. محمد مصطفى هدارة، المكتب الإسلامي- بيروت، طبعة أولى: ١٩٨١.

٤٣- الأدب والحضارة: د. السيد تقي الدين، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

٤٤- الأدب والحضارة: د. نعمات أحمد فؤاد، دار المعارف، سلسلة كتابك: ١٩٨١م.

٤٥- الأدب وفنونه، د. عز الدين إسماعيل، الطبعة السابعة. دار الفكر العربي.

٤٦- أسس النقد العربى عند العرب: د. أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر- الفجالة، القاهرة.

٤٧- أضواء على الحضارة الإسلامية: أحمد عبد الرحيم السايح، دار اللواء للنشر والتوزيع،الرياض.

٤٨- الالتزام الاسلامى في الشعر: وناصر عبد الرحمن الخنين، دار الأصالة للثقافة والنشر، الرياض ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م.

٤٩- أمراء الشعر العربى: أنيس المقدسـي، الطبعـة الخامسـة عشر، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ١٩٨٣م.
٥٠- الإنسان والحضارة في العصر الصناعي: د فؤاد زكريـا، الطبعة الثانية. الناشر: مركز كتب الشرق الأوسط.
٥١- البغداديون أيام زمان: راسم الجميلي، الجزء الأول- بغداد .
٥٢- بناء الصورة الفنية في البيان العربي، موازنة وتطبيـق: د. كامل مهدي البصير، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٥٣- بناء القصيدة في النقد العربي القديم: د. يوسف حسن بكار دار الأندلس. بيروت- الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣م.
٥٤- تاريخ الأدب العربي: أحمد حسن الزيات، دار نهضة مصر الفجالة، القاهرة .
٥٥- التاريخ الإسلامي العام: د. على إبراهيم، مكتبـة النهضـة ١٩٥٣م.
٥٦- تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجـري: د. نجيب محمد البهبيتى. دار الثقافة- الدار البيضاء.
٥٧- التركيب اللغوي للأدب: د. لطفي عبد البديع، الطبعة الأولى النهضة المصرية. القاهرة، ١٩٧٠م.
٥٨- التصوير البياني: د. حفني شرف، مكتبة الشـباب، سـنة ١٩٧٠م.

٥٩- التعبير البياني- رؤية بلاغية نقدية: د. شفيع السيد، الطبعة الثانية، داز الفكر العربي، ١٩٨٢.

٦٠- تفسير الألفاظ الدخلية في اللغة العربية: طوبيا الفينسي- دار العرب- القاهرة ١٩٦١ م.

٦١- التفسير النفسي للأدب: د. عز الـدين إسـماعيل، الطبعـة الرابعة، مكتبة غريب.

٦٢- التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول. منشورات وزارة الأوقاف والشئون الدينية. بغداد- العراق، الطبعـة الأولـى ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢م.

٦٣- تيارات ثقافية بين العرب والفرس: د. أحمد الحوفي. الطبعة الثالثة، دار نهضة مصر- الفجالة، القاهرة.

٦٤- الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجـري: د. أحمد كمال ذكي، دار المعارف، بمصر، سنة ١٩٧١ م.

٦٥- الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربـي القـديم تاريخها وقضاياها: د. عثمان موافي، الطبعة الثانية: دار المعرفـة الجامعية. ١٩٨٤م.

٦٦- الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية: د. فـاروق عمر، ط ٢ مكتبة المتنبي، بغداد، العراق، ١٩٧٧م.

٦٧- دراسات في الأدب العربي، العصر العباسـي: د. محمـد زغلول سلام. الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية.

٦٨- دراسات في الأدب الإسلامي: د. سامي مكي العاني- المعارف، بغداد ١٩٦٨م.
٦٩- دراسات في الشعر الجاهلي: د. يوسف خليف، مكتبة غريب- القاهرة.
٧٠- الرؤيا المقيدة. دراسة في التفسير الحضاري للأدب: د. شكرى عياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨ م.
٧١- سامراء في أدب القرن الثالث الهجري: د. يونس أحمد السامرائي، مطبعة الإرشاد. بغداد، ١٩٦٨ م.
٧٢- شعر ابن المعتز، دراسة وتحقيق: د. يونس أحمد السامرائي، وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.
٧٣- الشعر الجاهلي. قضاياه الفنية والموضوعية: د. إبراهيم عبد الرحمن محمد، مكتبة الشباب، ١٩٧٩م.
٧٤- الشعر والشعراء في العصر العباسي، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة.
٧٥- شعر الطبيعة في الأدب العربي: د. سيد نوفل، الطبعة الثانية. دار المعارف بمصر، ١٩٧٥م.
٧٦- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور: د. شوقي ضيف
٧٧- الشعر العباسي التيار الشعبي: د. سعد إسماعيل شلبي، مكتبة غريب.

٧٨- الشعر العباسي الرؤية والفن: د. مصطفى ناصف، مكتبة مصر.
٧٩- الصورة والبناء الشعري: د. محمد حسن عبد الله، دار المعارف، ١٩٨١م.
٨٠- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي: د. جابر أحمد عصفور. دار المعارف.
٨١- الصورة الفنية في شعر دعبل الخزاعي: د. على إبراهيم أبو زيد، دار المعارف، ١٩٨١م.
٨٢- الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري: د. على البطل، الطبعة الثالثة، دار الأندلس، بيروت ١٩٨٣ م.
٨٣- صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي: ميخائيل عواد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العرقية، ١٩٨١م.
٨٤- الصيد والطرد في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري: د. عباس مصطفى الصالحي. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ، ١٩٨١م.
٨٥- ضحى الإسلام: أحمد أمين، دار نهضة مصر.
٨٦- ظهر الإسلام: أحمد أمين، دار نهضة مصر.
٨٧- الظاهرة الجمالية في الإسلام: صالح أحمد الشامي. الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي. بيروت- دمشق، ١٤١٧هـ، ١٩٨٦م.

٨٨- عبد الله بن المعتز العباسي: د. محمد عبد الكفـراوي: دار نهضة مصر.

٨٩- عبد الله بن المعتز أدبه وعلمه: عبد العزيز سـيد الأهـل، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥١م.

٩٠- العرب والحضارة: د. على حسن الخربوطلي، دار نهضـة مصر.

٩١- العصر العباسي الأول: د. شوقي ضـيف دار المعـارف بمصر.

٩٢- العصر العباسي الثاني: د. شوقي ضـيف، دار المعـارف بمصر.

٩٣- عضوية الموسيقى في النص الشعري: د. عبد الفتاح صالح نافع، الطبعة الأولى. مكتبة المنار الأردن، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥ م.

٩٤- العالم الإسلامي في العصـر العباسـي: د. حسـن أحمـد محمود، د. أحمد إبراهيم الشريف، الطبعـة الأولـى، دار الفكـر العربي، ١٩٧٣م.

٩٥- العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجري: فهمي عبد الرازق سعد، الشركة الأهليـة للنشـر والتوزيـع، بيـروت، ١٩٨٣م.

٩٦- علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته: د. صلاح فضل. الطبعـة الثانية- الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.

٩٧- علم البديع: د. عبد العزيز عتيق- دار النهضة العربية ١٩٧٤م.

٩٨- العلوم والمعارف في العصر العباسي: أحمد ذكي صفوت، مطبعة الابتهاج، القاهرة.

٩٩- فصول في الشعر ونقده: د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر.

١٠٠- فن الشعر الخمري وتطوره عند العرب: إيليا حاوي، دار الثقافة- بيروت، لبنان، ١٩٨١م، ١٤٠١ هـ.

١٠١- فن الوصف وتطوره في الشعر العربي: إيليا حاوي، الطبعة الثانية. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠م.

١٠٢- الفن ومذاهبه في الشعر العربي: د. شوقي ضيف.

١٠٣- في الأدب العباسي:د. محمد مهدى البصير، مطبعة النعمان، العراق – الطبعة الثالثة – ١٩٧٠م.

١٠٤- في البنية الإيقاعية للشعر العربي: د. كمال أبو ديب، الطبعة الأولى. دار العلم للملايين، بيروت: ١٩٧٤ م.

١٠٥- في تاريخ الأدب الجاهلي: د. على الجندي، دار المعارف بمصر.

١٠٦- في النقد الأدبي: د. شوقي ضيف.

١٠٧- في النقد الأدبي عند العرب: د. محمد الطاهر درويش مكتبة الشباب- القاهرة.

١٠٨- في نقد الشعر: د. محمود الربيعي- دار المعارف، ١٩٧٤م

١٠٩- قدامة بن جعفر والنقد الأدبي: د. بدوى طبانة، الطبعة الثالثة، مكتبة الأنجلو المصرية.

١١٠- القصيدة العباسية، قضايا واتجاهات: د. عبد الله التطاوى، الطبعة الثانية- مكتبة غريب.

١١١- القافية في العروض والأدب: د. حسين نصار - دار المعارف بمصر.

١١٢- القيان والغناء في العصر الجاهلي: د. ناصر الدين الأسد. دار الجبل، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨م.

١١٣- معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول: د. محمود نبيه حجاب، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م.

١١٤- مقدمة القصيدة بين أبى تمام والمتنبي: د. سعد إسماعيل شلبي. مكتبة غريب.

١١٥- مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول: د. حسين عطوان- دار المعارف بمصر.

١١٦- المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول: د. عزيز فهمي. تحقيق محمد قنديل البقلي، دار المعارف بمصر.

١١٧- من بلاغة القرآن: د. أحمد أحمد بدوي. دار نهضة مصر للطبع والنشر- الفجالة، القاهرة.

١١٨- من حديث الشعر والنثر: د. طه حسين، دار المعارف. القاهرة.

١١٩- من روائع حضارتنا: د. مصطفى السباعي. المكتب الإسلامي. بيروت.

١٢٠- من مباحث علم البيان: د.عبد الواحد علام: مكتبة الشباب. القاهرة.

١٢١- موسيقى الشعر: د. إبراهيم أنيس، الطبعة الرابعة، دار القلم بيروت.

١٢٢- مواقف في الأدب والنقد: د. عبد الجبار المطلبي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية.

١٢٣- ١٢٤- النقد الأدبي: د. أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

١٢٤- النقد الأدبي، أصوله ومناهجه: سيد قطب، الطبعة الخامسة، دار الشروق، ١٩٨٣م.

١٢٥- النقد الأدبي الحديث: د. محمود غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

١٢٦- الوسيط في الأدب العربي: أحمد الاسكندري، والشيخ مصطفى عناني، دار المعارف. ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

ثالثا: المراجع المترجمة:

١٢٧- تاريخ الأدب العباسي: نيولد. نكلش. ترجمة، د. صفاء خلوصي، الناشر: المكتبة الأهلية، في بغداد، ١٩٦٧م.

١٢٨- تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان. ترجمة، د. عبد الحليم النجار، الجزء الثاني. دار المعارف. الطبعة الخامسة.

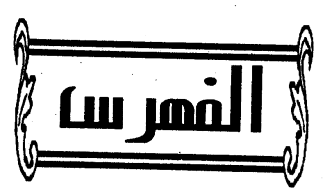
١٢٩- تاريخ العرب: فيليب حتى، بالاشتراك مع د. جبرائيل جبور وإدوار جرجي، دار غندور للطباعة والنشر، بيروت، ط١٦ ١٩٨٠م.

١٣٠- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: آدم متز، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة. لجنه التأليف والترجمة والنشر. الطبعة الثالثة.

١٣١- حضارة العرب: غوستاف لبون، نقله إلى العربية، عادل زعيتر، طبع: عيسى البابي الحلبي وشركاه.

١٣٢- الحضارة العربية: جاك. س ريسلر، ترجمة: غنيم عبدون مراجعة. د. أحمد فؤاد الأهواني، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

١٣٣- الغزل عند العرب: ج. ك. قادية. ترجمة: الدكتور إبراهيم الكيلاني، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية – الطبعة الثانية، ١٩٨٥ م.


الفهرس